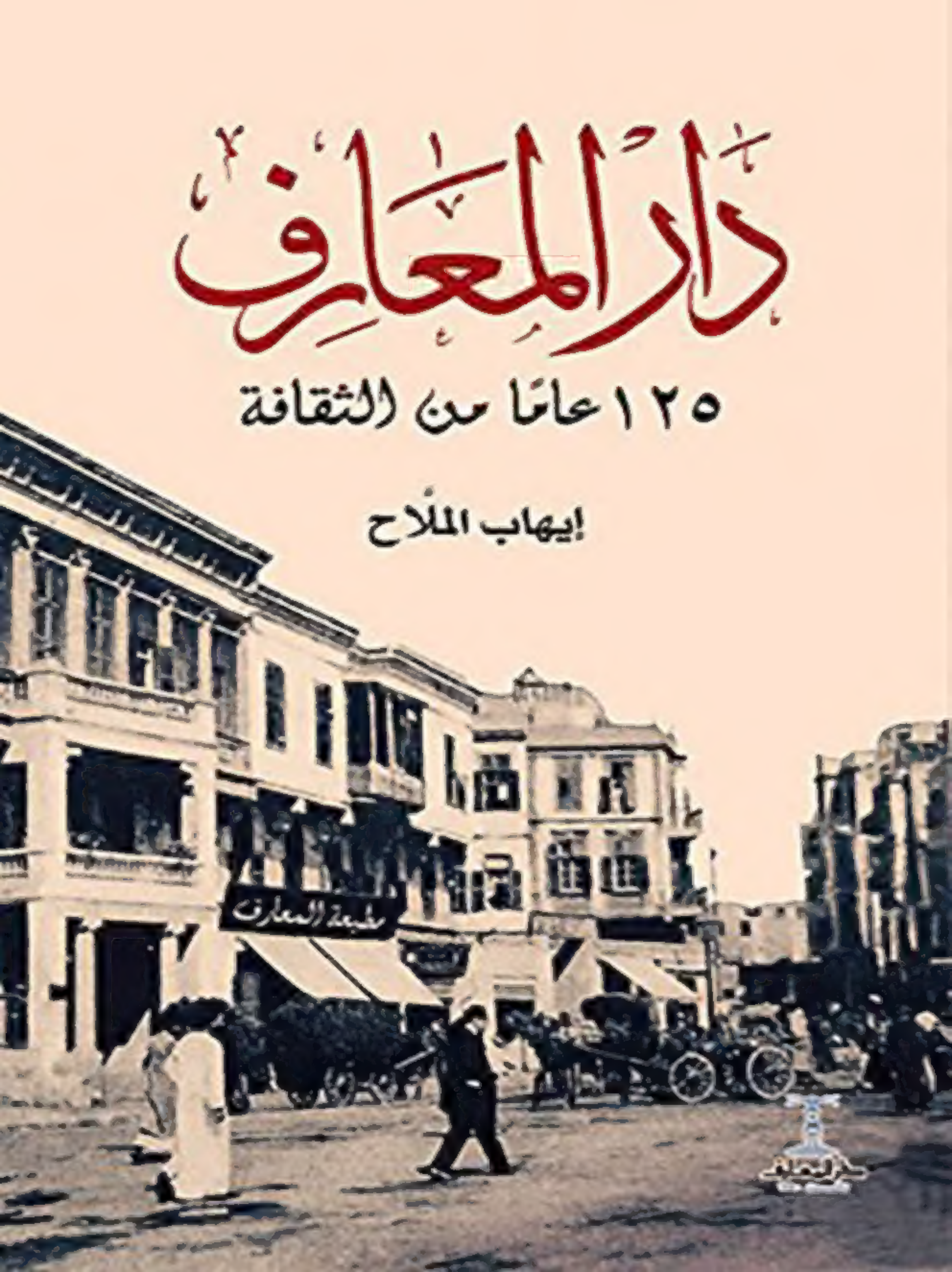

دار المعارف
١٢٥ عامًا من الثقافة
إيهاب الملاح
مطبعة المعارف

دار المعارف
١٢٥ عامًا من الثقافة

إيهاب الملاح





رئيس مجلس الإدارة

سعيد عبده مصطفى

كتاب تذكاري

تصميم الغلاف:

أحمد مراد

إخراج فني:

محمد عطية

تم التنفيذ بمركز زايد للنشر الإليكتروني بدار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة - جمهورية مصر العربية

اللاح، إيهاب.

دار المعارف: ١٢٥ عاماً من الثقافة/ إيهاب اللاح.

القاهرة: دار المعارف، 2016.

196 ص، 24 سم

تدمك 4 8339 02 977 978

1 - الناشرون.

2 - نشر الكتب.

(أ) العنوان.

تصنيف ديوي: 70.5

رقم الإيداع: 7659/ 2016

رقم أمر التشغيل: 21/ 2016/ 1

رقم الكونجرس: 6 - 840236 - 01 - 2

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.

هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

المقدمة

الأحد ٢٧ ديسمبر ٢٠١٥م يكتمل العام الخامس والعشرون بعد المائة من عمر دار المعارف كأول دار نشر على مستوى العالم العربى.

كانت دائما هذه المؤسسة سباقة لخدمة القارئ أينما كان ويتوجه عربى ونظرة شاملة للنشر حيث امتدت إصداراتها من أدب الأطفال للنشر الأدبى لأعمال كبار الكتاب للنشر المتخصص حيث شملت الإصدارات أجيالا وأجيالا على مستوى الوطن العربى وتركت بصمة كبيرة نتوارثها.

لذا كانت مهمة الزميل إيهاب الملاح فى القيام بإعداد هذا الكتاب ليست بالهينة واستغرق فى عملها وقتا وجهدا كبيرين يحسبان له لأخراجه بهذه الصورة الرائعة.

فدار المعارف تستحق أكثر من كتاب للوقوف على ما بذله من سبقونا من جهد سواء المؤسسين أو من تسلموا المسئولية من بعدهم..

يكفى دار المعارف فخرا أن شارك فى لجنة النشر بها كل من العقاد وطه حسين وعلى الجارم وغيرهم من كبار الأدباء فى مصر وتستمر المسيرة بإذن الله بجهد العاملين وروحهم وعملهم على رفعة هذا الاسم والحفاظ عليه وتطوير الأداء لمسايرة العصر وتقديم كل جديد لتكون ولتظل دار المعارف منارة للفكر والمعرفه فى مصر والعالم العربى.

سعيد عبده مصطفى

رئيس مجلس الإدارة





نجيب متري

مؤسس مطبعة المعارف ومكتبتها

ولد فى أول مايو سنة ١٨٦٥م وتوفى فى ٢٦ نوفمبر سنة ١٩٢٨م

تمهيد

هجرة الشوام إلى مصر فى القرن التاسع عشر

كانت أحد السمات البارزة للمجتمع المصرى منذ منتصف القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين حيويته الكبيرة والتى كان أحد أهم أسبابها انفتاح مصر وتوافد الكثيرين عليها مهاجرين لأغراض شتى، ومن بين كل الهجرات، كانت هجرة الشوام أهمها وأكثرها تأثيرا حيث بثت دماء جديدة فى شرايين الثقافة والاقتصاد والاجتماع المصري، وهو تأثير لا زلنا نلاحظ بقاياه الآن.

وقد لعب الشوام خصوصا اللبنانيين، خلال الفترة من منتصف القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين، دورًا بارزًا فى الثقافة والفن والأدب والصحافة.

لم يكن الاضطهاد الدينى وحده سبب الهجرة، وخصوصا فى عهد "أحمد باشا الجزار"، ولكن أيضا نهضة "محمد على باشا" هى التى جذبت آلاف الشوام للحاجة إلى مترجمين من وإلى الإنجليزية والفرنسية، كما اجتذبت آلاف التجار وأصحاب الصناعات المختلفة. فى هذه الفترة كانت الشام تعيش حالا من التعصب الدينى والانغلاق الطائفى والظلم الاجتماعى وغياب الحرية، إضافة لقلة الموارد وضعف الاقتصاد.

فى هذه الفترة أيضًا، ومع التحولات الاقتصادية الكبيرة ظهرت أهمية الشوام المهاجرين كوسطاء مقبولين من الطرفين: الأجانب وأصحاب رأس المال أو المجتمع المصرى الذى قبل الوساطة منهم مفضلا إياهم عن الأجانب. فكانت الفرصة مواتية لهم ساعدتهم مهاراتهم وإمكاناتهم الخاصة من إجادة اللغات والمعرفة بالغرب وثقافته أو الخبرات التجارية والصناعية الحديثة. فكان



أن قيضت لهم الأقدار لعب دور بارز فى الإسهام فى تحديث المجتمع المصرى وعصرنته من خلال أعمال الطباعة والترجمة والنشر، وسائر الأنشطة الثقافية والمعرفية وأيضا من خلال حركة إنشاء مصانع الصناعات الحديثة من زيوت وصابون وعطور وتبغ وأسلحة وحلج القطن وصناعة الحرير بل وتربية دودة القز! وسائر الأنشطة التجارية والمضاربات والسمسرة وأعمال البورصة.

عومل الشوام نفس معاملة المصريين، بل إن «محمد على» بعث بعضهم فى بعثاته إلى فرنسا، وزادت الهجرات مع تحالف محمد على مع الأمير «بشير الشهابى»، وتنوعت أنشطتهم من التجارة والصناعة إلى الأدب والفن والصناعة.

وكانت دمياط هى أولى مدن الهجرات الشامية، ومنها انطلقت إلى كل المدن المصرية تقريبا بما فيها مدن الصعيد، بل إن بعض الشوام ذهبوا واستقروا فى الخرطوم التى أسسها «محمد على» لتكون عاصمة للسودان.

كان المجتمع المصرى آنذاك مجتمعا ناهضا يضج حيوية، ومن ثم كان قادرا على الصهر والتذويب وتفكيك الطائفية لدى المهاجرة، لقد كان هذا مزاج وطبيعة شعب لكن أيضا سياسة دولة لا تهاون فيها، لذلك كان قرار إلغاء الطائفية فى المدارس وفتح هذه المدارس التى أسستها طوائف الشوام لأبناء كل الطوائف الأخرى وإغلاق من يخالف.

لم تكن هناك طائفية فى المجتمع المصري، بل كانت الدولة المصرية الحديثة من قاوم الطائفية والعنصرية فى الشام، ومن ثم كان سهلا على الشوام الهجرة والاستقرار بمصر حتى زاد عددهم على مائة ألف مهاجر معظمهم من المسيحيين.

لقد كانت مصر وقتها قاعدة كبرى لمشروع تحديثى قائد للمنطقة، يحاول الأخذ بكل أسباب التحديث والنهضة ولا يعانى الخوف من الآخرين بل يجد فى نفسه الثقة على استيعابه



والاستفادة منه. ومن يتأمل الصفحات الطويلة التى تؤرخ لمئات المفكرين والكتاب والصحفيين والفنانين والمبدعين الشوام الذين احتضنتهم مصر واستوعبت طاقاتهم المبدعة سيشعر بالحسرة والخجل من المعارك الوهمية باسم الدفاع عن مصر من اختراق المبدعين أو الفنانين الشوام يشعلها فاشلون يتسترون بها على الضعف وانعدام الموهبة!

فى البداية، كانت للشوام أحياؤهم الخاصة مثل "الفجالة"، و"شبرا"، و"الظاهر" و"السكاكينى".. وفى مربع لا يجاوز أربعة كيلومترات مربعة ما بين رمسيس والظاهر بنوا عددا كبيرا من الكنائس والمدارس الخاصة بهم، لكنهم تحولوا مع الزمن للسكن فى كل المناطق حسب وضعهم الطبقي.

كانت أكبر الطوائف هجرة بين الشوام الأرثوذكس، ثم الكاثوليك، ثم الموارنة، فالسريان، والكلدان، والأرمن، أما المسلمون فكانت النسبة الأكبر فى فترة ما بين الحربين العالميتين، وكانوا سريعى الاندماج فى المجتمع المصري. الطريف أن بعض العائلات اللبنانية خاصة من المارون سرعان ما استقرت فى مصر حتى صارت بلدهم الأول واستدعت بقية العائلة حتى أن عدد أبناء هذه العائلات فى مصر صار أكبر منه فى بلد الأصل لبنان كما فى عائلات «صعب» و«الزند» و«شديد» و«المنتوش» و«الجميل».. وفى حين لم يزد عدد الموارنة على ١٨٤ فردا عام ١٨٢٤م زاد فى عام ١٩٤٧م إلى ١٢ ألفا!

وكان لعدد كبير من هذه الأسر والعائلات دور ثقافى ريادى، فهم من أسسوا الصحف والمجلات الأولى فى مصر، «فسليم الحموى» أسس «كوكب الشرق» بالإسكندرية عام ١٨٧٣م، و«سليم وبشارة تقلا» أسسا «الأهرام» عام ١٨٧٥م قبل نقلها للقاهرة، وأسسا بمعاونة «سليم نقاش» أول فرقة مسرحية عرضت على قصر زيزينيا ١٨٧٦م وهم من أحضروا أول فرقة مسرحية



للأسكندرية (فرقة أبو خليل القباني) ١٨٨٤م، كما أحضروا أبرز الفرق الفنية فى العالم، وتحولت الإسكندرية وقتها لباريس صغرى.. لقد قُدِّرت ثروة المهاجرين اللبنانيين فى ١٩٠٧م بنحو عشر الثروة القومية فى مصر!

وطوال تاريخهم لم يتعرض المهاجرون الشوام فى مصر للاضطهاد يوما بسبب الدين أو الانتماء السياسى وحتى موضوع "التأميم" لم يكن موجها لهم بشكل مباشر بل للأجنبى، ولم تقابلهم أى عقبة فى الاندماج، وحتى ابتعادهم عن المشاركة السياسية كان له صلة بكونهم ليسوا من أبناء البلد ومعظم اهتمامهم بالاقتصاد، ورغم ذلك نجحوا فى الاقتراب من مراكز صنع القرار على الأقل لحماية نشاطهم الاقتصادى، بل برزت منهم أسماء مهمة مثل "كريم ثابت" الصحفى الشهير ومستشار الملك فاروق الذى كان ينظر إليه فى بعض الدوائر باعتباره الملك غير المتوج!

تدريجيا، ومثلما فعلت مع كل الوافدين عليها، قامت مصر بتمصير هؤلاء المهاجرين حتى أصبحت الأجيال الثالثة والرابعة منهم من المصريين تماما كما هو الحال مع أسرة "الرافعي" القادمة من طرابلس (منهم المؤرخ عبد الرحمن الرافعي، والأديب مصطفى صادق الرافعى)، وأسرة شلهوب (ومنهم عمر الشريف)، وأسرة شاهين (ومنها يوسف شاهين)، وأسرة صيدناوى الشهيرة أصحاب المتاجر المعروفة، وأسرة السيدة فاطمة اليوسف (ابنها الروائى والصحفى إحسان عبد القدوس)، وهناك من ولد وعاش فى مصر ثم عاد إلى لبنان مثل "بيير الجميل" الذى ولد وعاش بمدينة المنصورة عام ١٩٠٥م، ثم عاد إلى لبنان ليؤسس حزب الكتائب، وولداه بشير وأمين كانا من رؤساء لبنان.

مصر الكوزموبوليتانية العربية استوعبت كل المبدعين والتجار والصحفيين فى أزمنة النهضة، واكتسبت قوتها من هذا التنوع الرائع. وفى خضم هذه الحركة الموارة الثرية، فتح الناشرون



الشـوام المهاجـرون إلى مصـر فتوحـات كـبرى فـى عـالم الطباعة والنشر، وبرز العديد من الأسر والعائلات التى امتنهت نشر الكتب فى النصف الثانى من القرن التاسـع عشـر؛ مثل عائلات: "الحلبى، الخانجى، الخطيب، القدسى، البستانى، تقلا" .. إلخ.

وكان بين أبرز اللبنانيين الذين هاجروا إلى مصر، واستقروا بها، وعاشوا فيها، "آل مترى، نجيب مترى، وولداه إدوارد وشفيق مترى"، وهى الأسـرة التى اشتغل مؤسسها بمهنة الطباعة والنشر، وتوارثها من بعده ابنه "شـفيق"، ويرتبط الاسمان "نجيب" و"شفيق" بصرح كبير، باهر، باذخ، اسمه دار المعارف.



الفصل الأول

نجيب مترى الأب (١٨٦٥م ـ ١٩٢٨م)



نجيب مترى

فى الأول من مايو من العام ١٨٦٥م، ولد «نجيب مترى» بلبنان، ببلدة الشويفات من أعمال جبل لبنان، وتعلم فى مدارسها، ثم انتقل إلى بيروت، وفيها تعلم فن الطباعة وصف الحروف، وحذق هذه المهنة وتشرب أصولها حتى صار فيها من المبرزين المحترفين. ولا نعلم كيف كانت الفترة التى قضاها فى مسقط رأسه منذ مولده وحتى هجرته إلى مصر التى كانت فى السنوات الأولى من ثمانينيات القرن التاسع عشر.

فى الإسكندرية، وحيث كان يقطن أحد المهاجرين اللبنانين أيضا «عزيز زند»(*)، يبدو أنه كان على صلة ما «بشفيق مترى»، ليس هناك ما يشير إلى طبيعة هذه العلاقة ولا أسباب انعقادها، كل ما نعلمه أنه قرر استدعاءه من لبنان ليشتغل معه فى صحيفته المحروسة، ويكون مديرا لمطبعتها، وبالفعل استجاب «مترى» لنداء «عزيز زند» ووفد إلى الإسكندرية فى العام ١٨٨٤م، وتولى إدارة مطبعة المحروسة.

ست سنوات قضاها «مترى» مديرا لمطبعة المحروسة بالإسكندرية، ثم انتقل بعدها إلى القاهرة فى عام ١٨٩٠م، مزمعا إنشاء مطبعة خاصة ومكتبة تكون نواة لمشروع كبير فى عالم الطباعة والنشر. ويبدو أن إمكانيات «نجيب مترى» المادية لم تكن تساعده لإنشاء

(*) مؤسس وصاحب صحيفة «المحروسة» أديب وصحفى مصرى، وفى قول آخر من المهاجرين الشوام، وهو الأرجح، لا تتوفر الكثير من المعلومات الدقيقة عن "زند"، وإن كنا نعرف أنه ولد فى القرن التاسع العشر، واحترف الصحافة فى شبابه حيث رأس تحرير جريدة "المحروسة" ومن مؤلفاته "القول الحقيق فى رثاء وتاريخ الخديوى توفيق".



هـذه المطبعة بشـكل مسـتقل أو منفـرد، فعقد شـراكة مع رائد شـامى كبير بدوره هـو العلم البـارز «جورجى زيدان»، وأسسـا معا «مطبعة التأليف».

لم تسـتمر هذه الشـراكة سـوى عام واحد، ولا نعلم الأسـباب التى كانـت وراء فضها، لكن وبصورة عامـة انتهت هذه التجربة باحتفاظ «جورجى زيدان» بالمطبعة وأسماها «مطبعة الهلال» التى سـتكون بعد عـام واحد فقط نـواة «دار الهـلال» العريقة. بينما أسـس «نجيب مـترى» مطبعة جديدة مسـتقلة أطلق عليها اسـم «مطبعة المعارف».

من هذه اللحظة سيشـهد تاريخ النشـر فى العالم العربى تدشين واحـدة مـع أروع تجاربهـا، ويسـتهل «نجيب مترى» عميـد عائلة «مـترى» فـى مصر رحلتـه مع مهنـة الطباعـة والنشـر. كان مقر المطبعـة فى بدايتها الأولى فى الطابق الأرضى من عمارة الدمرداش بشـارع الفجالة(*)، ثم سيشـهد العقـار رقم (٧٠) من الشـارع ذاته أو «شـارع المطابع»، من جهة باب الحديد، مولـد «مطبعة المعارف» فى الطابق الأرضى الذى كان عبارة عن فناء وثلاث حجرات بسـيطة، وكان هذا المبنى ملكا للسيد «خليل الزهار» واشتراه منه «السيد عبد الرحيم الدمرداشى باشا».

كانـت المطبعة فى أول عهدها عبارة عن آلة صغيرة للطبع تدار باليـد وآلة لطبـع التجارب، وبضعـة صناديق للحـروف. وعرف عن «نجيب مترى» وعن مطبعته، منذ البداية، الاهتمام والسعة الدؤوب للنهوض بفن الطبعـة العربية. وتذكر الدكتورة «عايدة نصير»

(*) عن شارع الفجالة وتاريخ الشارع/ فى تلك البقعة الصغيرة التى لا تتجاوز الكيلو متر مربع يقع شارع الفجالة الذى سمى بهذا الاسم نسبة إلى زراعة الفجل ومزارعيه الذين عرفوا باسم الفجالين، وكان أول شارع للصحافة والثقافة والنشر فى مصر، فقد تأسست فيه عدة صحف ومجلات منها مجلة «الزهور» و«الرواية الجديدة»، وغيرها.. ذلك الشارع التاريخى الذى اطلق عليه «شارع الأدب والأدباء» تارة أو «شارع المعارف» تارة أخرى. وكان يعرف أيضا بشارع المطابع، وفيه شهدت البناية رقم (٧٠) تأسيس «مطبعة المعارف» كمطبعة تجارية فى الطابق الأرضى، وقد كان هذا المبنى ملكا «لخليل الزهار» واشتراه «السيد عبد الرحيم الدمرداشى باشا».



فـى كتابهـا «حركـة نشـر الكتـب فى مصـر فى القرن التاسـع عشـر» أن ما نشـرته (مطبعة المعـارف ومكتبتها) خلال السـنوات العشـر التى عاشتها فى القرن التاسع عشر بلغ ١٧ كتابا.

فى العام ١٩١٠م حينما يكون فى مقدور نجيب مترى أن يتوسع فى نشـاط «مطبعـة المعارف»، سـيقوم باسـتئجار دكان إضافى بنفس العقار الذى تقع فيه المطبعة، وسيطلق عليها اسم «مكتبة المعـارف». وتحـت اسـم واحـد هـو «مطبعـة المعـارف ومكتبتها» سـيجمع «نجيـب مترى» الكيانـين معا تحت هذا المسـمى، وهى التى ستشـكل نواة ما سـيعرف باسـم «دار المعارف»، التى قدر لها أن تلعب أعظم الأدوار وتخـرج روائع الأعمال ويقرن اسمها بأعلام العصر من الأدباء والشعراء والمفكرين.


خليل مطران

وعلى نـدرة المعلومـات وقلتهـا، رغم البحـث المضنـى والواسـع الـذى بذلنـاه، فـإن المصـادر التى رجعنـا إليهـا، وأهمها بأقـلام لبنانيـين، قـد أجمعـت علـى أن الرجـل لم يكن مجـرد صاحـب مطبعة ومكتبـة فقط، بل كان مثقفا واسـع الثقافـة، محبا لـلأدب، شـغوفًا بالمعرفة، بل إنـه كان ينظم الشـعر أيضا. جعل «مـترى» مـن «مطبعـة المعـارف» أكثر مـن مجرد دار نشـر صغيرة تطبع الكتب، فقـد حولها إلى «صالون ثقافى» ومنتدى أدبى دائم يضـج بالزائرين من الكتاب والمؤلفين وأصحاب القلم.. زارها فى السـنوات الأولى لإنشائها «أحمد حشمت باشا» ناظر المعارف، وتردد عليها أمير الشعراء أحمد شوقى، وشاعر القطريـن «خليـل مطـران»، و«منصور فهمـى باشـا»، وآخرين من أعلام هذه الفترة الزاهرة.

وبالتأكيـد، فإن الصلة الوثيقة التى ربطت «نجيب مترى» بأهم وأبرز رجالات عصره من الكتاب والأدباء والمفكرين والسياسـيين



أيضا، كان لها كبير الأثر فى نشاطه وتوسعاته التالية فى المطبعة، إذ استثمر «نجيب مترى» هذه الصلات كأحسن ما يكون، مما أتاح له أن يجتذب هؤلاء جميعا لنشر كتبهم وأعمالهم لديه، وكل ذلك أعطى للدار الوليدة (مطبعة المعارف ومكتبتها بالفجالة) خاصة فى طور نشأتها الأولى دفعة قوية وهائلة فضلا عن ترسيخ أقدامها بثبات وقوة فى عالم النشر آنذاك.

بعد خمسة وعشرين عاما من تأسيسه لمطبعة المعارف ومكتبتها بالفجالة، اتسعت تجربة «نجيب مترى» وامتدت وأصبحت المطبعة من أكبر مطابع القاهرة وأكثرها استعدادا وجاهزية لطباعة الكتب المدرسية وغيرها من صنوف الإصدارات، وحازت شهرة عريضة بسبب جودة طبعها وإتقان إخراجها، وهنا سيقوم «نجيب مترى» بإضافة قسم جديد للمطبعة مخصص لتجليد الكتب تجليدا فاخرا.

وبمناسبة مرور ربع قرن على إنشاء مطبعة المعارف ومكتبتها، احتفى كبار الكتاب والأدباء والشعراء من المشاهير بهذه المناسبة فى احتفال كبير أقيم بفندق الكونتيننتال بالقاهرة فى ٢٨ أبريل ١٩١٦م، وقدم فريق منهم كأسا تذكاريا إلى «نجيب مترى» اعترافا وتقديرا للدور الكبير الذى لعبه الرجل خلال هذه الفترة من تاريخ «مطبعة المعارف».

وضع «نجيب مترى» فى مجال النشر وتعاملاته مع الكتاب والمؤلفين دستورا صارما التزم به وطبقه خير تطبيق، وكما يقول هو نفسه فى الاحتفال بالعيد الفضى «لمطبعة المعارف» إن: «رأسمالها قوة الإرادة، وحسن الإدارة، وما زالت سائرة على خطتها، مع ما كان هناك من المصاعب الجمة، حتى تمكنت من نشر طائفة غير يسيرة من الكتب الأدبية والعلمية والمدرسية والفكاهية، وأصبحت مطبعة المعارف ومكتبتها إحدى الجهات الكبيرة لصناعة الكتاب، فانتشرت مطبوعاتها فى العالم



العربى أجمع، وعرفت فى كل مكان بمراعاة جميع أصول الطباعة الراقية، لأنها توخت منذ إنشائها ترقية الطباعة، لتضاهى الطباعة الإفرنجية وما بلغت إليه من الاتقان والتفنن»..

وما كان «لمطبعة المعارف» ومكتبتها أن تستمر وتنمو لولا حرصها البالغ ووعى صاحبها الرهيف بضرورة مسايرة أحدث ما وصلت إليه تقنيات الطبع والنشر فى أوربا، كان « نجيب مترى» واعيا ومتابعا لتطورات الصناعة فى الخارج، وكان مداوما على متابعة النشاط ورعايته فى ظل شرط ألزم به نفسه وفرضه على مطبعته الوليدة، وهو ضرورة أن تنهل باستمرار من خبرة المطابع الغربية الفائقة، واضعة فى اعتبارها كل تحسين ممكن لصناعة (الكتاب العربى).

ويكتب « نجيب مترى» فى عام ١٩١٥م (وكان مضى على تأسيس المطبعة ربع قرن): «إن مطبعة المعارف قد أصبحت بمشيئة الله، بعدما جهزناها به من أنواع الحروف المختلفة، والآلات الحديثة، مستعدة للقيام بكل ما يطلب منها طبعه فى اللغات العربية والإفرنجية».

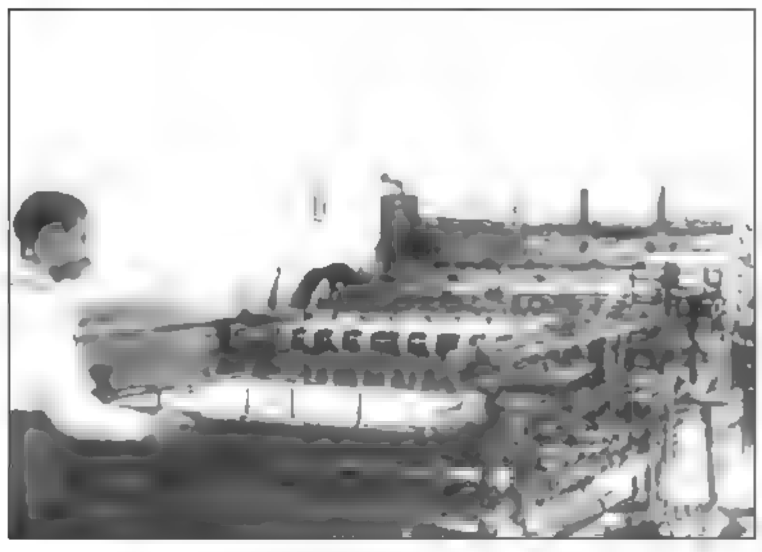
كما نشرت المطبعة فى ذلك الوقت إعلانا فى الصحف ينوه عن أجناس الحروف الموجودة فى المطبعة وأنواعها واستخداماتها، وعلى سبيل المثال يشرح الإعلان سمات ووظائف حرف بنط ٩ فيقول (يحسن استخدامه لطبع الألقاب والوظائف على بطاقات الزيارة)، وهكذا يستطرد فى شرح وظائف الأبناط الأخيرة التى كان معمولا بها فى ذلك الوقت..

مطبعة المعارف ومكتبتها

إذن وخلال الفترة من (١٨٩١م - ١٩٢٨م)، نجح « نجيب مترى» بامتياز فى تحقيق حلمه الكبير، ليس بالنهوض بفن الطباعة فى مطبعته فحسب، بل كان تأثيره كبيرًا وطاغيا على الطباعة فى مصر كلها، وذلك من خلال العمال الذين تدربوا فى مطبعته



وأصبحوا كوادر فنية محترفة، وخرجوا من عنده لينشروا فن الطباعة فى مختلف أرجاء المحروسة.



المطبعة الأولى لدار المعارف بالفجالة

وخلال تلك الفترة أيضا، صدر قسم كبير وزاخر ووافر من المطبوعات العربية؛ الثقافية والفكرية والأدبية، العلمية والاقتصادية، وفى مجالات شتى عن تلك المطبعة الصغيرة التى كانت تسمى بـ(مطبعة المعارف ومكتبتها) لصاحبها « نجيب مترى». لكنها وبعد هذه السنوات لم تصبح صغيرة، بل شبت عن الطوق، واشرأبت بعنقها لتطاول غيرها وتنافسها وتتفوق عليها أيضا، صارت (مطبعة المعارف ومكتبتها) مقرا وملتقى لرجال التأليف وأرباب القلم فى مصر، ومن يحاول أن يكتب تاريخ تلك الفترة ويؤرخ لما صدر عن «مطبعة المعارف» من «المؤلفات النفيسة والمصنفات الممتعة» فقد نجح فى كتابة تاريخ الأدب العربى والثقافة العربية فى ما يزيد على ربع القرن، ومن أراد أن يصف المشاهير الكتاب والأدباء والشعراء الذين ارتادوها وجلسوا بين



جدرانها فقد أراد أن يذكر معظم الذين ألفوا وترجموا فى هذه الحقبة الباهرة من تاريخنا الثقافى.

ولكى لا يكون كلامنا على عواهنه، مرسلاً بلا دليل، فإن فى ما كتبه «أنطون بك الجميل»(*) بمناسبة الاحتفال بالعيد الفضى لمطبعة المعارف سنة ١٩١٦م، خير دليل وأوضحه على ما نقول. فالرجل يرسم صورة ناصعة لما وصلت إليه مطبعة المعارف من مكانة سامية وراقية ويسرد فضلا باهرا من هذا التاريخ. ويروى مشاهد وحكايات من دفتر الثقافة المصرية والعربية، سجلها أحد رجالات هذا العصر البارزين.


أنطون بك الجميل

يصف «أنطون بك الجميل» فى خطابه التاريخى (الذى ألقاه بمناسبة الاحتفال بالعيد الفضى لمطبعة المعارف سنة ١٩١٦م)، بعضا من المشاهد والزيارات التى قام بها إلى مقر المطبعة، ويصف أيضا كيف كانت.. يقول:

"فى إحدى زوايا المطبعة قطعة أثاث، سموها ما شئتم منضدة أو مكتبا أو طاولة. فكل هذه الأسماء تنطبق عليه لأنها كثيرًا ما تقوم بجمع الوظائف التى تدل عليها هذه الألفاظ.. حول هذه الطاولة أو المنضدة اجتمع فى فترات مختلفة كتاب ومؤلفون، مختلفون نزعة ومنهجا وأسلوبا، مثقفون أدبا وكرم أخلاق وسعة معارف.

إلى هذه الطاولة جلس وزراء ووكلاء وزارات ومديرون وقضاة ومحامون وأدباء وشعراء، فعقدوا حولها جلسات لطيفة وقد ساوت بين الجميع حرفة الأدب وصناعة التأليف. فهذا يصحح «بروفة»،



(*) هنا هامش ثان عن أنطون الجميل/ كاتب وصحفى بارز وعضو مجلس الشيوخ المصرى ومؤسس مجلة «الزهور» ومدير تحرير صحيفة «الأهرام». وصاحب وسام الباشوية من خديو مصر.

وذاك يبحث عن كلمة، وذلك يكتب تتمة فصل من فصول كتابه، والآخر يراقب طبع ملزمة يهمه أمرها، وهذا يناقش ذاك فى موضوع أو عبارة. فكأنهم قفيزُ نحلٍ يشترون عسلاً والكل فى ذهاب وإياب.

حكاية «فارس بلا جواد»

ولا يقتصر اسم «أنطون الجميل»، وكان من رواد الثقافة اللبنانية فى مصر، على الاحتفاء والإشادة «بمطبعة المعارف ومكتبتها» لصاحبها « نجيب مترى»، فقد كان أحد كتابها ومؤلفيها، وربما لا يعلم الكثيرون أن مجلة «الزهور» الثقافية العظيمة التى أسسها أنطون الجميل (بالاشتراك مع الشيخ أمين تقى الدين) سنة ١٩١٠م واستمرت حتى ١٩١٣م، كانت تصدر أعدادها عن مطبعة المعارف (جمعت الأعداد الكاملة فى ما بعد وصدرت فى أربعة مجلدات ضخمة)، وكانت المجلة منبرًا لكبار أقلام العصر من الشعراء والكتاب من أمثال: «أحمد شوقي، وحافظ إبراهيم، وخليل مطران، ومصطفى لطفى المنفلوطى، ومى زيادة، وشبلى شميل، وفليكس فارس.. وآخرين».

على صفحات هذه المجلة التى كانت تصدر عن (مطبعة المعارف ومكتبتها بالفجالة) يورد «أنطون الجميل» هذه الحكاية الطريفة والجميلة والممتعة معًا، بطلها واحد من أشهر الشخصيات فى تاريخ الصحافة والكتابة الساخرة والنضال السياسى أيضا، ودون أن نتدخل فى السياق سنترك القارئ مع تفاصيل الحكاية، ثم نعلق عليها بإيجاز. يقول «أنطون الجميل»: ١٩١٢ م.

قصدت مطبعة المعارف منذ مدة سيدة وطنية اسمها و«سيلة محمد»، وعرضت على « نجيب أفندى مترى»، صاحب المطبعة، نشر كتاب عنوانه «روح الاعتدال» لواضعه «شارل واتير». فارتاح «مترى أفندى» إلى موضوع الكتاب الجليل ورآه جديرًا بالنشر باللغة العربية لما فيه من الفائدة للبلاد فطبعه؛ وتناولت الصحف



الكتاب بكلمات الإطراء، وأقبل عليه القراء أيما إقبال، وقررت مدارس كثيرة تدريسه.

وبعد مدة وجيزة عادت «وسيلة محمد» إلى مطبعة المعارف وبيدها نسخة من كتاب آخر عنوانه «غاية الإنسان» فلم يتردَّد «نجيب أفندي متري» فى قبوله إذ رآه لا يقل فائدة عن الكتاب المتقدم ذكره. فطبعه ونشره فى الشهر الماضى وكان له نصيب كبير من إقبال القراء. وفى أوائل أكتوبر عادت «وسيلة محمد» إلى المطبعة ومعها القسم الأول من ترجمة كتاب الناشئة، وفى ١٠ أكتوبر قبض البوليس على «حافظ نجيب»، فحال دون إنجاز الكتاب الثالث من هذه الكتب التى كان ينشرها «حافظ» باسم زوجته- وهى لا تدرى من سرّ زوجها شيئا.

أهدت «وسيلة محمد» كتابها الأول إلى ابنتها العزيزة فقالت- أو قال «حافظ نجيب» - «أنت اليوم طفلة فى المهد، ترك ابتسامتي، ويكفيك حنوي. وطفلة اليوم أم الغد.. والزمان قلب، والغد مجهول، فقد لا أكون إلى جانبيك إذ ذاك، فترجعين إلى هذا الكتاب.. فتؤثرين العمل بما فيه من الآراء السديدة على ما يجدو إليه نزق الشباب، أو جنون الصبا، وطيش الرعونة.. وإذا ما أعوزتك النصيحة فإن فى آراء الكتاب الاجتماعيين ما قد ينوب عن نصيحة أم ثوت، أو والد قبر، هذه هديتى. فإن تعلمت علما صحيحا وكنت رقيقة العواطف، عرفت منها كم كنت أحبك وأرغب فى نفعك».

والكتاب الثانى أيضا مُهدى إلى الابنة العزيزة وقد جاء فى كلمة الإهداء:

«الدهر عبر والحياة سير، والنفس بينهما لا تستقر، فمن تتقى الأيام تأمن عبرها ومن تعرف الحياة تتحمل سيرها. والحوادث جائية ذاهبة، والأعمار فانية ناضبة، فالحال لا تدوم أسعدت أم أشقت، والذكرى لا تفنى قبحت أم حسنت. فاتقى بنيتى العاقبة الأخرى، وآرائه. على أنه لا يسعنا قبل الختام إلا إبداء الأسف لضياع مثل



هذا الذكاء النادر، ولو عرفت الحكومة الآن أن تقوده فى الطريق المستقيم لنفعت وأفادت كثيرًا.

ويرد اسم الأستاذ «حافظ نجيب» (*) ضمن قائمة كبار مؤلفى (مطبعة المعارف ومكتبتها) الذين تعاونوا معها وأخرجوا كتبهم فيها، وجاء التعريف به والتنويه بأثره فى القائمة المذكورة كما يلى:

«هو ذلك الأديب دارت بينه وبين الدهر معارك هائلة كان لها دوىّ شديد، ومدى بعيد، وحديث طويل عريض، لو خاض غمارها سواه من ذوى الحيلة الضيقة لسقط ساعته خائر العزم متحطم القوى، ولكنه خرج منها بدهائه كما يخرج الفجر من جوف الليل وبين أنامله قلم الأديب البارع والصحافى الماهر والكاتب الاجتماعى القدير. أما أسلوبه فى الإنشاء فهو الأسلوب الراقى العذب. ومن آثار قلمه طائفة قيمةٌ من الكتب فى موضوعات شتى اجتماعية وأخلاقية، تنم عن شعور رقيق. وهى: «روح الاعتدال». و«غاية الإنسان». و «الغرور». و «الناشئة». و «محاضرة فى التربية والأخلاق» وغير ذلك. وله فى الصحف والمجلات مباحث وجولات تشهد له بالبراعة وحدة الذكاء.

وأوردت مجلة «الزهور» أيضا فى عددها المشار إليه تلخيصا رائعا لسيرته، وكشفت السر وراء شهرته، والظروف التى ربطت بينه وبين (مطبعة المعارف ومكتبتها)، ولعل هذا التعريف أو هذه الترجمة الموجزة «لحافظ نجيب» لا تقل طرافة ولا إثارة عن قصة نشر كتبه باسم مستعار فى «مطبعة المعارف»، يورد محرر مجلة «الزهور» ما يلى عن ما أسماه «النابغة فى الاحتيال» كتب يقول:

«لما سألنا قراءنا هذه السنة عن النوابغ فى مصر، أجابنا كثيرون منهم ذاكرين «حافظ نجيب» النابغة فى الاحتيال. والحق يقال أنه

(*) حافظ نجيب هذا الذى يتردد اسمه فى الحكاية السابقة، هو الشخصية التى استلهم منها الفنان «محمد صبحى» دراما مسلسله الشهير «فارس بلا جواد» الذى تابعه الملايين بشغف كبير. وبغض النظر عن التغييرات التى أدخلها صناع المسلسل على الشخصية والمعالجة التى باعدت بالمسلسل عن الأصل المأخوذ عنه مسافات بعيدة، فإنه قد أحيا الاهتمام بهذه الشخصية المثيرة، ذائعة الصيت التى ذكر «نجيب محفوظ» فى كثير من حواراته واشاراته لطفولته ونشأته إلى تأثره الشديد بها وشغفه بالقراءة لها وعنها.



لنابغة فذ فى بابه. يعدُ أرسين لوبين واللص الشريف وسائر أبطال روايات البوليس السرى عيالاً عليه. كانت المحاكم قد حكمت عليه ثلاثة أحكام غيابية لاتهامه بالنصب والاحتيال فى حوادث غريبة الوقائع، وحكمت عليه مرة حكمًا حضوريا، ولكنه تمكن من الفرار من سجن فى ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٠٧م، وظل خمس سنوات ينتقل فى القطر المصرى والبوليس ينقب عنه وهو يواصل أعماله الغريبة. ذهب إثر هربه من السجن إلى الوجه البحرى، ودخل فى دير أشوارى، وادعى أنه راهب واسمه "غبريال جرجس" وبقى هناك بضعة شهور اكتسب فى خلالها ثقة الجميع. حتى أصبح صاحب الكلمة المسموعة وحينئذ احتال على رئيس الدير وأخذ مبلغ ستمائة جنية واختفى. ثم قصد دير المحرق متخذا اسم الراهب «غالى جرجس» وراسل من هناك بعض صحف العاصمة، وكان له كتابات تذكر فى موضوع الخلاف الذى كان قائمًا فى ذلك العهد بين الجرائد الإسلامية والجرائد القبطية. ولما افتضح أمره، غادر الدير واختفى أثره إلى أن كان اليوم العاشر من أكتوبر ١٩٠٧م. فقد بلغ البوليس أن "حافظا" موجود فى دائرة قسم مصر القديمة وهو متنكر يحترف حرفة درويش يعطى عهودا فهاجمته قوة من رجال البوليس فوجدوه محاطا بعدد كبير من الدراويش فى حلقة ذكر، ولما رآهم مقبلين إليه. أخذ يكبر بصوت عال الله! الله! ولما قبضوا عليه، ادعى أنه "الشيخ عبد الله إبراهيم" من المنوفية، وأن الله يخلق من الشبه أربعين. على أن إدعاءه هذا لم يجده نفعًا، وسيق إلى السجن. وكان مدة إقامته فى مصر العتيقة قد اقترن بإحدى جاراته ـ وهى تجهل حقيقة أمره ـ ورزق منها ابنه سماها "عزيزة" وهى الان فى حولها الثانى. هذا شئ قليل من نوادر هذا الرجل الغريبة. وما كنا لنشغل بها قرّاء ثمرات المطابع لولا أن الرجل كاتب بليغ، وله مصنفات نفيسة».

كان لافتا أن تكون الكتب الخمسة الأهم التى نشرها «حافظ نجيب» قد صدرت عن (مطبعة المعارف ومكتبتها بالفجالة)، ولعل هذا يعطى مثالا بينا عن المكانة التى كانت تحتلها «مطبعة المعارف» آنذاك، وكيف كانت من كبريات دور النشر بلا جدال، يقصدها المؤلفون والكتّاب من كل حدب وصوب، وترى أيضا أن تأشيرة «نجيب أفندى مترى»، أو إجازته الحاسمة بنشر كتاب ما، يعنى إعطاء تأشيرة الشهرة والكسب المادى لصاحب الكتاب، ونقله فورًا إلى صدارة المشهد الأدبى والثقافى فى مصر والعالم العربى.

«هدية الإلياذة» .. لنجيب مترى (١٩٠٥م)

احتفت الحياة الثقافية العربية احتفاء كبيرًا بظهور تعريب «سليمان البستانى» لرائعة هوميروس الخالدة «الإلياذة». واستمرت الاحتفالات وأنواع التكريم لأشهر عدة طوال سنة ١٩٠٤م التى صدرت فيها «الإلياذة» منظومة باللغة العربية. وتبارى الكثيرون فى الكتابة والخطابة ونظم القصائد تحية «للبستانى»، وكان من الممكن ألا يعرف أحد تفاصيل هذا الاحتفال وما ألقى فيه من خطب وقصائد، فلا يطالع الكلمات التى قيلت فى الحفل أو البرقيات التى وصلت إلى «سليمان البستانى» لتهنئته، ولا الخطابات والمقالات والقصائد الى نشرت فى الجرائد والمجلات، لولا «نجيب مترى» صاحب (مطبعة المعارف ومكتبتها) التى تولت طباعة التعريب وتوزيعه. ويحتفى «جابر عصفور» فى كتابه «فى محبة الشعر» بصنيع «نجيب مترى» فى هذا الكتاب وإخراجه له احتفاء كبيرًا، يقول: «وكان نجيب مترى شاعرا أديبا عاشقا للأدب، صديقًا للبستانى، ممتلئا بالحماسة لمشاركته فى إخراج "الإلياذة" إلى النور بالعربية. ولذلك، وتعبيرًا عن التقدير والحماسة لهذا العمل الثقافى الجليل. قام "نجيب مترى" بجمع ما



كتبه أرباب المقامات السامية وأصحاب الصحف والمجلات والأدباء والشعراء عن ظهور "الإلياذة" مع تفصيل الحفلة الوطنية التى أقيمت تكريما لسليمان البستانى».

وتولى « نجيب مترى» طباعة هذا كله فى كتاب وصفه «جابر عصفور» بـ «لم أر له مثيلا فى ثقافتنا العربية». وأطلق على الكتاب اسم «هدية الإلياذة» (فى ١٠٨ صفحات من القطع الكبير) وأصدره من مطبعته ومكتبته سنة ١٩٠٥ أى بعد مرور عام تقريبا على صدور الترجمة. وبعد أن اكتملت الاحتفالات بها والكتابة عنها.

وهذا التقليد جمع المقالات والكلمات الاحتفائية بمناسبة صدور كتاب ما أو على شرف شخصية لها قيمتها ومكانتها الثقافية والفكرية. ربما كان "نجيب مترى" أول من يرسخ له بفعلته هذه فى ثقافتنا الحديثة، ويكون فى الرواد فى تدشين فكرة الكتب التذكارية والتوثيقية للمناسبات التاريخية أو الأحداث والشخصيات ذات المكانة الثقافية المعتبرة.

وإن كان من دلالة يمكن استخراجها من مثل هذه الروايات والوقائع. فأبرزها فى ظنى هو انشغال « نجيب مترى» انشغالاً تاما وكاملا بالكتاب المطبوع. باعتباره التجلى الأكمل لمنجزات العقل الإنسانى وتخليده، كان « نجيب مترى» يفكر بالكتاب وللكتاب، ويسعى طوال الوقت إلى إخراج الكتب الفريدة، المهمة، التى تضيف إلى مجالتها المعرفية وتترك بصحة لا تمحى يتقصى الموضوعات ويحتفى بالمؤلفين ويهتم اهتماما بالغا شكل الكتاب وجودته وتدقيقه. وهو ما يظهر فى هذه اللمحات من تاريخ «مطبعة المعارف ومكتبتها» خلال الفترة التى كان يتولى فيها إدارتها، بعد تأسيسها، وترسيخ وجودها بين أهل الطباعة والنشر فى ذلك الزمن البعيد.



احتفاء راقٍ بكتاب مترجم

وعلى صفحات جريدة «المحروسة» التى كانت تصدر آنذاك، فى عددها الصادر بتاريخ الأول من فبراير عام ١٩١٦م سنجد مقالاً كتبته الآنسة مى(*)، الشخصية اللامعة وصاحبة الصالون الأدبى الأشهر فى تاريخ مصر فى النصف الأول من القرن العشرين، وهى الأديبة الأريبة مى زيادة، عن كتاب قام بتعريبه حضرة «أنطون بك الجميل» وعنوانه «الفتاة والبيت».

جاء فى هذا المقال ما نصه «كجميع الكتب الصادرة من مطبعة « نجيب أفندى مترى» ، هذا الكتاب من حيث فن الطباعة آية حسن ذوق وإتقان، وإذا ما قلبت صفحته الأولى استوقفتك رسالة من أستاذنا الكبير «إسماعيل صبرى باشا» الذى يفتخر الأدباء جميعا بكونه «رئيسهم». رسالة هى خلاصة رأى سعادته فى هذا السفر الطيب وفى مؤلفته ومعربه الفاضلين. ثم يتقدم فكرك «خطوة» بين صفحاته، ويتناول اهتمامك فصوله واحدًا بعد واحد مع ما يسبكها من أسلوب رشيق وعبارة أنيقة وتشكيل موضح وفن فى الطباعة متقن، حتى إذا ما أتيت إلى أخره قلت: «لقد استشعر (الرئيس) بفكر كل قارئ للكتاب يوم خط رسالته فيه» وإذا كنت محبًا لترقية المرأة وترقية النوع الإنسانى بالتبع، سارعت بإهدائه إلى كل فتاة لديك عزيزة، إلى ابنتك وأختك وقريبتك. إنى لا أعرف حضرة مؤلفته شخصيا لأشكرها، على أنى أعرفها معنويًا، وكأننى سمعت من خلال سطورها نغمة نفسها العذبة فى إرشادات ونصائح لا تأتى إلا من أم ذكية مدبرة لطيفة، ذات نظرة نفاذة وكلمة فعالة.

أما حضرة معربه "أنطون أفندى جميل"، فهو مفكر دقيق الملاحظة، ولا يذهلنا اهتمامه اليوم بأمر تربية الفتاة. وقد كان لهذا الموضوع الخطير صفحات واسعات فى مجلته «الزهور»، هو يرى

(*) هى الانسة «مارى زيادة» كريمة «إلياس بك زيادة» صاحب جريدة المحروسة، وكانت توقع ما تكتبه عادة باسم «الآنسة مى» أو كلمة «مى» وحدها.



النقص الهائل فى تربية فتاة اليوم فيؤلمه أمرها و يحاول مساعدتها ما استطاع. ولعل ما من أحد يرى زلات الفتيات ويود إصلاحها أكثر من الشبان إذا كانوا على جانب من العلم والتفكير. نعم يا صديقتى، الشابُ الذى لا يعرفك ولا أمل له فى الاجتماع بك يوما إذا كنت محجوبة يحاول استجماع كل ما يُقال عنك وكل ما ينمُ عن طويتك ليبنى عليك حكمه، والشاب الذى تقابلينه فى الاجتماعات- إذا كنت من السافرات- ذاك الذى ينحنى أمامك باحترامه الاتفاقى وأدبه الاجتماعى، ذاك الذى يسكب أمامك أعذب ابتسامة تعلمها فى الصالونات ساردا أرقى ما لديه من العبارات المحنطات، هذا لك أعظم ناقد. أنت تنسين ذلك لكثرة الوجوه المارة أمامك. ولكن هو لا ينسى أن يلاحظ حركات كل فتاة يراها، ويدرس كل خصائصها ليطلق عليها حكمه النهائى. لعل الضجر الآفة الكبرى فى حياة الفتاة، هى مكفولة باهتمام والديها بها، فلا واجبات تستغرق فكرها ووقتها ولا مسؤولية تجعلها شاعرة بقوة شخصيتها وأهميتها، أما تبادل الزيارات والاجتماعات الكثيرة أو القليلة، فإذا كانت كافية لإرضاء بعض الفتيات- وفى هذا إشارة غير حسنة لأنه ينمُ عن فكر سطحى ونفس قانعة من الحياة بقشورها اللامعة- فإن البعض الآخر يكاد يختنق مللا، وأثر الملاهى الاجتماعية لا يأخذ فى نفسه إلا المكان الذى يستحقه، قالوا إن السأمة علامة النفس الشريفة، هذا صحيح بشرط أن تكون السأمة حادثا مازا أو حالة نفسية مؤقتة، إذ تنمُ عن رغبة فى تلك النفس إلى حياة أرقى وأهم وأجمل وهذا ميل إلى الكمال دائما. أما السآمة المستديمة فهى قتّالة للقوة والنشاط النفسيين ومرضعةُ الكسل ووهن العزيمة، ومؤدية حتمًا إلى التلاشى الشخصى.

كتاب كبير يحوم على كل أثر من آثار حياة المرأة، يطبعه «نجيب أفندى مترى» و نجد فى أول صفحاته لا رسالة من «الرئيس» نثرية، بل قصيدة، قصيدة فى تحرير المرأة».



هكذا كان يحتفى كبار الكتاب والأدباء بإصدارات مطبعة المعارف ومكتبتها، لا فقط من حيث روعة الإخراج وجودة النشر وتدقيق النص، إنما فى الأساس من اختيارات الكتب التى كان يتحمس لنشرها وإذاعتها «حضرة نجيب أفندى مترى» الناشر المثقف. كان النشر آنذاك رسالة، يساهم مساهمة فعالة فى تلك النهضة التى تشكلت ونضجت وآتت أكلها خلال الفترة من النصف الثانى من القرن التاسع عشر وحتى النصف الأول من القرن العشرين.

وهذا نموذج دال من عشرات النماذج، بل المئات، التى يمكن جمعها وإيرادها فى مؤلف مستقل يحمل كتابات عدة ومقالات متنوعة لرواد النهضة فى ذلك الوقت. يكتبون عن الإصدارات والكتب التى كانت تخرجها آنذاك مطبعة المعارف ومكتبتها خلال ما يزيد على ثلاثة عقود.

إعلانٌ عن كتاب

ومن الدلائل على بلوغ (مطبعة المعارف ومكتبتها) فى ذلك الزمان شأوا بعيدا ومكانة رفيعة فى سوق النشر وعالم الكتاب، أن الإعلان عن كتبها وإصداراتها كان يتم بطريقة لا توحى بأنها مجرد إعلان عن كتاب عابر، بل بحدث ثقافى رفيع، يتم الإشارة فيه إلى عنوانه وأهميته ومحتواه وفضل كاتبه ومكانته بين الكتاب، مثلا عندما أصدرت المطبعة كتاب «خواطر فى القضاء والاقتصاد والاجتماع» لصاحبه «على أبو الفتوح باشا»، وكان يشغل وقتها منصب وكيل نظارة المعارف العمومية المصرية (وزارة التعليم حاليا)، كتب «نجيب مترى» يقرظ الكتاب وصاحبه فى مقدمة وافية له، يقول فيها: «ليس بين أبناء اللغة العربية الشريفة من يجهل ما للمرحوم «على أبو الفتوح باشا» وكيل نظارة المعارف المصرية سابقا من روائع الأفكار وكرائم



الآثار». أما الإعلان عن الكتاب (على صفحات مجلة الزهور) فجاء بالصيغة الآتية:

كتاب (خواطر في القضاء والاقتصاد والاجتماع) بقلم فقيد العلم والعمل والجد المرحوم «على أبى الفتوح باشا» وكيل نظارة المعارف العمومية المصرية، طبعه بإذن المؤلف « نجيب أفندى مترى» صاحب مطبعة المعارف بمصر في سنة ١٣٣١هـ ـ ١٩١٣م على ورق جيد طبعا نظيفا فجاءت صفحاته ٣٦٠.

الكتاب مجموعة مقالات كانت متفرقة في الجرائد والمجلات العربية وغير العربية، فجمعت في حياة كاتبها، ومر عليها فأصلح فيها ما أراد، وزاد في بيان المراد، وهو يطلب من ناشره، ومن مكتبة المنار بمصر. جملة مسائل الكتاب مما اشتغل به مؤلفه علما وعملاً، فجاءت وافية واضحة مفيدة، ونحن ننقل طائفة عنه من مقالة (الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية). قال: (يظن كثير من الناس حتى من المسلمين أنفسهم أن المبادئ المقررة في الشريعة الغراء لا توافق هذا الزمان الذى بلغ فيه الإنسان من المدنية والحضارة درجة رفيعة، ويتوهمون أن الأحكام والروابط التى في القوانين الحديثة الوضعية لا مقابل لها في الأصول الإسلامية، وأنها بمثابة الاختراعات المادية الجديدة التى أنتجها فكر علماء الغرب لم يسبقهم بها أحد.

ولكن الباحث في الفقه الإسلامى ولو قليلا، لا يلبث أن يغير هذا الظن، ويتحقق من أن أسلافنا بلغوا في الرفاهة وتقرير المبادئ العمرانية والاجتماعية والقضائية شأوا قلما يجاريهم فيه أحد، إلا أن صعوبة كتب المتأخرين، وكيفية تأليفها، والتواء أساليبها، وتعقيد عباراتها، قد أوصد الباب في وجه من يريد الوقوف على حقيقة الشريعة الغراء من غير المنقطعين لدراستها. ولذلك، فإنى أشير على من يسلك هذا الطريق أن يقصد المؤلفات القديمة لأنها أسهل موردا، وأغزر مادة مع خلوها من التعقيد، وتنزهها عن



المشاغبات اللفظية، وليترك هذه الكتب الحديثة للمنقطعين لفهمها بدون ملل، ولا حساب للوقت.

هكذا جاء الإعلان عن الكتاب، وهو بصيغته الجزلة ولغته العالية، لا يمثل إعلانا بالمعنى الذى نعرفه الآن، إنما هو عرض مكثف للكتاب ومحتواه وموضوعاته بما يشبه مقالا قصيرا وافيا بمضمونه، وهو يدل على مدى الاهتمام والوعى بقيمة الكتاب ونشره وطريقه الإعلان عنه والترويج له، وهو ما يدخل فى باب الدعاية والتسويق بأفكار مبتكرة تكاد تطابق ما وصلت إليه أحدث مستجدات هذين المجالين فى عصرنا الآن. و يجب ألا ننسى أننا نتحدث عن كتاب يتم الإعلان عنه فى سنة ١٩١٣م.

نماذج من الإصدارات

خلال الفترة التى ظهرت فيها «مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر»، اضطلعت بنشر طائفة ضخمة من الكتب والإصدارات القيمة فى المجالات كافة، كان من أظهرها وأشهرها (الموجز فى علم الاقتصاد) خمسة أجزاء، ترجمة الشاعران «حافظ بك ابراهيم»، و«خليل أفندى مطران»، وكتاب فى «التربية والأخلاق» (جزءان) لمؤلفه أيضا «حافظ بك إبراهيم»، بالإضافة لكتيب فى الاقتصاد من تأليف «حافظ بك إبراهيم» أيضا.

ونشرت كتابات لرائد أدبى هو «عبد الله فكرى» بعنوان (الفوائد الفكرية)، وغيرها من الكتب المقررة على طلبة المدارس فى ذلك الوقت.

وفى الأدب والثقافة العامة والسياسة، نشرت «مطبعة المعارف» كتبا كثيرة، من أهمها (مختارات الزهور)، وهذه مجموعة شعرية لأمراء الشعر فى ذلك العصر، وهم «إسماعيل صبرى باشا، وأحمد شوقى بك، وخليل مطران بك، وولى الدين بك يكن، وحافظ بك ابراهيم، وأحمد محرم، وحفنى بك ناصف.. وغيرهم».



وهـذه المختـارات كانـت تنشـر فـى مجلـة الزهـور لصاحبيها «أنطون بك الجميل، والشيخ أمين تقى الدين» التى كانت تصدر أيضا عـن «مطبعة المعـارف ومكتبتها». وكانت هـذه المختارات رائجـة جدا فى ذلـك الوقت.واسـتعانت المطبعة بمجموعـة أعلام ـ آنذاك ـ أثروا المكتبة بكتب جادة ومهمة فى تخصصاتها.

أيضـا هنـاك كتابات عربهـا «وديع البسـتانى» (مترجم عمر الخيـام) منهـا «معنى الحياة»، و«السـعادة والسـلام»، و«مسـرات الحيـاة»، و«محاسـن الطبيعـة»، وكلهـا لمؤلـف واحـد هـو «لورد أفيرى»، ويكتب «البسـتانى» فـى مقدمة «محاسـن الطبيعة»: «هذا الكتاب كسـائر مؤلفات «لورد أفيرى» آية من آيات السـحر الحـلال وقد بحث فيه المؤلـف فى عالمى الحيوان والنبـات، ثم تناول وصـف المناظر التى يتألـف منها عالم المشـاهدة كالبحور والأنهار والبراكين والجبال والأودية والأفلاك على اختلاف أنواعها».

وتأتى بعد ذلك الكتب المهمة التى نقلها المرحوم «أحمد فتحى باشـا زغلول» (شـقيق سـعد زغلول) والذى رحل عـام ١٩٤١م، وإن كان لهـذا الرجل موقف سـلبى فـى قضية دنشـواى، إلاأن كتبه المترجمة كانت مقروءة كثيرا، مثل (سـر تطور الأمم) للفرنسـى «جوسـتاف لوبون»، وكتـاب (سـر تقدم الإنجليز السـكسونيين) «لإدمونـد ديمولانـد»، وجوامـع الكلم «لجوسـتاف لوبـون»، غير الكتـب المؤلفة له مثل (شـرح القانـون المدنـى) و(المحاماة) وظلت هـذه الكتب تطبع المرة تلو المرة، وعلى رأسـها كتـاب (سـر تقدم الإنجليز السـكسـونيين)، الذى لاقى عنايـة ورواجا بين الجمهور المثقف فى هذه الفترة.

وهناك أيضا مجموعة الدكتور «شـبلى شميل»، وهى تشتمل علـى مقالات فى مذهـب (داروين) فـى أصل الأنواع وتحولها وشـرح "بختـر" وهذه المقـالات هى أول الغيـث الذى هطل فى هـذا الموضوع، كما تشـتمل المجموعة على مباحث دقيقة فى موضوعات شـتى: عمرانية وطبيعية وعلمية وتاريخية وأدبية وسياسـية وانتقادية



وفكاهية. كما نشرت المطبعة ترجمات «ألكسندر وماس» لواضعها «نجيب الحداد»، وروايات «يعقوب صروف» مثل (فتاة مصر) وروايات «فرح أفندى أنطون» (الوحش الوحش الوحش)، وجاء على غلافهما: (رواية أدبية غرامية اجتماعية، ذات مشاهد لبنانية، ومبادئ شرقية، وأفكار غريبة) وهناك الرواية الضخمة (الثورة الفرنساوية) «لإسكندر ديماس»، ترجمها «فرح أنطون».

وربما تكون المرة الأولى التى يعرف فيها القارئ الكريم أن (مطبعة المعارف ومكتبتها) هى التى أخرجت لجمهور القراء فى مستهل العقود الأولى من القرن العشرين الطبعات الأولى من كتب «قاسم بك أمين» التى أحدثت هزة فى المجتمع المصرى مثل (تحرير المرأة) و(تحرير مصر) وكتاب «محمد المويلحى» الشهير (حديث عيسى بن هشام) وكتاب (دفاع المصرى عن بلاده) «لمصطفى باشا كامل»، كما أخرجت طبعة حديثة من الكتاب التراثى الأشهر (دلائل الاعجاز) لإمام البلاغيين «عبد القاهر الجرجانى»، و(الريحانيات) «لأمين الريحانى»، و(سر الليالى فى القلب والإبدال) «لأحمد فارس الشدياق». و(طبقات الأمم) «لجورجى زيدان»، و(الصحائف السود) «لولى الدين يكن»، و(المدنية والإسلام) «لمحمد فريد بك وجدى».

وفاة «نجيب مترى»

خلال الفترة من عام ١٨٩٠م وحتى ١٩٢٨م وهى السنة التى توفى فيها «نجيب مترى»، استطاع هذا الرجل العظيم أن ينهض بهذا الكيان الوليد وأن يرسخ أقدامه، ويستطيع خلال تلك الفترة التى تصل إلى ما يقرب من ثمانية وثلاثين عاما أن يصل بـ «مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر المحروسة» إلى أن تصبح من أهم دور النشر المصرية والعربية دون أى مبالغة. واستطاع بفضل ذكائه وقدراته وجهده الكبير فى أن يجعل الدار قبلة لكل الكبار والمشاهير من الشعراء والأدباء فى ذلك الوقت. نذكر



منهم على سبيل المثال وليس الحصر، «أمير الشعراء أحمد شوقى، وشاعر النيل حافظ إبراهيم، وشاعر القطرين خليل مطران، وولى الدين يكن، وآخرون».

وفى ٢٦ نوفمبر سنة ١٩٢٨م، توفى الرائد المؤسس «نجيب مترى» عن ٦٣ عاما، بمنزله الكائن فى رقم ١٤١ بشارع الملكة نازلى (شارع رمسيس حاليًا) بغمرة.

قالوا عن «نجيب مترى»

لم ينس فضلاء الأدب ومشاهير الكتاب والسياسيين وكبار رجال المجتمع فى ذلك الوقت، فضل «نجيب مترى»، وعبروا عن حزنهم البالغ لوفاته. وكتبوا كلمات بالغة الرقة فى رثائه وتأبينه، ومنهم من سجل بعضا من آثاره ودوره فى خدمة الطباعة والنشر وإخراج الكتب. منها الكلمة التى كتبها حضرة المؤرخ المحقق الكبير الدكتور «أحمد فريد رفاعى بك» سنة ١٩٣١م بمناسبة الاحتفال بمرور أربعين سنة على إنشاء «مطبعة المعارف ومكتبتها»، يقول فيها:

«وإنه إذا كان كتَّابنا جميعا يعترفون بصحة ما أثبته أحد كرام مؤلفينا الفضلاء فى كلمة قيمة ألقاها فى العيد الفضى عام ١٩١٦م، حيث يقول: ولى عادة فى الطبع لا يرضى بها ولا يتحملها إلا صاحب «مطبعة المعارف»، أو من كان له صبرُ صاحبها وسماحته وطيب أخلاقه؛ كنت أعقد فصلا وأقدمه للطبع، فتصدر المطبعة منه مثالا وتعيده إلىّ لأراجعه فلم أكن أكتفى بمراجعته طبق الأصل، كما هى عادة الكتاب والمؤلفين، بل كثيرًا ما كنت أزيد على الأصل أو أنقص منه، وأغير وأبدل فى معانيه وألفاظه تغييرًا يوجب فى أكثر الأحيان قلب الصفحات كلها رأسا على عقب». وكان ذلك كله بمشاركة ورأى ومشورة صاحب الدار وموافقته، وكان يتدخل فى كثير من النصوص المعروضة عليها لنشرها، يقرأها استيعابا ويبدى رأيا



ويقترح اقتراحا ولا يتنازل عن تعديل مصيب يستوجب التنفيذ. هكذا كان «نجيب مترى أفندى»، وهكذا رسخ سمعة الدار التى أنشأها ورعاها وصارت قبلة لكل كاتب وشاعر وأديب من المحيط إلى الخليج.

وكتب حضرة الأستاذ الكبير «محمد أمين بك لطفى»، السكرتير العام لوزارة المعارف المصرية سابقا، يشيد بما تركه «نجيب مترى» من أثر باق وإنجاز كبير، كتب يقول:

«وكل شىء فى هذه المطبعة يشير أبلغ إشارة إلى الجهود العظيمة التى بذلها مؤسسها المرحوم (نجيب مترى) وإلى قوة العزيمة التى كان يتحلى بها فى إدارة العمل، فقد كان سباقا فى حلبة الإتقان مفطوزا على الميل الصحيح إلى هذا الغنى العظيم معروفا بسلامة الذوق ورقة الجانب وكرم الأخلاق.. وقد غادر هذه الحياة قرير العين بما تركه من الآثار التى خلدت ذكره فى تاريخ فن الطباعة فى الشرق.



آلة الطى بمطبعة دار المعارف بالفجالة



الفصل الثانى

العصر الذهبى لدار المعارف

بعد وفاة « نجيب مترى»، الأب المؤسس، الذى رسخ اسم (مطبعة المعارف ومكتبتها) فى أوساط الكتاب والمفكرين والناشرين، وجعل منها منارة حقيقية، بقدر ما تشع نورًا وتنويرًا وثقافة، بقدر ما تجتذب من الكتاب والمؤلفين وأصحاب الفكر والرأى، لم تتوقف مسيرة (مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر) كما كانت تعرف فى ذلك الوقت، واستهلت مرحلة جديدة من تاريخها بعد أن تولى إدارتها الأخوان «إدوار» و «شفيق» ابنا « نجيب مترى»، والأخير كان بحق، صاحب الفضل فى النهوض بدار المعارف، وجعلها على رأس دور النشر فى العالم العربى كله. (توفى إدوارد نجيب مترى عام ١٩٢٥م).



إدوار مترى





شفيق مترى

تولى «شفيق» إدارة «مطبعة المعارف ومكتبتها»، وكان أبوه قد أعده لتولى هذه المهمة بإرساله إلى فرنسا وألمانيا والنمسا لتعلم فنون الطباعة والنشر، وهو ما قام به "شفيق" خير قيام، ويبدو



أنه كان شغوفا بهذه المهنة فتشرب أسسها وتفاصيلها من والده، وحذق دقائقها واسرارها ببراعة متناهية. فضلاً عما أضافته تجربة السفر إلى أوربا وزودته إياه بأحدث ما وصلت إليه تطورات صناعة النشر فى العالم آنذاك. وبدأت المطبعة تطبع العديد من الأعمال، بالألوان. طبعا دقيقا محكما، وكان ذلك تمهيدا الظفرة التى ستشهدها المطبعة فى إخراج كتب الأطفال.

كانت "مطبعة المعارف ومكتبتها" بالفجالة قد آلت إلى الأخوين "شفيق وإدوار مترى". وكل شىء فى هذه المطبعة يشير أبلغ إشارة إلى الجهود العظيمة التى بذلها مؤسسها المرحوم (نجيب مترى) وإلى قوة العزيمة التى كان يتحلى بها فى إدارة العمل، "فقد كان سباقا فى حلبة الإتقان مفطوزا على الميل الصحيح إلى هذا الفن العظيم معروفا بسلامة الذوق ورقة الجانب وكرم الأخلاق. وقد غادر هذه الحياة قرير العين بما تركه من الآثار التى خلدت ذكره فى تاريخ فن الطباعة فى الشرق. هذا ما كتبه حضرة الأستاذ الكبير "محمد أمين بك لطفى"، السكرتير العام لوزارة المعارف المصرية سابقا، سنة ١٩٣١م ينعى مؤسس المطبعة ويقرظ دوره وفى الوقت ذاته يشير إلى ولديه "شفيق وإدوار" معبرا عن ثقته وأمله فى استكمالهما مسيرة والدهما. والإضافة إلى ما حققه من إنجازات ونجاحات.

يقول "ولا تزال هذه المطبعة الشهيرة تسرع الخطى صاعدة فى معارج الرقى والحياة المقرونة بالأثر الصالح والذكرى الجميل بهمة صاحبيها الأدبيين الناهضين "شفيق أفندى مترى وإدوار أفندى مترى" اللذين يتباريان فى حلبة العمل بنزاهة وإخلاص وأمانة ويعملان بما أوتياه من المهارة فى سبيل التجديد والتحسين. ويتسابقان إلى توثيق عرى الصداقة والولاء مع كرام الكتاب والشعراء والمؤلفين الذين خدموا العلم بأقلامهم وأفكارهم ولا يزالون يجدُّون فى نشر التعليم فى أرجاء البلاد".



مثلت الفترة التى تولى فيها «شفيق نجيب مترى» إدارة دار المعارف (١٩٢٨م-١٩٦٣م) انقلابا مذهلا بكل ما تعنيه الكلمة، شكلا ومضمونًا، وكانت إضافاته وتطويراته من السعة والضخامة والإنجاز بما يفوق قدرة أى شخص على تصور هذا النجاح الكبير، بل الساحق، مما جعل دار المعارف كعبة المثقفين فى العالم العربى، وحلما كبيرًا أن ينشر فيها كاتب صاعد عمله الأول. فى ظنى أن الإعداد الذى تهيأ له «شفيق مترى»، بدفع من والده المؤسس، بدراسة فنون الطباعة والنشر فى أوربا بموازاة ملكات فطرية ومواهب سخية فى الإدارة والتخطيط، فضلاً عن ثقافة موسوعية وعين حساسة وذائقة رفيعة، كل ذلك لعب دوره فى ما وصل إليه «شفيق مترى» من نجاح كبير.

بادر «شفيق» عقب وفاة أخيه «إدوار» عام ١٩٣٥م، وإدارته منفردا للمطبعة، بتعيين مجموعة من أكفا الإداريين والمشرفين المعاونين له فى الدار، فاستعان بالشامى المشهور «يوسف مشاقة» ليكون مديرا للمطبعة، ومسؤولاً عن الجوانب المالية والإدارية لها (سيتزوج مشاقة من شقيقة شفيق مترى فى ما بعد)، ثم وبعينه الخبيرة المدربة بدأ يفتش عن من يكون «محررا» للدار بالمعنى الذى نفهمه اليوم، فوقع اختياره على الكاتب الأديب «عادل الغضبان» ليكون مشرفا تحريريا على إصدارات دار المعارف (راجع الفصل الخاص بعادل الغضبان).

وبعد أن تهيأ ما يمكن أن نعده «فريق إدارة دار المعارف»، يرأسه «شفيق مترى» ويعاونه فيه اثنان من أكفأ ما عرف فى هذا المجال، يبدأ فصل جديد، رائع، سجلت سطوره بحروف من ذهب، ليس فى تاريخ دار المعارف وحدها، بل فى تاريخ الثقافة العربية فى القرن العشرين، حلقت فيه دار المعارف إلى آفاق بعيدة، وجاوزت السقف الذى لم يكن أحد يتخيل أن يجاوزه أحد، كمًا ونوعًا وأرباحا، وصارت دار المعارف بلا أدنى مبالغة دار النشر الأولى مصريا وعربيا، بل وواحدة من دور النشر ذات السمعة العالمية أيضا.



فى سنة ١٩٤١م، وبمناسبة احتفال «مطبعة المعارف ومكتبتها» بعيدها الذهبى (مرور خمسين عاما على إنشاءها) استهل «شفيق» أعماله التطويرية بافتتاح فرع جديد للمطبعة بالإسكندرية، وعلى الرغم من قلة الورق فى فترة الحرب فقد أخرجت مطبعة المعارف ومطبعتها طبعة فاخرة، غاية فى الفخامة والتميز وجمال الشكل، طبعة تذكارية من الكتاب التراثى الخالد «كليلة ودمنة» «لعبد الله بن المقفع»، بتحقيق الدكتور «عبد الوهاب عزام بك» وتصدير الدكتور «طه حسين بك»، بمناسبة العيد الذهبى للدار. (راجع فصل قصة طه حسين ودار المعارف).

وفى سنة ١٩٤٤م، وقام «شفيق مترى» بتغيير اسم (مطبعة المعارف ومكتبتها بالفجالة) إلى الأسم الذى ستعرف وتشهر به وسيبقى حتى وقتنا هذا، وهو «دار المعارف بمصر»، وهنا قرر «شفيق» أن يبدأ إضافاته الجذرية وتطويراته غير المسبوقة للدار بتغيير شكل الحرف الذى صممه الأجانب لطبع الكتب العربية، وتحويله إلى شكل جديد أقرب إلى الذوق العربى، فسافر خصيصًا إلى بريطانيا حاملا معه التصميم الجديد، و نجح فى إقناع شركة «المونوتيب» بأن تصنع هذه الحروف خصيصا «لدار المعارف»!

ثم، وفى عام ١٩٤٥م، حصلت الدار على أول ماكينة جمع «مونوتيب» عربية خالصة بالحروف الجديدة، وكانت هذه الآلة الأولى من نوعها فى مصر والعالم العربى فى ذلك الزمن البعيد! وكانت ثورة فى عالم الطباعة والنشر بكل المقاييس، بات هذا الحرف العربى الجديد علامة مميزة وأيقونة من المستحيل تقليدها وسمت إصدارات دار المعارف، وظلت ملازمة لها وعلامة عليها لما يقرب لأكثر من خمسة عقود كاملة قبل أن يتغير الحال، وتختلف الأمور!

وبسبب من هذه الطفرة الهائلة التى أحدثها "شفيق مترى" بإدخاله هذا الحرف العربى المعد للطباعة، شهر الرجل من حينها بالريادة فى مجال الخطوط العربية والحرف العربى المعد للطباعة،



وصار من خبراء هذا المجال، مما دعا الهيئات والمؤسسات القائمة آنذاك إلى الاستعانة به وضمه إلى اللجان المشكلة لبحث تطوير الحرف العربي في مطابعها.

وربما كان هذا هو السبب في ضم "شفيق مترى" إلى واحدة من اللجان المهمة التي أوكل لها تيسير الكتابة العربية في ضوء المستجدات الحديثة، ولعل في هذه القصة ما يوضح حجم ومكانة الرجل كخبير يعتد به في مجاله، ففي سنة ١٩٤٧م، أعلن مجمع فؤاد الأول للغة العربية (مجمع القاهرة حاليا) عن مسابقة لتيسير الكتابة العربية، جائزتها ألف جنيه مصرى، وهو مبلغ ضخم جدا في ذلك الوقت، وتقدم نحو مائتي متسابق لهذه الجائزة، من بينهم فنيون وفنانون لهم قيمتهم، وهم مختلفون في منازعهم، حتى أن مجمع فؤاد الأول للغة العربية القائم ببحث هذا الموضوع، تلقى رسائل فيه من أمريكا ومن روسيا ومن الهند وغيرها من سائر الأقطار والبلاد.

ولأهمية هذا الموضوع وخطورة أثره، أى مسؤولو المجمع ألا تنفرد لجنة تيسير الكتابة العربية بالحكم على هذه المشروعات، وأن ترجئ نظرتها حتى تسمع رأى حكام فنيين في الخط وفي الطباعة، فقد يعجب اللجنة مشروع يصعب تنفيذه في العمل، فتبطل قيمته، وتنعدم جدواه، وقد يروق اللجنة مشروع من وجهته العامة ولكنه في أداء مقتضيات الكتابة العربية ناقص أو عسير التحقيق، ورأت اللجنة أن أعضائها وإن كان لهم بصر بالكتابة العربية، وسابق نظر المشروعات والمقترحات التي بسطت للتيسير، فإنهم ليسو بالفنيين في المتجردين لشؤون الخط والطباعة.

لذلك كله قرر مجلس المجمع، في جلسته التي ختم بما دورته الماضية، تأليف لجنة من فنيين في الخلط وفي الطباعة اختار لها المدير العام لمصلحة المساحة رئيسا، ويتكون أعضاؤها من كبير الخطاطين بمصلحة المساحة، والأستاذ "السيد إبراهيم الخطاط"



والشيخ "محمد فخر الدين بك" ومدير المطابع والتوريدات بمصلحة السكة الحديد، ورئيس مطبعة دار الكتب، والأستاذ "شفيق متري" صاحب "دار المعارف". وضم إليهم الأستاذ "شارل كونتز" مدير المعهد الفرنسي بالقاهرة باعتباره فنيا في الخطوط السامية وأحد الذين تتبعوا تطور الكتابة العربية. ليقارن بين الخطوط المقترحة وبين الخطوط السامية.

وذلك على أن تعقد هذه اللجنة بدار المجمع اجتماعات أسبوعية توالى فيها النظر في المقترحات المقدمة. وينتظر أن تقدم تقريرها في هذه المهمة إلى المجمع قبل انتهاء عطلة الصيف حتى يستطيع المجمع أن ينظر فيها في مقتبل دورته القادمة.

هذه القصة الطريفة التي عثرت في أحد أعداد مجلات "الرسالة" المنشورة في يونيو ١٩٤٧م، تدل على رفعة المكانة التي بلغها «شفيق متري» في عالم الطباعة والنشر، ومدى ما كان يمثله في الحياة الثقافية المصرية والعربية، ليس باعتباره مالكا لأكبر دار نشر في العالم العربي، إنما أيضا لخبراته الكبيرة ومعارفه الزاخرة في مجال الطباعة والنشر. (نشرت بتاريخ ٢٣ يونيو ١٩٤٧م، في مجلة الرسالة)

لم يكتف «شفيق متري» بالجانب التقني فقط، بل كان على وعي بأن التطوير الجدير بالتنفيذ وغايته النجاح لا بد أن يستند على رؤية كلية وشاملة لا ينفصل فيها عنصر عن عنصر ولا جانب عن جانب آخر، ولهذا ففي الوقت الذي كان يسعى لتجديد «الأداة» أو «الآلة» كان يفكر في شكل المنتج الذي استجلب له هذه العدة الجديدة، وهو الكتاب، وأقصد هنا بشكل الكتاب ليس فقط إخراجه الفني وغلافه، وما يتصل بذلك من نواح فنية وتقنية. بل أقصد محتواه أيضا، بدءا من الموضوع، والمؤلف، مرورا بالهدف والغاية. دون أن يفصل ذلك كله عن مقتضيات السوق وآليات التسويق والتوزيع. كل ذلك كان يفكر فيه شفيق متري، ويدور في رأسه. وفي سبيل ذلك قرر أن يستعين بكل كفاءة متاحة لتنفيذ ما يحلم به.



شفيق مترى



هكذا. وبعد أن استقر لصاحب الدار الأساس الذى ينطلق منه لتنفيذ أحلامه ومشروعاته الكبرى فى عالم النشر وفتح مسارات جديدة للكتاب العربى، تأليفا وتحقيقا وترجمة، فكر شفيق مترى بنصح من أصدقائه كبار الكتاب (وعلى رأسهم طه حسين وعباس محمود العقاد وأنطون الجميل وفؤاد صروف.. وغيرهم) وبمشورتهم أيضا، باستحداث فكرة إصدار سلاسل ثقافية متخصصة، تعنى بمحور محدد أو مجال معين، قديما أو حديثا، بشكل رأسى أو أفقى، وتستكتب فيه خيرة الكتاب وأفذاذهم، وهنا يجب أن نتوقف قليلا لأنه ليس بمجرد ورود الفكرة على الذهن يعنى ذلك الشروع فى تنفيذها قبل دراستها والإعداد الجيد لها.

أول ما قام به «شفيق مترى» أن شكل لجنة قراءة من كبار الكتاب، كما ذكرت، وأسند إليها مهام قراءة الأعمال المعروضة أو المرشحة للنشر فى دار المعارف وإبداء الرأى فيها، ليس هذا فقط بل أيضا أسند إليها مهام التفكير فى إصدار سلاسل ثقافية جديدة تثرى الحياة الثقافية وتنشر النور والإبداع، على أن تكون نموذجا يحتذى به فى المضمون والشكل والإخراج، وبالجملة كل ما يتعلق بشكل الكتاب وصناعته.

وكان يقف وراء هذا المشروع الضخم يعاون "شفيق مترى" رجل عظيم، كان بمثابة المخرج الفذ القدير الذى يقف وراء الستار يوجد ركن المثملين، ويضبط الإيقاع ويصل بالنص المقرر إلى غايته المرتجاة، دون أن يراه أحد أو يدرى بالأدوار الجليلة التى أداها أحد، إنه الكاتب السورى "عادل الغضبان" وهو يستحق فضلا مفردا لتخليد ذكراه ورواية قصته.

من هنا ولدت فكرة إصدار السلاسل العظيمة، الخالدة: «ذخائر العرب»، «اقرأ»، «نوابغ الفكر العربى»، «نوابغ الفكر الغربى»، وفى أدب الأطفال: «أولادنا»، «ألف ليلة وليلة»،



«المكتبة الخضراء»، ومجموعات أخرى للأطفال تجل عن الحصر فضلا عن مجلات «الكتاب» و«سندباد» وغيرها من الإصدارات العظيمة.











وستشهد تلك الفترة أيضا ـ أقصد عهد "شفيق مترى" ـ انطلاقه غير مسبوقة فى كتب الأطفال. وصار لدار المعارف الريادة بلا منافس فى هذا المجال. إذ أسهمت الدار بسخاء وافر فى نشر عشرات السلاسل من كتب الأطفال، بلغت خمسة وثلاثين سلسلة ضمت ١٧٥ كتابا للأطفال؛ من أشهر هذه السلاسل "مكتبة الطفل" و "مكتبة التلميذ"، و "المكتبة الخضراء" للأطفال، و "روضة الطفل" .. إلخ.

وقد كان «شفيق مترى» رجلا مستنيرا وعلى فهم دقيق للبيئة العربية فى مصر وبقية العالم العربى، ومتشبعا أيضا بروح الثقافة الإسلامية السمحة العظيمة، فعمل شغوفا على إصدار العديد من السلاسل الدينية للأطفال من بينها مجموعة «قصص الأنبياء»، و «سيرة الرسول»، و «غزوات الرسول» بإشراف المرحوم «محمد أحمد برانق»، وقد تميزت هذه السلاسل جميعا بأسلوب سهل ممتع وإخراج جميل وخلو تام من الشوائب «حتى تبقى العقيدة فى نفوس الصغار سليمة نقية»، هكذا كانت تعلن الدار ضمن تنويهاتها بهذه المجموعات وإعلانها عن كتب هذه السلاسل على أغلفة كتبها.



وقد اختار «شفيق مترى» صاحب الدار أن يزين هذه السلاسل برسوم من الفنانين الأجانب المقيمين فى مصر فى ذلك الوقت مثل الفنان الأرمنى "ديك أو ديكران" فى سلسلة القصص الفكاهية والفنان الإيطالى "موريللى" فى سلسلة "قصص شيكسبير"، وغير ذلك كثير.

(راجع الفصل الخاص بسلاسل دار المعارف)



توسعات .. وإنشاءات

وفى سنة ١٩٥٠م قام «شفيق مترى» بافتتاح فرعين جديدين لدار المعارف فى شبرا والسيدة زينب، كما أصبح لدى الدار فرع كبير فى بيروت، وهو الذى سيحمل اسم (دار المعارف ببيروت)، وكانت ذات ميزانية مستقلة عن الدار الأم هنا فى القاهرة.

وفى السنة ذاتها، وعلى يد «شفيق مترى»، انتقلت مطبعة المعارف من مقرها القديم بالفجالة إلى مبناها الحالى الذى يتكون من عشرة طوابق ضخمة على كورنيش النيل، وتصبح حقا أهم دار نشر للمطبوعات فى مصر والعالم العربى. (فى سنة ١٩٥٣م تغير ترقيم العقارات بشارع الفجالة، فأصبحت تحمل رقمها الحالى، وهو رقم ٩ شارع الفجالة، وهو حاليا أحد فروع دار المعارف. ثم، ومع زيادة أعمال نشر الكتب بدار المعارف قامت ببناء المبنى الحالى حيث انتقلت إليه فى الأول من مارس عام ١٩٥٠م، وكان آنذاك يحمل رقم ٥ شارع ماسبيرو. وفيما بعد تغير اسم الشارع ورقم العقار ليصبحا باسمها الحالى، وهو رقم ١١١٩ طريق كورنيش النيل، وهو حاليا على مقربة من ميدان عبد المنعم رياض، ثم قامت فيما بعد ببناء ملحق جانبى لهذا المقر الرئيسى).

فى الفترة من ١٩٥٠م وحتى ١٩٦٣م تضاعف عدد آلات جمع المونوتيب وأصبح لدى "دار المعارف" فى سنة ١٩٥٨م، أول آلة مونوتيب تجمع الحروف مشكولة (مضبوطة بالشكل) كما تضاعف عدد الطابعات، وتم شراء أول طابعة أوفست كبيرة تطبع بلونين، كما أدت زيادة الإنتاج إلى مضاعفة عدد العمال بالدار بصورة كبيرة.

مليونان من الجنيهات

وذكر وديع فلسطين، فى كتابه الموسوعى المهم عن أعلام العصر، أن شفيق مترى، صحاب دار المعارف بمصر، قال له إنه



كان يصدر كتبا بما قيمته مليونان من الجنيهات سنوياً، فى الثلاثينيات وأوائل الأربعينيات من القرن الماضي، وهو ما يساوى، حاليا، فى أضعف التقديرات، مائتى مليون جنيه مصرى على الأقل، وذلك فضلا عما كانت دار المعارف، مع كتبها المنتشرة فى كل مكان فى هذا العالم، تكسبه من تقدير لاسم مصر، ورفعة لصورتها الثقافية والحضارية، وتأكيد لما كانت مصر تقوم به من قيادة حياة فكرية جديدة تواجه العصر وتلتقى معه، وتحمل العقل العربى إلى النور، ذلك بعد أن كان يعيش فى ظلام شامل كبير.

انتهت فترة إدارة "شفيق مترى" لدار المعارف والإشراف عليها بصدور قرارات التأميم عام ١٩٦٣م، وانضمام "دار المعارف" إلى مؤسسة الأهرام تحت إشراف رئيس مجلس إدارتها فى ذلك الوقت الكاتب الصحفى "محمد حسنين هيكل"، وهكذا تطوى صفحة زاهرة ومجيدة وعطرة من فصول "دار المعارف" بمصر. وتبدأ مرحلة جديدة ستستمر حتى وقتنا هذا.

دعوى.. ورد

فى كتابه القيم «وديع فلسطين يتحدث عن أعلام عصره»، يورد المؤرخ الأدبى الكبير "وديع فلسطين" هذه الرواية ويعلق عليها قائلا:

"أما دار المعارف التى عوملت بعد التأميم بأنها دار صحفية بسبب مجلة (أكتوبر) التى ألحقت بها، فقد ارتأى المسؤولون عنها بعد التأميم الإبقاء على صاحبها "شفيق مترى" لكى يلاحق المطابع والعمال مقابل "نفقة" شهرية قدرها مائة جنيه وليست مرتبا أو مكافأة. وعندما التقيت به للمرة الأخيرة فى الطريق أخبرنى أنه توجه إلى مدير الدار وقال له: كيف أعيش بمائة جنيه فى الشهر مع أن أجرة الشقة التى أقيم فيها هى مائة جنيه؟ فقال له المدير: احمد ربك لأننا أبقينا عليك. فما كان منه إلا أن هاجر إلى فرنسا



للحاق بنجله الوحيد الذى كان يعمل فى دار هاشيت لطباعة القواميس".

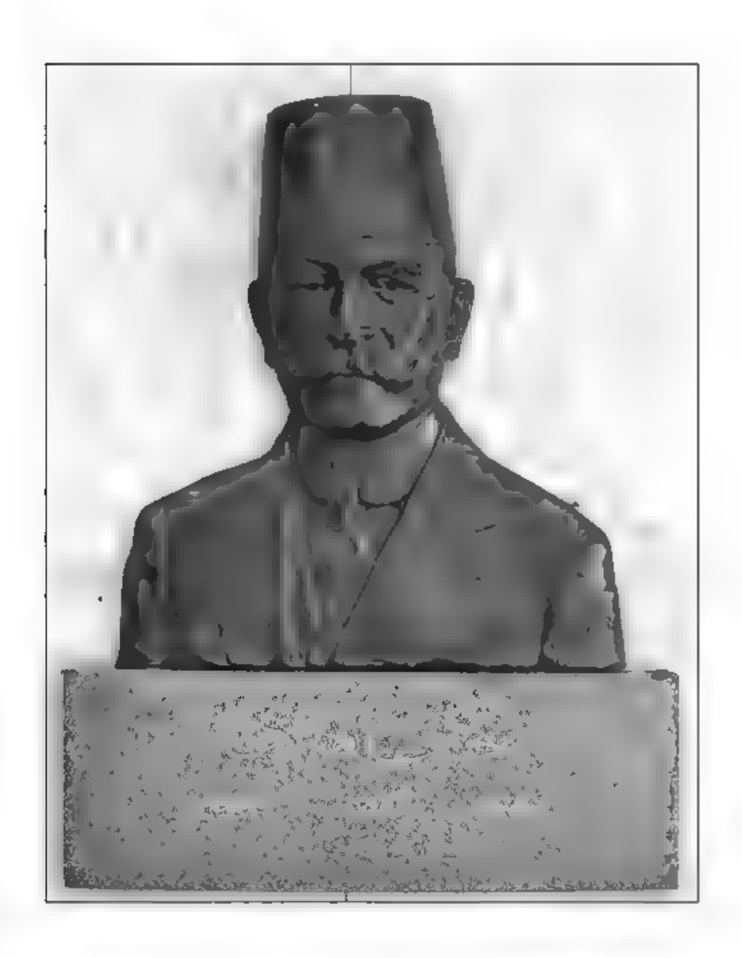
وتبدو رواية "وديع فلسطين" فى جانب منها مبطنة بالمرارة والأسى وتشير بإصبع اتهام خفى، بين السطور، إلى مجلة (أكتوبر) بأنها كانت السبب وراء هذه الحال التى يصفها.. وللأمانة، وبعيدا عن أى اعتبارات أخرى، فإن الرواية هنا يشوبها عدم الدقة والافتقار إلى التحديد، فتأميم "دار المعارف" تم فى سنة ١٩٦٣م. ومجلة (أكتوبر) ظهرت إلى الوجود أواخر عام ١٩٧٦م، بعد أن سقط نظام وقام نظام آخر تمامًا!

أى أن ما بين الحدثين ما يقرب من ثلاثة عشر عامًا! ومن هنا فإن الزعم بأن مجلة (أكتوبر) هى السبب وراء الصورة القاتمة التى وصفها عن المرحوم "شفيق مترى" والمعاملة غير اللائقة التى قد يكون عومل بها من أحدهم، عقب قرار التأميم مباشرة، زعم باطل وغير صحيح، ومجلة (أكتوبر) بالتأكيد لم تكن كيانا موجودا من الأساس فى ذلك الوقت لينسب إليها بعض سلبيات التأميم كما رآها البعض. وعلى أية حال. وبقليل من شجاعة الاعتراف ومواجهة الذات، فإننا يجب أن نعترف بأن المرحوم "شفيق مترى"، وبعد كل ما أنجزه وقام به وحققه للدار وللثقافة المصرية والعربية، لم يلق العناية اللائقة بأمثاله من عظماء الرجال، ولم يهتم أحد بتكريم الرجل ولا الإشارة إلى دوره فضلا عن تحديد وضعية خاصة له بعد التأميم سواء فى الإدارة أو المقابل المادى. وهو بالتأكيد ما انعكس على حالته النفسية وجعله إلى آخر عمره يشعر بمرارة لا تزول.

وكانت ثمة محاولات فى عهد الأستاذ صلاح منتصر (١٩٨٥م - ١٩٩٣م)، ومن بعده فى عهد رجب البنا (١٩٩٣م - ٢٠٠٤م)، لإصلاح ما أفسده الدهر، وواراه الزمن، بإعادة ولو شىء يسير من حق الرجل الذى أقام هذا الصرح الضخم بمجهود عبقرى وإدارة حديدية،



وسمعت من بعض العاملين فى مؤسسة "دار المعارف" وقد رأوا "شفيق مترى" فى أيامه الأخيرة قبل وفاته، أنه سعد كثيرا بوضع تمثال لوالده المؤسس "نجيب مترى" فى صالة الاستقبال الرئيسية بمنى "دار المعارف" (فى تسعينيات القرن الماضى ولم يتسن الوصول إلى التاريخ الدقيق لهذه الواقعة).





الفصل الثالث

عادل الغضبان رئيس تحرير إصدارات دار المعارف


عادل الغضبان

«كلما قرأتُ كتابا جديداً بالعربية أيقنتُ أن مشكلة كتبنا الأولى والأهم هى غيابُ التحرير. كثيرون يكتبون كأنهم حكواتيون فى مقهى. يثرثرون ويثرثرون ويعتبرون ذلك تدفقا فى السرد! على دُور نشرنا أن توظّف محررين ماهرين ومثقفين يتصدون لآفة الثرثرة، ويقنعون الكاتب الجهبذ بعملهم التحريرى(*) الذى لا يقلّ أهميةً عن عمله بالذات!»..

"سماح إدريس" نجل الكاتب والناشر الراحل "سهيل إدريس" (مؤسس دار الآداب بيروت).

مقال عن المحرر الأدبى

"المحرر قارئ حصيف ينبه المؤلف إلى بعض مواضع الوهن فى نصه، ويسعى إلى تصحيح بعض أخطائه. ويدعوه إلى إعادة كتابة بعض الفصول أو الفقرات، وتغيير عناوين بعض الفصول، ما يجعل النص أفضل وأشد وقعا وتأثيرا فى العادة".

الناقد الأردنى فخرى صالح

هذه مقولات ثلاثة تتحدث جميعًا عن مهنة المحرر الأدبى، أو بمعنى أشمل وأعم محرر النصوص المكتوبة كى تنشر فى كتاب يذاع على الناس. وهى مهنة جليلة الخطر والشأن، وفى

(*) وظيفة المحرر الأدبى ليست التصحيح اللغوي. وإنما دوره يتمثل فى تنقيح النص من العاهات والزوائد والحشو وما لا يحتمله النص، ليخرج نصا صالحا للقراءة. من الاخر هو بمثابة "الديسك" لتجميل ما شوهته يد الكاتب. وفى معنى آخر الماشطة للدميمة.



السنوات العشرة الأخيرة، وربما قبلها أيضا تتزايد الشكوى، مز الشكوى، من افتقاد "محرر النصوص" المحترف، القارئ الذكى الحصيف الذى يتدخل كالجراح الماهر فى تعديل النصوص وتهيئتها للنشر كأحسن ما يكون وأكمله، من عتبة النص وحتى السطر الأخير. إذا حضر هذا المحرر وكان متميزًا واعيا لطبيعة المهمة التى يقوم بها خرجت إصدارات الدار التى يعمل بها ويتولى مسؤولية تحرير مطبوعاتها كأحسن ما يكون، وضمنت لنفسها مكانًا رفيعًا بين دور النشر المحترمة المرموقة، وإذا غاب أو توارى لأى اعتبار آخر فلا مجال للحديث عن مطبوعات متميزة أو إصدارات يمكن لها أن تنافس وتباهى بمحتواها ومادتها المحررة.

وفى ظنى ما كان لدار المعارف، عبر تاريخها المديد والعريق، أن تتبوأ المكانة الرفيعة التى احتلتها طوال ما يزيد على خمسة وسبعين عاما متصلة لولا وجود هذا المحرر المدقق، وسيدهش القارئ الكريم إذا علم أن صاحب الدار ومؤسسها الأول كان أيضا هو المحرر الأول الذى يقوم بمهام التحرير والتعديل وإعادة الصياغة واختيار العناوين.. إلخ مما يتصل مباشرة بمهنة المحرر الأدبى.

خلال الفترة التى تولى فيها "شفيق مترى" الابن مسؤولية الإشراف على دار المعارف، وهى بلا شك فترة ازدهارها وتألقها ووصولها لذروة ما تطمح إليه مؤسسة لنشر الكتب، كان هناك بطل مجهول أو "المساهم السرى" (بتعبير ألبرتو مانغويل) لولا جهوده وكفاءته ودأبه وإخلاصه الشديد، فضلا عن تأسيسه لجملة من التقاليد والإجراءات المرعية التى تشكل فى مجملها ما يعرف الآن باسم وظيفة "المحرر الأدبى"، ما كان لدار المعارف ولا إصداراتها المهولة أن تحتل مكانتها فى المكتبة العربية والإنسانية حتى اللحظة، بكل ما مثلته وقدمته من علم ونور وإشعاع ثقافى يمتد أثره ويظل إلى ما شاء الله. عن الرائد الشامى الكبير عادل الغضبان.

و "عادل الغضبان" (١٩٠٨م - ١٩٧٢م) واحد من المثقفين الكبار



الذين أدوا خدمات جليلة للثقافة العربية بشكل عام. وفى مجال نشر الكتب وأدب الأطفال بشكل خاص، فضلا كما قلت، عن تأسيسه لتقاليد مهنة "المحرر الأدبى" لدور النشر بشكل احترافى، وذلك خلال الفترة التى عمل بها محررا ومشرفا عاما على نشر الكتب والإصدارات فى دار المعارف لأكثر من ثلاثة عقود متصلة. وهى الفترة التى شهدت توهج وازدهار الدار واحتلالها، دون منافس، المرتبة الأولى بين دور النشر العربية من المحيط إلى الخليج.

"لعادل الغضبان" قصة تروى وسيرة تحكى ونشاط ومجهود وإنجاز يستحق أن يؤرخ له ويسجل ويوثق، وأن يكون بين أيدى الأجيال الجديدة والقادمة لتعرف كيف يبنى مجد المؤسسات الثقافية بفضل إخلاص وكفاءة واقتدار رجال عظام بقيمة وقامة "عادل الغضبان".

كان "الغضبان" جزءًا لا يتجزأ من تاريخ دار المعارف فى عصرها الذهبى، وركن أصيل من سيرتها وفضلها وإنجازها، ورغم ذلك الدور الهائل الذى أداه الرجل، فإن مما يؤسف له عدم توافر أى مادة تؤرخ وتوثق لهذا الرجل ومجهوده العظيم وإنجازه الضخم، فعلى كثرة ما بحثت ونقبت عن سيرة الرجل وأعماله وتاريخه فوجئت بأن لا شىء على الإطلاق يليق بحجم وإنجاز الرجل باستثناءات لا تذكر ولا تشكل خرقا للقاعدة بل تثبيتا لها وتأكيدًا.

كل ما وجدته عن "عادل الغضبان" لا يتجاوز فصلين قصيرين فى كتابين هما «وديع فلسطين يتحدث عن أعلام عصره» للكاتب والمؤرخ الأدبى القدير "وديع فلسطين". و«وجوه عربية على ضفاف النيل» للمرحومة "وداد سكاكيني" فى ما لا يتجاوز عدة صفحات ركزت خلالها على جانبه الشعرى والأدبى ولم تتعرض تقريبًا لعمله فى دار المعارف إلا بأسطر قليلة، ثم بعض مقالات هنا أو هناك لا تشفى غليلا ولا تقدم زادا. حاولت قدر الجهد والطاقة أن أقدم فى هذا الفصل شيئا من سيرة "عادل



الغضبـان". وأن ألقى ضوءا على دوره وإنجـازه الكبير من خلال عمله فى دار المعارف.

طرَف من السيرة

أول إشـارة عثـرت عليهـا عن «عـادل الغضبـان» ودوره فى دار المعـارف كانت فـى مقالة لافتـة للمرحـوم الناقد الكبـير «رجاء النقـاش» نشـرها فى جريـدة الأهـرام. وذكـر فيها نصـا «كان وراء هـذا النشـاط الثقافى المتميز بالعمق والـذوق والحس القومى فـى دار المعـارف، خاصـة منـذ حـوالى سـنة ١٩٤٠م، رجل نابـغ نابه جمـع بـين الموهبـة والثقافة الرفيعـة والأخـلاق الصافيـة العاليـة، والقـدرة الإداريـة الحازمـة الدقيقـة، وهـو المثقف: الشـاعر الأديب "عادل الغضبان" (١٩٠٨-١٩٧٢م) وبفضل كل هذه الصفات الطيبة التـى اجتمعت فى شـخص «الغضبان»، فإنه كسـب ثقة صاحب الدار «شـفيق مترى» الذى اعتمد عليـه وأتاح له الفرصة الكاملة ليعمل ويبدع. وكان «الغضبان» رئيسا لتحرير مجلة (الكتاب) ورئيسا لتحريـر سلسـلة (اقرأ)، والحقيقـة أنه كان رئيسا لتحرير دار المعارف كلها».

وعنه أيضًا يقول «السيد أبو النجا» أول مشرف على دار المعارف عقب تأميمها. فى سيرته الذاتية «ذكريات عارية»، (ص ٢٠٥):

«ومـن حسـن الحـظ أن كان على رأس النشـر فى الدار شـاعر كبير هو فى الوقت نفسـه رجل أعمال.. و«عادل الغضبان» يتخذ من الشـعر هواية. ومـن التعامل مع المؤلفين مهنـة. ومن الغريب أنه يستطيع الجمع فى عمله بين الحقيقة والخيال».

ويذكـر «وديع فلسـطين» فى مقالة قيمة له نشـرها بجريدة الحيـاة اللندنيـة (بتاريـخ ١٧ يوليـو ١٩٩٩م) أن «عـادل الغضبان» ارتبـط طوال عمره ومنذ عام ١٩٤١م بدار المعارف وصارت الدار تعرف بأكبر علمين فى صناعة النشـر. هما «شفيق مترى» (ت ١٩٩٤م) نجل «نجيب مترى» مؤسـس الدار، و«عادل الغضبـان»، وهو أفقه



من عرفته دوز النشر بالقيمة الحقيقية للمؤلفات والمصنفات أيا كان موضوعها».

اسمه بالكامل «عادل حكمت الغضبان»، من أعلام الأدب والصحافة فى الوطن العربى بلا جدال، من مواليد الحادى عشر من نوفمبر عام ١٩٠٥ بالتقويم الرومى الذى يقابل العام ١٩٠٨ بالتقويم الميلادى، ولد بمدينة مرسين التابعة لمحافظة حلب قبل أن يستولى عليها الأتراك. من أسرة حلبية الأصل، فهو سورى الأصل، مسيحى الديانة، وكان والده ضابطا بالجيش التركى. و "عادل الغضبان"، هو ابن «حكمت الغضبان» شقيق «إلياس» وقريب «حكمت» زوج الأديبة المشهورة (مريانا مراش) فهو يمت بصلة النسب والقرابة إلى «آل المراش» أيضا (الذين خرج فيهم «فرنسيس فتح الله المراش» صاحب رواية «غابة الحق» التى يقال عنها إنها أول وأقدم نص روائى سردى فى تاريخ الرواية العربية).

والتحق فى بادئ الأمر بمدرسة ابتدائية فى حلب، قبل أن تنزح أسرته إلى مصر، وقيل إن أسرته هاجرت من حلب إلى القاهرة وعمره شهران فقط، فأقامت أسرته بها ونشأ وترعرع فى رحابها، وتلقى علومه الأولى فى معهد الآباء اليسوعيين (مدرسة العائلة المقدسة الجزويت) بالقاهرة، التى كانت قلعة للغتين العربية والفرنسية بفضل مديرها الأب «جبرائيل العقيقى»، فأظهر عادل الغضبان تفوقا واضحا فى اللغتين، حتى إذا ما ظفر بشهادة البكالوريا عينه الأب العقيقى مدرسا للغة العربية فى المدرسة ولا سيما لأن «عادل الغضبان» لم يكن يقنع طوال سنى الدراسة بمتابعة المقررات، بل كان يطالع كذلك أمهات الكتب العربية ودواوين الشعراء، وشرع فى هذه السن الصغيرة فى نظم الشعر على بحور «الخليل بن أحمد».

وكان التفرغ للتدريس يقتضيه بذل جهود تتصل حتى بعد انتهاء اليوم المدرسى، ولهذا ارتضى الانتقال إلى وظيفة متواضعة فى



سكك حديد مصر. وأسند إليه فيها عمل الترجمة. وكانت مصر فى ذلك الوقت خاضعة للاستعمار البريطانى الذى أنشأ محاكم مختلطة كى يحاكم أمامها الأجانب المتمتعون بامتيازات تحميهم من المثول أمام المحاكم المصرية والقضاة المصريين، وهى محاكم ألغيت فى ما بعد عند إلغاء الامتيازات الأجنبية فى عام ١٩٣٦م. فالتحق "عادل الغضبان" بهذه المحاكم مترجما بفضل إجادته للغتين العربية والفرنسية. وكان قد تابع دروسا فى القانون فى مدرسة الحقوق الفرنسية للتضلع من المصطلحات القانونية. ثم اشتغل فى الصحافة، وكان يترجم لكبريات الصحف المصرية ما تكتبه صحافة الغرب من مقالات وآراء فى السياسة الدولية مما له صلة بالوطن العربى، وكان فى كل ذلك متصلا اتصالا وثيقا بدوائرها الأدبية ونشاطها الذى لا ينقطع.

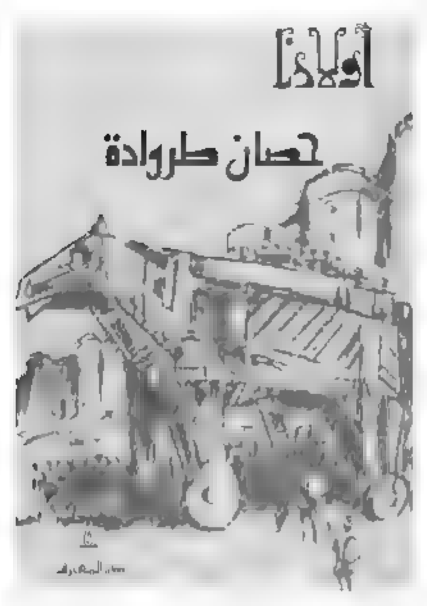
و يحكى الذين كتبوا عن «عادل الغضبان» أو تعرضوا لشىء من سيرته أنه كان نادرة النوادر فى حبه وعشقه للثقافة العربية الإسلامية ومعرفته بها ودفاعه المخلص الدائم عنها، وكانت ثقافته العربية أدبا وشعرا ومثلا، وتراثا بالجملة، مضرب الأمثال. كان شاعرا وله قصائد عديدة منشورة بدوريات ذلك العصر، وكان يتمتع بشخصية جذابة وأسلوب ناصع وإحساس شاعرى مرهف وكان غزير الشعر وخاصة فى المناسبات الاجتماعية والوطنية.

والذين خصوا جانبه الإبداعى بالدراسة والتحليل أشاروا إلى أن شعره يمثل امتزاج المدرستين التقليدية والمجددة فى صورة دقيقة صادقة، و يجمع فى تكوينه بين روح حلب وروح مصر، مدرسة حلب التى جمعت بين الدعوة إلى الحرية ونظم الشعر وعرفت بعنايتها بالأسلوب البليغ الناصع وبالشعر الرصين، وبمدرسة مصر عاش طفلاً فى القاهرة وارتبطت مطالع حياته بمشاهدها وأدبها وأعلامها.



كما يتميز شعره برشاقة العبارة وأناقتها وعلى جمال الأسلوب، وكان يحرص دائما على تصعيد المعانى الجديدة

وسكبها فى قالب عربى حميم، وعيشه فى مصر ومشاركته فى الجـو الأدبى فيها تركت أثرا واضحا فـى تكوين ثقافته الأدبية، وفى شـعره الوجدانى تلمس هذه الشفافية فى التعامل مع مفردات اللغة والبساطة فى تناول الأفكار.



ومـن كـتـب «عـادل الغضبـان» المنشـورة كتاب «الشـيخ نجيـب الحـداد» (صدر ضمـن مجموعة «نوابغ الفكر العربى» الكتاب رقم ٣)، وقصـة «ليلـى العفيفة»، ومسـرحية شـعرية بعنـوان «أحمـس الأول»، بشَـرت بارتيـاده مكانـة مرموقة فى بواكير الحركة المسـرحية الشعرية، وهى المسرحية التى نـال عنها جائـزة وزارة المعارف لموضوعها وصياغتهـا الفنية، حيـث تحدثـت عن تحريـر مصر مـن الهكسـوس على يـد البطل أحمـس حديثا لم يخالف حقائق التاريخ، مع إبداع شـعرى رائع فى الحوار وتتابع الأحداث.

ولـه أيضا ملحمة شـعرية عنوانهـا «من وحى الإسـكندرية»، وهى ملحمة من نفس البحر والوزن والقافية وقعت فى ١٨٧ بيتا سجل فيها تاريخ الإسـكندرية منذ عهد مُنشئها «الإسكندر المقدونى» وحتى العهد الحالى، وصدرت هذه الملحمة الشـعرية فى عام ١٩٦٤م. وله أيضًا ديوان شعر ضخم سماه «قيثارة العمر» فيه شعر عمودى، لم يُنشر حتى وفاته، وعنه يقول المرحوم «رجاء النقاش» «وقد كنت أتمنى أن تقوم دار المعارف بتكريم ذكرى هذا الرائد العظيم. وأن



تقوم بنشر ديوانه الوحيد الذى لم يتمكن «عادل الغضبان» من نشره فى حياته لكثرة مشاغله ومسئولياته».

وأشار غيرُ واحد إلى أن «للغضبان» أيضا معارضات شعرية كثيرة ستظل مجهولة إلى أن يتأتى لديوانه المخطوط «قيثارة العمر» أن ينشر بعدما يضاف إليه ما تناثر من شعره فى بطون المجلات المصرية والعربية.

كما ترجم «الغضبان» مجموعة من الكتب مثل «الزنبقة السوداء»، و«دون كيشوت»، و«الأميرة والفقير»، و«مملكة البحر»، و«تربية البنات» من تأليف «فينلون». وأصدر كتبا للأطفال والناشئة، وألف كتبا مدرسية فى أصول النحو والصرف مع زميله «قايد العمروسي» (ت ١٩٧٦). وله فضلا عن ذلك عشرات المؤلفات للكبار والصغار على السواء. وهى الأعمال التى أخرجها إبان عمله فى دار المعارف وكانت أخصب فترات حياته وأغزرها حتى توفاه الله فى القاهرة فى الحادى عشر من ديسمبر سنة ١٩٧٢م، ودفن بها.

الغضبان ودار المعارف.. رباط مقدس

لعلّ فى قصة «عادل الغضبان» والتحاقه بدار المعارف مغزى لكل مهتم وباحث عن عناصر النجاح والتميز التى تقوم عليها مؤسسة للنشر وطباعة الكتب؛ بل أى مؤسسة، فعندما يكون على رأس هذه المؤسسة رجل بحجم وخبرة وتفوق «شفيق مترى» يلحظ بعين خبيرة مدربة الكفاءة الحقيقية ويتشمم بحاسة الإدارى الناجح الموهبة الفذة، فإنه على الفور يبادر باستدعائها وإسناد المهام الجليلة إليها فتكون النتيجة ازدهار غير مسبوق ونجاح لا يحد والوصول بالمؤسسة إلى مصاف الكيانات الاقتصادية الكبرى فى العالم العربى، فضلا عن دورها الثقافى والتنويرى الذى التزمت به وسعت إلى تحقيقه.



يحكى المؤرخ الأدبى «وديع فلسطين» قصة اكتشاف «شفيق مترى» «لعادل الغضبان»، فيقول إنه بعد حل المحاكم المختلطة، التى كان يعمل بها مترجما، التحق عادل الغضبان بدار المعارف التى أصبحت كل دنياه، واقترن اسمه بها وبكل ما حققته من سمعة ضخمة على الصعيدين العربى والعالمى. كان «الغضبان» وقتها ـ فى حدود عام ١٩٤٤م ـ شابا فى مقتبل العمر يزاول فى الدار عملاً كتابيا مع زميل له اسمه «يوسف شحاتة» دفعه طموحه إلى الاستقلال بدار أطلق عليها اسم «دار العالم العربى» وأصدر عنها مجلة شهرية عنوانها (العالم العربى). ولكن الداء العضال اقتضب عمره، وآلت ملكية الدار إلى شريك له.

وسرعان ما اكتشف «شفيق مترى»، صاحب الدار، أن لـ«عادل الغضبان» من كفاءاته المتعددة، ومن فضائله الخلقية الكثار ما يرشحه لأكبر من هذه الوظيفة المكتبية، فاختاره مشرفا ثقافيا على مطبوعات الدار فى عهدها الذى أصبح بفضله عهدًا زاهرا، وصار صاحب الكلمة الأولى والأخيرة فى تقرير ما تنشره الدار من الكتب بموضوعاتها المتباينة، بما فى ذلك كتب التراث الضخام بأجزائها التى تربى أحيانًا على العشرين.

كان هذا القرار الذى اتخذه «شفيق مترى» بإسناد مهام الإشراف على المطبوعات الثقافية لدار المعارف إلى «عادل الغضبان» «نقلة نوعية» واستهلالاً لمرحلة جديدة فى تاريخ الدار، تزامن فيها تقسيم المهام إداريا وماليا "لشفيق مترى ويوسف مشاقة"، وتحريريا لـ «عادل الغضبان» فكان أن شهدت دار المعارف خلال الفترة (١٩٤٥م ـ ١٩٦٣م) أعظم نجاحاتها، وأغزر إنتاجها، وارتبط القوام الأكبر من أهم الإصدارات فى كل المجالات وعلى كل المستويات بهذه الفترة المزدهرة الغنية المشرقة وهؤلاء العظام الذين كانوا وراء هذا الإنجاز.



ماذا قدم «الغضبان» لدار المعارف؟

يقول «وديع فلسطين»:

«أما مآثر «عادل الغضبان» فى دار المعارف فكثيرة، فهو صاحب فكرة إصدار السلاسل المختلفة مثل «اقرأ»، و«توابغ الفكر العربي»، و«نوابغ الفكر الغربى»، و«ذخائر العرب»، و«أولادنا»، وكذلك فكرة إصدار مجلة (سندباد) للأطفال التى رأس تحريرها «محمد سعيد العريان» (١٩٠٥م - ١٩٦٤م).

وهو الذى رأس تحرير مجلة «الكتاب» الشهرية التى استمرت تصدر بانتظام منذ عددها الأول فى تشرين الثانى/ نوفمبر ١٩٤٥م والى آخر أعدادها فى عام ١٩٥٣م. ومن المصادفات التى لا أحاول تعليلها أن جميع مجلاتنا الأدبية كـ "المقتطف" و "الرسالة" و "الثقافة" و "الكاتب المصرى" و "الكتاب" و "مجلة علم النفس" كانت على موعد مع عام ١٩٥٢م أو بعده بقليل، فاحتجبت جميعًا فى هذا التوقيت الملغز! وكان الإشراف على كل ما تنشره الدار يقتضيه أن يطالع بنفسه على كل نص يقدم للنشر، سواء أجيز أو لم يجز، فجاء هذا كله على حساب الطاقة الأدبية "للغضبان" نفسه، إذ كان يقول لى إنه يفضل نشر كتب الآخرين على نشر كتبه الخاصة، ولهذا قل إنتاجه الأدبى المنشور، وبقى إنتاج كثير مخطوطًا».

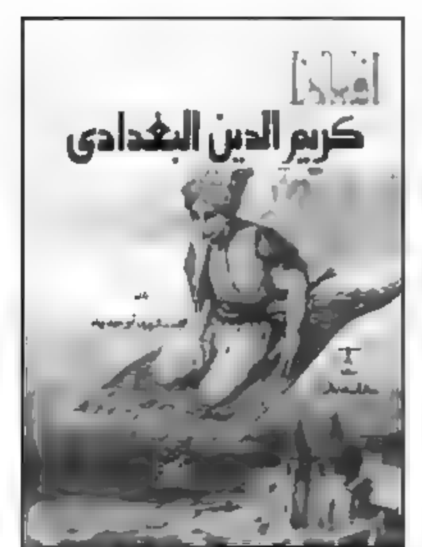
وهذا الفصل من تاريخ دار المعارف، هو أزهى وأزهر فصولها وأغناها بالكتب والإصدارات، المؤلفين والكتاب والشعراء ومحققى التراث والمترجمين، سلاسل الكتب المتنوعة للكبار والصغار، الدوريات الثقافية العامة، وأخرى موجهة للأطفال. كل ذلك وغيره شهدته دار المعارف على مدار ثلاثين سنة متصلة، كان «عادل الغضبان» يقف وراء كل هذا النشاط مثل «الدينامو» لا يكل ولا يمل، فهو أولا المحرر الأول للدار تعرض عليه الأعمال المقترحة للنشر، يقرأها ويبدى الرأى فيها. وفى حال قبول نشرها،



يقـوم بتحرير النـص وإجراء التعديلات المطلوبـة، والوصول به إلى أحسـن صورة يمكـن أن يظهر بها وعليهـا، كل ذلك بالتوازى مع جهوده الخاصة فى التأليف والترجمة والكتابة للأطفال.

وقـف «عادل الغضبان» وراء نجاح كل السلاسـل التى ظهرت عـن دار المعارف خلال تلك الفترة، فقد كان بحق الجندى المجهول، الذى يتولى إعداد الكتب و يختار مؤلفيها أو يسند بعض الأعمال إلى كتّـاب بأعينهم (بتكليف خاص من دار المعارف)، وكان هو الـذى يتولى الإعداد والتخطيط لشـكل السلاسـل وموضوعاتها وتحديد الإطار والمنهج العام الذى على أساسـه ستخرج كتب هذه السلسـلة أو تلك. وتقريبـا هو الذى كان أيضا يحـرر كل المواد الدعائية والترويجية لكتب دار المعارف وسلاسـلها المتنوعة على ظهـر أغلفة إصدارات الـدار، فكان يصوغ عبارات رشـيقة تعرف بالكتـاب أو السلسـلة، وتعرض فى إيجاز لمحتواهـا، ثم تعدد فى نقـاط مكثفة أبـرز ما تقدمـه أو تتميز به، وفى مناسـبات أخرى كان يورد أقوال كبار الكتاب والأدباء وتقريظاتهم فى الأعمال الصادرة عن الدار.

«أولادنا»...



ولـو أخذنـا مثـالاً علـى ذلـك النجـاح، سلسـلة كتب «أولادنـا»، التى كان يشـرف عليها المرحـوم «محمد فريد أبو حديـد»، وصـدر منهـا عناوين ما زالت معروفـة ومقروءة حتى وقتنـا هـذا؛ مثـل: «عمـرون شـاه»، «مملكـة السـحر»، «كـريم الدين البغدادي»، «آلة الزمـان»، «الأمـير والفقـيرة»،



«كتاب الأدغال»، «بينوكيو»، «نبوءة المنجم»، «روبن هود»، وغيرها من روائع الأعمال الأدبية والخيالية للأطفال والناشئة.

كانت هذه الكتب تصدر فى قطع أنيق، وفى عدد من الصفحات لا يكاد يزيد أو ينقص بقليل أو كثير عن المقرر له (فى المتوسط ١٢٠ صفحة)، وبأغلفة غاية فى الروعة والجاذبية، وصور ولوحات رسمت خصيصًا لكتب السلسلة، قام بها الرسام الأرمنى «ديك». وبسبب من الرعاية الفائقة التى كان يوليها «عادل الغضبان» لكتب هذه السلسلة، شكلاً ومضمونا، نجحت نجاحا كبيرا، وأصبحت من أهم السلاسل التى تخاطب الشباب والناشئة وتحثهم على القراءة والإقبال عليها.

كانت دار المعارف تُعرِّف بسلسلة «أولادنا» على أغلفة كتبها بالعبارة الآتية: «مجموعة من القصص الحية الرشيقة المفيدة تغذى روح الطالب وتجلو له فى جميع مراحل النمو عناصر المتعة والثقافة وسمو النفس. المجموعة التى تحبب الكتاب الصالح إلى الطالب فيقبل عليه صغيرًا ويتعلق به كبيرا ويكون له نعم الزاد فى سفرة الحياة. بإشراف الأستاذ «محمد فريد أبو حديد بك»، ومن تحرير «عادل الغضبان».

وعلى ظهر الغلاف الخلفي، جاء تعريفها كالآتى «مجموعة طريفة يختص كل كتاب منها بقصة واحدة تفيض بالمغامرات والحوادث العجيبة المملوءة بآيات البطولة والشجاعة والإقدام»، (كانت النسخة تباع باثنى عشر قرشا).

«الغضبان».. ومجلة «الكتاب»

من الصفحات المجهولة فى تاريخ دار المعارف، وربما لا يعلم عنها الكثيرون شيئا أنها بجانب دورها الكبير الضخم فى مجال نشر الكتب، قد دخلت ميدان إصدار المجلات مبكرًا (مقارنة بمثيلاتها



من دور النشر التى تفرغت للكتاب وحده فقط)، ولكنها اقتصرت فى ذلك على مجالها الأصلى، وهو الثقافة. فأصدرت الدار مجلة ثقافية شهرية، هى مجلة «الكتاب»، وصدر العدد الأول منها فى نوفمبر سنة ١٩٤٥م، أما عددها الأخير فصدر فى يونيو سنة ١٩٥٣م، أى ظلت تصدر نحو ثمانى سنوات (سبع سنوات وتسعة أشهر على وجه الدقة)، وصدر منها نحو تسعة وسبعين عددا.

هذه الدورية الثقافية الجديدة التى صدرت تحت شعار «مجلة شهرية للآداب والعلوم والفنون»، قُدر لها وخلال الفترة التى ظهرت فيها أن تلعب دورًا ثقافيًا رفيعًا ومتميزًا بفضل إدارة تحريرها التى كان يترأسها «عادل الغضبان»، ومنذ عددها الافتتاحى استطاعت المجلة أن تكون فى الصف الأول من المجلات الثقافية التى كانت تزخر بها تلك الفترة؛ فترة خصبة ومزدهرة بالعديد من الدوريات الثقافية المتخصصة، تكفى الإشارة إلى مجلة «الرسالة» التى كان يرأسها أحمد حسن الزيات، ومجلة «الثقافة» التى كان يرأس تحريرها أحمد أمين، ومجلة «الكاتب المصري» التى كان يرأس تحريرها «طه حسين».

كانت مجلة «الكتاب» التى قام على تحريرها «عادل الغضبان»؛ مجلة راقية تمثل الجانب الأصيل والرصين من الثقافة العربية، وقد ظهرت تقريبا فى نفس التوقيت الذى ظهرت فيه مجلة «الكاتب المصرى» التى كانت تنقل آثار الغرب لتمثل جانبا آخر من جوانب المعاصرة والحداثة الثقافية فى ذلك الوقت، وأراد الغضبان لمجلة «الكتاب» أن تكون منبرا عاليًا ورصينا للأدب الرفيع، وساحة أدبية مفتوحة لكل أعلام الشرق والغرب، وفتح للنقد صفحات واسعة. فأدى بذلك للثقافة العربية أعظم خدمة.

وكانت «الكتاب» آية فريدة بين المجلات الثقافية العربية فى صورتها الجميلة وذوقها الرفيع وتنوعها الثقافى الواسع وأبدت



اهتماما كبيرا بالفن التشكيلى العالمى، وحرصت على نشر لوحات ملونة من روائع الإبداع الإنسانى فى هذا المجال، كذلك حرصت «الكتاب» على الجمع بين الثقافة العصرية والتراث العربى، وكانت هذه المجلة البديعة تمثل جامعة عربية ثقافية، فكانت تنشر فى أعدادها الشهرية مقالات ودراسات وقصصا وقصائد لمختلف الأقلام من مصر وسائر أنحاء الوطن العربى، ومن يراجع أعداد هذه المجلة يشم فيها عطر العروبة، ويشهد مدى تركيزها وعمق دعواتها وآرائها النوعية فى كون العرب فى العقل والوجدان هم أمة واحدة، وإن تعددت الأقطار وتنوعت البلدان واشتدت ضربات الأعداء.

صدر العدد الأول من المجلة فى أول نوفمبر من عام ١٩٤٥م، وتضمن مواد متنوعة تغطى فى موضوعاتها معظم المبادئ الستة التى ظهرت فى خطتها، واشترك فى تحرير هذا العدد الأول كل من: «عباس محمود العقاد، أحمد زكى، شفيق جبري، زكى حسن، أحمد خاكى، هدى شعراوى، عائشة عبد الرحمن، أحمد شاكر، توفيق الحكيم، إسماعيل مظهر، المازنى، عبد الوهاب عزام، على الجارم، وآخرين». وظهرت فى العدد بوضوح براعة استهلال ممتازة، وتبويب دقيق، واختيار الموضوعات بعناية فائقة، وتسلسل فنونه مما يقدم المثل الراقى للصحافة الأدبية الممتازة، واتجاه «عادل الغضبان» فى هذا الميدان، هو اتجاه انفرد به بين النظراء.

وصدّر الناشر العدد الأول بكلمة أشار فيها إلى رسالة الفكر السامية وجهود دار المعارف فى نشر الفكر وحمل رسالته، وكيف أن «الشرق العربى جلا الله له اليوم آفاقا جديدة يستشف من ورائها سبل الحق والحرية والكمال»، وكيف أنه يحتاج إلى قادة الفكر فى توجيهه، وأن قادة الفكر يحتاجون إلى مجلة، وهذه هى الكتاب التى شاءت الدار «أن يكون لها يد فى تمكين



أعلام مصر وجاراتها من توجيه الشعوب العربية إلى توطيد دعائم سيادتها عن طريق الرفيع العالى من العلوم والآداب والفنون».

قالوا عن مجلة «الكتاب»

يقول الأديب السورى المعاصر «فاضل السباعى»: «واظبت على قراءة مجلة «الكتاب» الراقية طوال المرحلتين الإعدادية والثانوية من دراستى، لم يفتنى منها عدد. وزاد اهتمامى بها بعد أن غدوت طالبا فى جامعة القاهرة، وقد حرصت على زيارة دار المعارف، وتعرفت على رئيس تحرير المجلة الشاعر «عادل الغضبان»، الذى رأيته بشوش الوجه وذا عينين زرقاوين. وهو سوريّ حلبى متمصر».

ويقول الأستاذ «عبد الفتاح أبو مدين» فى افتتاحية محاضرة له عن «عادل الغضبان» ومجلة «الكتاب» والدور الذى لعبه أثناء رئاسته لتحريرها: «للأستاذ «عادل الغضبان» مواهب كثيرة، تجلت فى نتاجه الحافل نثراً شعراً، فقد كان كاتبا مجيدًا، وناقدا فاضلا، وقصاصا مبدعا، وشاعرا عرف بالجودة والاتقان، ولكن أبرز نشاطه قد تجلى فى مجلدات مجلة «الكتاب»، التى أشرف على إصدارها وتحريرها قرابة السنوات الثمانى من سنة ١٩٤٥م إلى سنة ١٩٥٣م فسدت فراغًا كبيرًا فى مضمار تفوقها الأدبى والعلمى، لذلك رأيت أن يكون حديثى خاصا بأثره البارز فى تحرير هذه المجلة، وإنه لأثر عظيم..!».



الفصل الرابع:

سلاسل دار المعارف.. سلاسل من ذهب

سلاسل من ذهب أصدرتها دار المعارف للثقافة العربية خلال الأربعينيات والخمسينيات والستينيات من القرن الماضى، اقترح إنشاءها عمالقة الفكر والأدب، واضطلع بتنفيذها خيرة رجال دار المعارف..

(١) مولد سلسلة «اقرأ»



طه حسين

بهذا الفعل الجميل (اقرأ) تدعوك دار المعارف إلى قراءة تراث هذه السلسلة العريقة بأقلام كبار كتابنا لتعيش معهم كما عاش الآباء والأجداد وتكون فى مكتبتك موسوعة متفرقة فى فروع المعرفة المختلفة...!

(من مقدمة السلسلة على أغلفة كتبها الأولى)

فى شهادته التى كتبها عقب وفاة طه حسين فى آخر أكتوبر من عام ١٩٧٣م، كتب المرحوم "شفيق نجيب مترى" صاحب دار المعارف آنذاك، تحت عنوان (أيام مع طه حسين):

"ومن أيامه معى يومٌ طرحت فيه أمامه فكرة سلسلة من الكتيبات تصدر مرة كل شهر، زهيدة الثمن رفيعة المستوى، مؤلفة غير مترجمة، بأقلام كتاب من كل طرف من أطراف الوطن العربى، يقرؤها العرب فى كل رجا من أرجاء الوطن العربى.



كان ذلك فى يوم من أيام عام ١٩٤٢م، فانطلق، رحمه الله، بما معناه: إن العرب الذين نراهم اليوم منقسمين، ونرى أهواءهم شتى، لن يجمع كلمتهم - يوم تجتمع - إلا نسيجٌ فكرى متجانس، تنسج خيوطه أقلام كتابهم جميعًا، فيشترك فى قراءة آثار أقلامهم قراء العربية قاطبة.. بمثل هذا ستجتمع كلمتهم يوما بفضل الله.

أصدر سلسلتك يا شفيق، وسمها «اقرأ»..

وقد أتحفها بكتابه الأول «أحلام شهرزاد» فكان فاتحة الخير العميم والبركة الشاملة"..

هكذا ولدت سلسلة «اقرأ»، أقدم وأعرق بل أول سلسلة كتب جماهيرية، فى مصر والعالم العربى. ويقدر لها أن تكون أهم سلسلة من الكتب الثقافية الرفيعة ويكتب لها الانتشار والذيوع لا فى مصر وحدها بل فى أ نحاء العالم العربى كله. ومنذ كانت فكرة تجول فى خاطر صاحب الدار "شفيق مترى" عام ١٩٤٢م، وحتى ظهر أول كتبها فى ١٩٤٣م، عمل صاحب الدار بمعاونة محررها الأول عادل الغضبان، وبتشجيع ودعم هائل من العميد "طه حسين"، على التحضر والاستعداد الجيد لتنفيذ المشروع.

وفى فبراير من عام ١٩٤٣م، أخرجت دار المعارف سلسلة كتبها الشهيرة «اقرأ»، وانتقت من بين ألمع نجوم الفكر والثقافة فى العالم العربى آنذاك: "طه حسين وأحمد أمين والعقاد وعلى الجارم وآخرين"، لجنة مكرسة لقراء الكتب المرشحة واختيار ما يصلح منها للنشر، وتكون مسؤولة عن السلسلة وكتبها. واستهلت السلسلة بكتاب «أحلام شهر زاد» "لطه حسين"، الذى كتب فى مقدمته للكتاب "عنوان هذه السلسلة خير ما يوجه إلى الأفراد والجماعات بل هو خير ما وجه إلى الإنسان منذ تحضر حتى الآن".



على الجارم

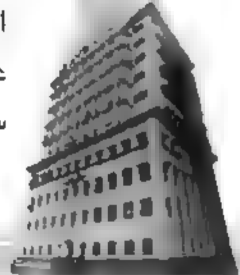


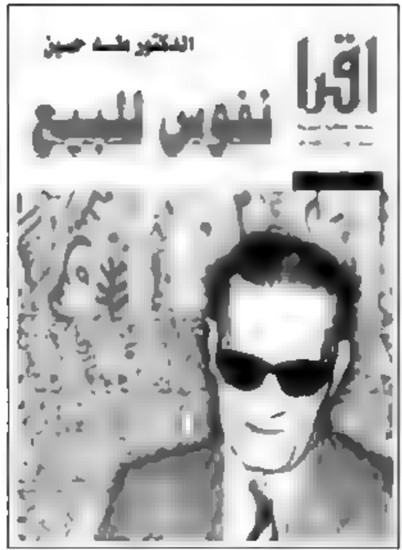
تم تدشين «اقرأ» التى "تصدرها دار المعارف بمصر فى طباعة أنيقة بمعاونة حضرات الدكتور طه حسين بك والأستاذ عباس محمود العقاد، والأستاذ فؤاد صروف"، وكتب محرر الدار يُعرف بها "سلسلة كتب شهرية تعمل على تيسير المطالعة الممتعة النافعة وإدخالها إلى كل منزل فى كل مدينة وقرية، أشبه بجامعة شعبية بما تقدمه إلى الشباب والشيوخ من مختلف ألوان الثقافة وصنوف المعرفة. نواة صالحة لإنشاء مكتبة زهيدة الثمن عظيمة الفائدة فى كل منزل يستفيد منها الشباب والشيوخ على السواء".

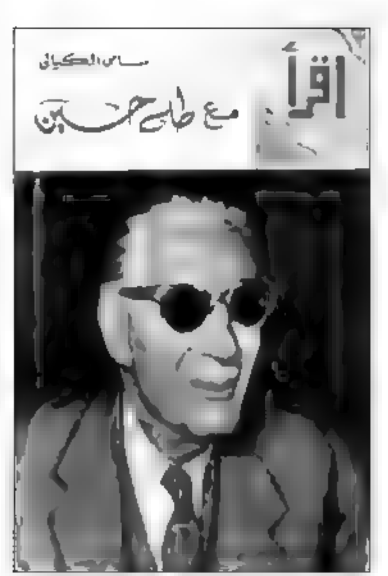


كان صدور سلسلة ثقافية شعبية، وجماهيرية، للمرة الأولى، اجتمعت لها هذه الصفوة حدثا "جللا"، تابعه عموم القراء فى العالم العربى أجمع، واستهل تقليدا عظيما، بأن يقوم كبار الكتاب والمفكرين بالتوجه مباشرة إلى "القارئ" العادى، القارئ غير المتخصص، الذى يبتغى المعرفة المبسطة التى تجذبهم إلى المزيد، ومن خلال كتب هذه السلسلة قدم هؤلاء الكبار إحاطة موضوعية، دقيقة وعميقة، لعديد من الموضوعات والقضايا التى لا يستغنى عنها "مثقف" عصرى.

والمطالع لإنتاج هؤلاء العلماء وقادة الفكر والبيان وأعلام الثقافة فى مصر والعالم العربى، فى كتبهم التى كانت تصدر عن السلسلة فى قطع صغير أنيق وعدد محدود من الصفحات، سيكتشف من الصفحات الأولى أنهم لم يقصدوا مخاطبة قارئهم







بـأى لون من ألوان التعقيد أو الإغراق فى مصطلحات وتفاصيل لا تهم سوى المتخصصين، كانت غايتهم "تثقيفية" فى المقام الأول، تقديم وجبات شـهية من ألوان وصنوف مختلفة من المعـارف والفنون والآداب ليضعوها أمام الراغبين من الشباب والقراء، يفتحون لهم أبواب المعرفة و يحثونهم على طلب المزيد. هذه الغاية الجليلة تتضح من الافتتاحية التى كتبها "طه حسين" للسلسلة الناشئة، يقول:

"إن الذيـن عُنـوا بإنشـاء هذه السلسـلة ونشـرها، لم يفـكروا إلا فى شـىء واحد، هو نشـر الثقافة من حيث هى ثقافة، لا يريدون إلا أن يقـرأ أبناء الشـعوب العربية، وأن ينتفعـوا وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الاسـتزادة من الثقافة، والطمـوح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التى نحياها".

أمـا برنامـج السلسـلة وطموحهـا والغـرض منهـا، فعرضـه "طه حسين" فى الافتتاحية المشار إليها، إذ يؤكد بوضوح ونصاعة أسـلوبه الجميـل أن "إنشـاء هذه السلسـلة من الكتـب القصيرة اليسـيرة الرخيصة، جاءت ليسـهل شـراؤها وتهـون قراءتها ويقرب الانتفـاع بها والاسـتمتاع بما فيها ولا يشـق ثـمنها على أوسـاط



الناس ولا فقرائهم. ومثل تلك السلاسل جهد من الجهود التى تبذل فى سبيل نشر الثقافة وترقية الشعب وإزالة الفروق بين الطبقات".

ويوضح "طه حسين" أن النية فى تلك السلاسل وأشباهها "أن تكون على يسرها وقربها متنوعة أشد التنوع وأنفعه؛ فهى تنشر المؤلفات الحديثة كما تنشر الآثار القديمة وهى تنشر الآثار التى تؤلف كما تنشر الآثار التى تترجم. وهى تنشر من هذا كله فى كل فرع ممكن من فروع الإنتاج العقلى: فى الأدب الإنشائى وفى الأدب الوصفى، فى العلم الخالص وفى العلم التطبيقى، فى السياسة. فى التاريخ، فى العمران والاجتماع، فى كل لون من ألوان هذا النشاط الذى يجعل العقل الإنسانى منتجا فى جميع فنون المعرفة".

وسيدهش القارئ الكريم عندما يعرف أن هيئة تحرير السلسلة كانت تتكون من الأعلام السابق ذكرهم (طه حسين وأحمد أمين وعلى الجارم وعباس محمود العقاد وآخرين)، وأن اسمها «اقرأ» جاء باقتراح من الرائد الكبير «أحمد أمين». وكتب لها الكلمة الافتتاحية «طه حسين»، وصدر أول أعدادها بعنوان «أحلام شهرزاد» «لطه حسين»، لتتوالى بعدها أعداد رائعة منها: شاعر الغزل «لعباس محمود العقاد»، «وجميل بثينة» له أيضا، وعود على بدء «لإبراهيم عبد القادر المازنى»، وشاعر «ملك لعلى الجارم»، ومذكرات دجاجة «لإسحق موسى الحسينى»، والمذاهب السياسية المعاصرة «لعلى أدهم».. وهلم جرا.



كان طموح القائمين على السلسلة، وبخاصة «طه



حسين»، هو تيسير سبل المعرفة الحديثة لكل الراغبين فيها، وخاصة من الشباب، وأن تكون متاحة فى كل مكان فى القاهرة والمحافظات. وكانت دار المعارف فى ذلك الوقت تتصدر مؤسسات النشر المصرية والعربية بامتلاكها أكبر شبكة توزيع وتسويق داخل مصر وخارجها على السواء.

لكن وراء هذا السبب الظاهر تحليل عميق لأزمة القراءة بشكل عام واتساع الفجوة بين المادة المقدمة للمتخصصين وبين تلك التى تقدم لعموم القراء. عرض «طه حسين» جانبا منه فى مقدمته، بقوله «وليس كل ما ينتهجه العقل الإنسانى ميسر القراءة للناس، فهناك الممتازون فى الثقافة ولكن هناك أصحاب الثقافة المتوسطة وأصحاب الثقافة المتواضعة. وليس من اليسير أن يسيغ أولئك وهؤلاء خير ما يثمره العقل الإنسانى من الإنتاج. فلا بد إذن من أن يأخذوا منه بحظ ما، لا بد من أن يرتفعوا إليه شيئا ومن أن يهبط شيئا، حتى يكون هذا اللقاء الخصب الذى يعم به نفع العلم والفلسفة والأدب».

هكذا، ومنذ البداية، كانت الغاية واضحة والهدف محدد والآلية متاحة. كان هؤلاء الرواد من مشعلى العقول، يقرأون ليفهموا أنفسهم أولا والعالم ثانيا، ومن ثم يستطيعون أن يقدروا موقعنا من هذا العالم. ماذا نحن فاعلون؟ وماذا يمكن أن نقدم للبشرية مثلما قدم الآخرون؟.. اختط كل منهم طريقه، حسب رؤيته ومجال تخصصه، والدوائر التى يمكن أن يمارسوا فيها أدوارهم التنويرية. بدءا من قاعات الدروس داخل أسوار الجامعة، يعلمون طلابهم ويغرسون فيهم بذرة السؤال وجرثومة المعرفة، وليس انتهاء بالكتابة على صفحات الجرائد والمجلات. لكنهم فى الوقت ذاته، كانوا يعون جيدا أن هذا ليس كافيا، كانوا ضد الدوائر المغلقة، آمنوا بأن المعرفة حق للجميع، وأن دورهم الأول والأساسى هو «التثقيف»، الوصول إلى الناس لا التعالى عليهم



واحتقارهم، الارتقاء بملكاتهم وقدراتهم وتوسيع مجال استجابتهم لكل أنواع العلوم والثقافات والفنون والآداب.

لن تجد واحدًا من الأسماء المذكورة فى هذه الفترة لم يتوجه لقارئ مفترض، يبحث عنه مثلما يبحث هو الآخر عنه، كتبوا فى كل المجالات والفروع بقدر ما تسنى لكل منهم من معرفة وتحصيل، لكنهم دائمًا لم يغفلوا حق الذين يرتقون الدرجات الأولى على سلم المعرفة. يضعونهم نصب أعينهم، يبحثون عن الوسائل والوسائط المناسبة للتواصل معهم.





بعد عامين.. وقائع احتفال

بعد النجاح الساحق الذى حققته مطبوعاتها، والرواج الذى فاق حدود التوقعات لأعداد «اقرأ»، احتفلت "دار المعارف" فى فبراير من العام ١٩٤٥م، بمرور عامين على ظهورها، واحتشد فى هذا الحفل مشاهير الكتاب والشعراء والأدباء وأعلام العصر فى الصحافة والفكر من مصر والعالم العربي، يتقدمهم سعادة «يوسف ذو الفقار باشا»، بحسب ما نوهت جريدة الأهرام فى عددها الصادر صباح الجمعة الموافق ١٦ من فبراير ١٩٤٥م.


الملك فاروق الأول

كان الحفل باهرًا ومبهرًا، وألقى «شفيق نجيب متري» صاحب الدار كلمة رحب فيها بالحاضرين ونوه برسالة (اقرأ) بين مصر والأقطار العربية وختمها بالدعاء للملك (الملك فاروق الأول آنذاك). بعدها أنشد الأستاذ «على الجارم بك»، قصيدة من عيون الشعر، وأعقبه الأستاذ «عباس محمود العقاد» فألقى كلمة باسم أعضاء لجنة «اقرأ».

كان ذلك الحدث فريدا بكل المقاييس، وشهد هذا الحفل الباذخ مباراة أدبية رائعة بين النثر والشعر، تم الإشادة فيها بدور السلسلة عربيًا وأثرها فى توثيق الروابط الثقافية بين الناطقين بالضاد فى مصر وجاراتها الشقيقات. وعندما صدرت الصحف فى اليوم التالى للاحتفال تسجل وقائعه وتغطى تفاصيله، نشرت إحداها صورة لأعضاء لجنة (اقرأ) وهم يقومون بفرز الأصوات لإعلان الفائز بجائزة أحسن كتاب لـ (اقرأ) وكانت هذه اللجنة تتكون من: «شفيق نجيب مترى»، «ويوسف مشاقة «(المدير العام المسؤول عن دار المعارف)، والدكتور «طه حسين. وأنطون الجميل، وعباس محمود العقاد، وفؤاد صروف» (وهذا الأخير كان



واحدا من اللبنانيين الذين أسهموا فى نهضة الصحافة المصرية حين تولى رئاسة تحرير مجلة «المقتطف» فى القاهرة عقب وفاة عمه يعقوب صروف).


شفيق نجيب مترى

وتورد صحف هذه الفترة باهتمام كبير تفاصيل اجتماع اللجنة وما تمخضت عنه أعمالها، وفيها وقائع وتفاصيل شديدة الطرافة والمتعة، وتورد إحداها ما يلي:

«بتاريخ ١٥ فبراير سنة ١٩٤٤م اجتمعت لجنة الاستفتاء فى دار مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر بحضور حضرات الأساتذة: الدكتور «طه حسين بك، وعباس محمود العقاد، وفؤاد صروف»، عن لجنة «اقرأ»، والأستاذين «شفيق نجيب مترى» صاحب مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر و«يوسف مشاقة» مديرها. وقد صار إحصاء وفرز الأصوات الواردة فبلغ عددها ٢٧,٩ بنسبة ١٨ فى المائة من النسخ التى توزع شهريا نال الكتاب رقم ٨ «مذكرات دجاجة» للدكتور «إسحق موسى الحسينى» بالقدس، باستحسان أكبر عدد من القراء، وكان ذلك بنسبة ٣١ فى المائة من مجموع الأصوات الوارد فاستحق جائزة «اقرأ» لسنة ١٩٤٣م وقدرها سبعون جنيها مصريا. وفاز حضرة السيد "مصطفى البارودى" بمعهد الحقوق العربى بدمشق بالاقتراع السرى من بين القراء الذين استحسنوا الكتاب الفائز فاستحق الجائزة المخصصة لذلك وقدرها ثلاثون جنيها مصريا».

خلال الفترة من ١٩٤٢م حتى ١٩٦٣م ثم ما بعدها، توالت أعداد السلسلة التى شكلت وجدان وثقافة أجيال عدة، على مدار عشرات السنين، ولعبت دورا خطيرًا فى تلبية شغف وفضول قطاعات واسعة من الشباب فى مصر وخارجها فى «الثقافة» والآداب والفنون والعلوم، بل كانت ملهمة للعديد من دور النشر والمؤسسات الخاصة والحكومية فى احتذاء التقليد وإخراج سلاسل مشابهة تسعى للحاق بالنجاحات التى حققتها «اقرأ» والشهرة الكبيرة التى حازتها على امتداد العالم العربى كله، منها على سبيل المثال سلاسل دار الهلال: (المجلة الشهرية) و(كتاب الهلال) و(روايات الهلال)، وغيرها.

وبالنظر إلى الأعداد التى راكمتها السلسلة خلال ما يزيد على سبعين عاما من انطلاقتها، سيجد الباحث المدقق أنها مثلت بحق «دائرة معارف» حقيقية، وموسوعة غنية مترامية الأطراف متعددة المجالات، وراوحت كتبها بين القيم الروحية والدينية وتعاليم الإسلام ومبادئه، وبين النزعات والمذاهب الفكرية والسياسية والفلسفية الحديثة والمعاصرة، واشتملت كتبها على المعالم الكبرى فى التاريخ العربى والإسلامى وأعلامه وقياداته الفذة فى مضارب البطولة والمعارك والحروب. كما اشتملت أيضا على طائفة مختارة ومتنوعة من أعلام الفكر العربى والفلسفة الإسلامية والعلوم الطبيعية فى القرون الغابرة: جابر بن حيان، ابن سينا، ابن الهيثم.

وعنيت كتب كثيرة من السلسلة عناية خاصة بأعلام الأدب العربى وشعرائه، خاصة من شعراء الحب المثالى أو ما عرفوا بالعذريين؛ أو غيرهم من الشعراء الغزليين الحسيين؛ ومنهم: عمر بن أبى ربيعة، جميل بثينة.

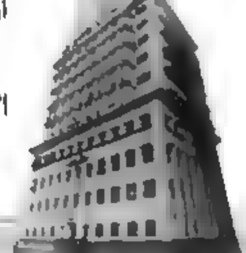


وفى الثقافة العلمية المعاصرة، نشرت السلسلة كتبا كثيرة فى تاريخ العلوم ونشأتها، الفلك وتاريخه، الصيدلة قديما وحديثا، علوم البحار، نشأة الكون، غرائز الحيوان، الغبار الذرى، عصر الإلكترونيات.. إلخ مما يتصل بموضوعات العلم الحديث وقضاياه.

وتحتل الفنون والآداب العالمية: موسيقى ومسرح وتشكيل ورقص، مساحة شاسعة من أعداد اقرأ، وركزت فى كثير من كتبها على تعريف القارئ العربى بنجوم الكتابة فى الآداب العالمية: هوميروس، دانتى، ميلتون، شكسبير، جوته، اللورد بايرون، فيكتور هوجو، جان جاك روسو، فولتير، برنارد شو، مكسيم جوركى، فيدور دويستوفيسكى، تولستوى، طاغور، وآخرون.

يقول المرحوم. دكتور شوقى ضيف فى كلمة له عن «اقرأ»: «ولا تكاد تجد كاتبا مصريا كبيرا أو أديبا مصريا مشهورا إلا شارك فى بعض أعدادها: «طه حسين، أحمد أمين، عباس العقاد، إبراهيم المازنى، على الجارم، توفيق الحكيم، يحيى حقى، محمد فريد أبو حديد، محمود تيمور، عبد الوهاب عزام، فتحى رضوان، محمد زكى عبد القادر، سهير القلماوى، عائشة عبد الرحمن، على أحمد باكثير، عبد العزيز كامل، حسين مؤنس، أنيس منصور، إبراهيم زكى خورشيد، وغيرهم كثيرون»..

ويقول المرحوم «يوسف خليف»، أستاذ الأدب العربى بكلية الآداب جامعة القاهرة: «لقد استطاعت هذه السلسلة على امتداد



نصف القرن من الزمان أن تحقق إنجازين كبيرين لهما دورهما المؤثر فى حياتنا الثقافية؛ فهى من ناحية قدمت هذه الخلاصة الميسرة من الفكر الإنسانى والثقافة العالمية لكل من يطلب هذا الفكر ويسعى إلى هذه الثقافة، كأنها خلية من النحل يجمع عصارات الزهر ليقدمها عسلا مصفى، شرابًا مختلفا ألوانه فيه شفاءً للناس. وهى من ناحية أخرى، أكدت أهمية الكتاب فى زحمة الحياة المعاصرة، وفى مواجهة تحديات العصر، حين استطاعت أن تحقق هذه الموازنة البارعة وهذا الانسجام الذكى بينه وبين سرعة إيقاع الحياة التى نحياها، واضطراب نبض العصر الذى نعيش فيه، وتشتت معطياته التى نتعامل معها».

قالوا عن «اقرأ».. آراء بعض كبار الأدباء فى السلسلة:

«مشروع جليل القدر كبير الفائدة عظيم الأثر فى تغذية الأدب والثقافة»..

«زاد فكرى فى مختلف أبواب العلم والأدب يستسيغه الجمهور وترضى عنه الخاصة»..

«هذه السلسلة جهد فى سبيل نشر الثقافة وترقية الشعب وإزالة الفروق بين الطبقات»..

«تحية لدار المعارف التى قدمت هذه السلسلة المتواصلة من روائع الفكر والثقافة والفن والأدب، وتحية لهذه السلسلة فى عيدها»..

يوسف خليف.







(٢) «ذخائر العرب»... عيون التراث العربى



بإجماع عشاق التراث العربى ومتخصصيه، فإن سلسلة «ذخائر العرب» التى أصدرتها دار المعارف فى أواخر أربعينيات القرن الماضى، هى السلسلة الأعرق فى مصر والعالم العربى التى اهتمت بنشر التراث العربى نشرًا راقيًا، يقوم على أسس علمية غاية فى الدقة والعمق، واتبعت فى إخراج الكتب أرفع ما وصل إليه علم تحقيق التراث على يد شيوخه الأفذاذ العظام، و«تولت دار المعارف بمصر إخراج كتب السلسلة فى قطع متميز وطباعة فاخرة وجودة لا تنافس»، كما كان يشار إلى صنيع الدار فى ذلك الوقت على أغلفة الكتب والمجلات.

ومنذ صدر الكتاب الأول فى «ذخائر العرب»، احتلت مكانة لم تبلغها أى سلسلة أخرى أو أى إصدار آخر فى مجال نشر التراث، ولا شك أن تلك السلسلة التى أصدرتها "دار المعارف" تعتبر أرقى وأعظم سلسلة تراثية عربية ظهرت حتى الآن، ولا يكاد ينافسها سلسلة أخرى سوى «الذخائر» التى أصدرتها الهيئة العامة لقصور الثقافة فى منتصف التسعينيات من القرن الماضى، وهى قياسا بالعمر والتاريخ أحدث طبعا من «ذخائر العرب»، وإن كانت لا تقل عنها فى قيمة ونبل ما أخرجته من كتب التراث العربى خاصة خلال الفترة التى تولى رئاسة تحريرها العلامة الكبير الدكتور عبد الحكيم راضى.



ويروى المرحوم "شفيق مترى"، صاحب دار المعارف والمشرف العام على مطبوعاتها، فى معرض حديث له عن المرحوم الدكتور طه حسين. فيقول: «ومن أيام الدكتور العميد معى يوم سعيت إليه فيه لأفضى بين يديه بخاطر كثيرا ما جال فى فكرى واختلج فى صدري، وأنا لا أزال أضطربُ فيه بين إقدام وإحجام. «ذخائر العرب» التى خلفها الآباء والأجداد، ووقع بعضها فريسة فى بعض الأيدى، فأخرجوها للناس رخيصة مهلهلة، فلا هى موثقة محققة، ولا هى فى ثوب قشيب. وكل ما كان يعنى به أحدهم أن يصدر الكتاب منها وعليه عنوانه ذو الرنين واسم مؤلفه المجيد، فينفد الكتاب فى أيام..

أفلو حققت «دار المعارف» بعض هذه الذخائر النفيسة، وأصدرتها فى الثوب الذى يتناسب مع نفاستها. فأنفقت فى سبيل ذلك ما أنفقت ترى لو أنها فعلت ذلك، فهل تجد من القراء من يقتنيها بعد أن تعودوا الحصول عليها مقابل ذريهمات معدودات؟

أنصت إلى إنصاتا جميلا، وكان رحمه الله يحسن الإنصات، ثم تدفق بما كان يسعدنى أن أنقله اليوم بنص عباراته:

أهى رسالة أم تجارة؟ اسمع يا أستاذ شفيق!

استقبل الرسالة استقبالك الشمس، واسع فى بلوغها ما استطعت إلى ذلك سبيلا. حينئذ سيتبعك رزقك كما يتبعك ظلك، لا يستطيع منك فكاكا.

أما من استدبر الرسالة وسعى وراء الرزق، فسيبقى حياته يلهث وراء ظله ليبلغه وما هو يوما ببالغه..



أصدر يا شفيق ذخائر العرب محققة موثقة على بركة الله»..

وتلاقت خواطر شفيق مترى الصادقة وحماسة "طه حسين" الحارة بمقترح إنشاء سلسلة لنشر كتب التراث العربى محققة وإخراجها فى ثوب قشيب، تقدم به المحقق الكبير "عبد السلام هارون" سنة ١٩٤٢م، وذلك بعد أن اشترك مع قريبه العلامة "محمود محمد شاكر" فى إخراج وتحقيق أهم وأقدم مجموعتين شعريتين عربيتين تعودان إلى العصر الجاهلى، وهما «الأصمعيات» «لعبد الملك بن قريب الأصمعى». و«المفضليات» للمفضل الضبى، وحققتا نجاحا كبيرًا، وتخطفتها الأيدى، وطبع منها أكثر من طبعة فى فترة وجيزة.

ويروى "عبد السلام هارون" بنفسه قصة ميلاد «ذخائر العرب» كما سجلها فى كتابه «التراث العربى» (سلسلة كتابك، دار المعارف، ١٩٧٨م، ص ٦١)، يقول هارون:

«وقد بدأت دار المعارف نشاطها فى إحياء التراث العربى سنة ١٩٤٢م، حين فكرتُ أنا وأخى العلامة المغفور له الشيخ أحمد شاكر فى نشر مجموعات عيون الشعر سميناها «ديوان العرب». وبدأنا فى نشر «المفضليات»، ثم «الأصمعيات». ثم اقترحنا على الدار أن تخصص نشرا منظما لعيون التراث العربى، فسرعان ما استجابت لهذا الاقتراح وقامت بتنظيم تنفيذه».


عبد السلام هارون

وفى سبيل تنفيذ هذا المقترح، أعلنت «دار المعارف» فى ذلك الوقت عن مسابقة لتسمية هذا المشروع، ففاز به عنوان «ذخائر العرب» يشترك فى تحقيقها علماء الشرق الغرب، وكان باكورة هذه المجموعة كتاب «مجالس ثعلب» فى مجلدين، بتحقيق



«عبد السلام هارون» و«إصلاح المنطق» لابن السِّكِّيت بتحقيقه مع الشيخ «أحمد شاكر»، والطبعة الأولى من «جمهرة أنساب العرب» لابن حزم تحقيق أ. ليفى بروفنسال.

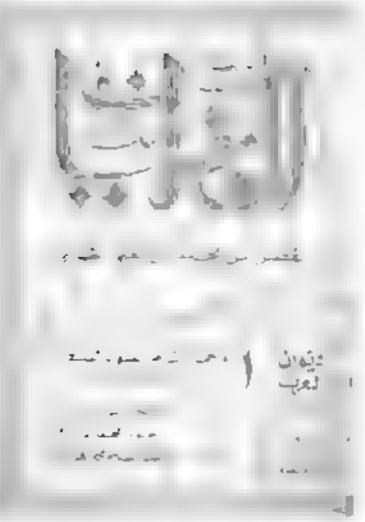
ويتابع هارون «وتوالى بعد ذلك نشر طائفة كبيرة من تلك الذخائر يلغت الآن ٥٤ كتابا؛ منها ما هو فى أكثر من عشرة مجلدات، ومنها ما أعيد طبعه أكثر من خمس مرات. ولا تزال تلك المجموعة فى تزايد و نجاح مطرد، نرجو له المضى فى نشاطه واتساعه».

كتب المرحوم «عبد السلام هارون» هذا الكلام فى النصف الثانى من سبعينيات القرن الماضى، وإذا كانت السلسة قد ظهرت إلى الوجود فى ١٩٤٨م فإنها وخلال الفترة من ٤٨ إلى ٧٨ (أى خلال ثلاثين عاما) قد أخرجت ٥٤ كتابا/ عنوانا من ذخائر التراث العربى، ولو حسبنا عدد الأجزاء التى كان يتكون منها بعض الكتب، وهو الأغلب، وكان يصل إلى عشرة أجزاء فى بعضها، لاكتشفنا بسهولة أن ما طبعته وأخرجته «دار المعارف» خلال تلك الفترة يتجاوز المائة كتاب محققا ومدققا فى إطار سلسلة (ذخائر العرب).

ووفقا لقائمة الكتب الثقافية والجامعية لدار المعارف (سنة ١٩٩٣م)، فإن عدد الكتب التى صدرت فى سلسلة «ذخائر العرب» بلغ ٦٥ كتابا، كان آخرها «ديوان أبى الطيب المتنبى» لأبى العلاء المعرى، فى أربعة مجلدات ضخام، من تحقيق د. "عبد المجيد دياب".

ويظهر من حديث "هارون"، كيف كانت تأتى المبادرات العظيمة وكيف كان يستجاب لها، حين كان يقوم على مؤسسات النشر العريقة (العامة والخاصة) فى ذلك الزمن؛ أفراد من عينة «شفيق مترى وعادل الغضبان»، فقد كانا مثقفين كبيرين قبل أن يكونا مسئولين عن دار لنشر الكتب. هم فى البدء والمعاد أصحاب رسالة، مثقفون حقيقيون لديهم ميزان من ذهب يزنون به الأفكار والرجال والمشاريع، يتكلمون قليلا





ويعملون كثيرا، بياناتهم وخطاباتهم تتحدث من خلال إنجازاتهم، لهذا تركوا وراءهم من الآثار والإنجازات العظيمة التى تتحدث عنهم وتومئ إليهم، وتتقطع نفوسنا حسرات عما جرى وكان!

ولم يكن اختيار الكتب التى سيتم نشرها وتحقيقها فى السلسلة عشوائيا، بل تم إسناد الأمر إلى لجنة تشرف على السلسلة وتختار عناوينها وتكلف كبار المحققين بالعمل على إخراجها. وكانت هذه اللجنة تتكون من: الدكتور طه حسين بك، الدكتور أحمد أمين بك، الأستاذ على الجارم بك، الدكتور عبد الوهاب عزام بك، إبراهيم مصطفى (صاحب إحياء النحو)، الأستاذ الشيخ أحمد محمد شاكر. ومحمد حلمى عيسى باشا» (وزير المعارف العمومية آنذاك)، وكان التعريف الذى اعتمدته الدار ليوضع على أغلفة «ذخائر العرب»، أو حين الإعلان عنها فى أى مطبوعات أخرى كالتالى: «سلسلة تُعنى بإحياء تراث العرب الخالد ونشر نفائسه فى تحقيق دقيق وإخراج فنى بإشراف لجنة من كبار العلماء هم حضرات أصحاب المعالى والعزة والفضيلة..».

كانت الرؤية العامة والعريضة التى تنطلق منها اللجنة فى عملها، وقدمت لها فى باكورة إصدارات «ذخائر العرب» تتلخص فى أن نهضة العالم العربى قد قامت على أساسين خطيرين: أحدهما التراث العربى القديم، والآخر نقل الإنتاج الأوروبى الحديث إلى اللغة العربية. «وليس فى ذلك شىء من الغرابة، فقد قامت نهضة



العالم العربى القديم على هذين الأساسين نفسيهما، فدوّن التراث العربى القديم من جهة، ونقلت آثار الحضارات الأجنبية إلى اللغة العربية من جهة أخرى، ونشأ من ذلك ازدهار تلك الحضارة الإسلامية الرائعة التى لم يصل التاريخ بعد إلى الإحاطة بحقائقها ودقائق تأثيرها فى الحياة الإنسانية العامة».

وبالنظر إلى ما نشر من تراثنا القديم وهو قليل جدا بالقياس إلى ما لم ينشر، «فإنه كان لا بد من تضافر الجهود وتظاهرها على المضى فى إحياء هذا التراث وإذاعة ما لم ينشر منه إلى الآن، وإصلاح ما نشر منه مغلوطا، وتجديد ما نشر منه ثم نفد وقل فى أيدى القراء».

بهذه الطريقة، حددت اللجنة الغاية والهدف من هذه السلسلة، وقدمت أيضا لما سيتم إعادة نشره وتحقيقه فى إطارها، لتؤسس سلسلة «ذخائر العرب»، مسارًا فريدًا ورائعا فى إخراج كتب التراث العربى، شكلا ومضمونا ومنهجا، إخراجا وتدقيقًا، وتتوالى كتبها فى طبعات مدققة أنيقة يضرب بها المثل فى روعة الإخراج، وقمة ما وصلت إليه مناهج تحقيق التراث على يد أفذاذ المحققين من الشيوخ والعلماء الأجلاء؛ مثل الشيخ «أحمد محمد شاكر، وأخيه العلامة محمود محمد شاكر، وعبد السلام هارون، والسيد أحمد صقر، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، وطه الحاجرى». ومن جيل المحققين الأكاديميين المتازين: محمود على مكي، وشوقى ضيف، ومحمد زغلول سلام، وناصر الدين الأسد، وإحسان عباس، وحسين مؤنس، ومحمود الطناحى، وعبد المجيد دياب، وآخرون».


محمود محمد شاكر



ولـك أن تتخيـل عزيـزى القارئ سلسـلة يشـرف عليهـا أسماء بقيمة وقامة هؤلاء الأفذاذ، المسـتوى الرفيـع الذى كانت تخرج به إصدارات «ذخائر العرب»، من اختيار الموضوعات والكتب، ومستوى تحقيقهـا بما بلغتـه من دقة ومطابقة للأصل، وبمـا ألحق بها من مقدمـات وافيـة أو كتب لها خصيصًـا من دراسـات مفصّلة غدت كتبـا كاملة بذاتها ملحقة بالنص المحقق، باتت «ذخائر العرب» نفسـها تراثًا إنسانيًا رفيعًا بما نشـرته وأخرجته ويسرته للباحثين والدارسين ومحبى التراث والعلوم العربية.

ومنـذ الكتـاب الأول فـى السلسـلة وحتـى الكتـاب الأخير، شـهرت وعرفت كتب «ذخائر العـرب» بالدقة المتناهيـة فى إخراج النصوص، ومراحل التصحيح والمراجعة التى يمر بها الكتاب سواء مـن القائمين على نشـره وتحقيقه من كبـار المحققين وكلهم فطاحـل فى علـوم اللغـة العربية والـتراث، أو من الذيـن يـراجعون ويصححون البروفـات من العاملين «بدار المعارف». وفى هذا الشـأن يقـول المرحوم «محمود الطناحـى» فى كتابه «مدخـل إلى تاريخ نشـر التراث العربى» (ص ١٣١):

«وتحـرص دار المعارف على أن تكـون النصوص التى تخرج فى هذه السلسلة مطابقة لعنوانها، كما أنها تحرص علـى أن تخرجها فى أنق صورة. ويعد قسم التصحيح فى دار المعارف من أحسن أقسام التصحيـح فى المطابع العامـة والخاصة». ولقد بلغت سمعة قسـم التصحيح والمراجعة فى «دار المعارف» خلال تلك الفترة شـأوا رفيعا وبعيدا، وكان من يلتحق للعمل به من أصحاب الكفاء والدراية والمواهب الخاصة، وأغلبهم كانوا يسـتكملون دراسـاتهم العليا ويبرزون فى مختلف التخصصات بعد ذلك.

صـدر الكتاب الأول فـى «ذخائر العرب» فـى مجلديـن بعنوان «مجالس ثعلب»، بتحقيق عبد السلام هارون، وهو من نفائس كتب



التراث اللغوى. وقد نال هذا الكتاب عقب صدوره الجائزة الأولى للنشر والتحقيق العلمى فى المسابقات الأدبية التى نظمها مجمع اللغة العربية بالقاهرة عام ١٩٥٠م.

وافتتح كتاب «مجالس ثعلب» نشر طائفة من عيون تراث العرب فى اللغة والبلاغة والنقد خرجت تباعا فى «ذخائر العرب»، ومنها:

«إصلاح المنطق» لابن السِّكيت، «إعجاز القرآن» للباقلانى، «ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن»، «الموازنة» للآمدى، «الإبانة عن سرقات المتنبى» للعميدى، وكتب أخرى.

على أنّ من أجلّ وأعظم ما أخرجته السلسلة من نفائس التراث الشعرى العربى، تلك المجموعة من الدواوين الكاملة أو شروحات لدواوين أعلام الشعر العربى فى عصوره الأولى، نذكر منها على سبيل المثال: «ديوان امرئ القيس» بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، «شرح ديوان صريع الغوانى»، «ديوان البحترى» فى ٥ مجلدات بتحقيق محمد كامل الصيرفى، «ديوان جرير بشرح محمد بن حبيب»، «ديوان الشماخ بن ضرار الذبيانى»، بالإضافة إلى «شرح ديوان المتنبى» المنسوب إلى أبى العلاء المعروف والمشهور بـ«معجز أحمد».



ولا ينسى عشاق التراث ومحبوه تلك النصوص الرائعة من عيون تراثنا النثرى؛ «رسالة الغفران» لأبى العلاء المعرى التى عكفت على تحقيقها ودراستها وإخراجها للناس فى صورتها الأصلية كما كتبها شيخ المعرة الدكتورة عائشة عبد الرحمن،

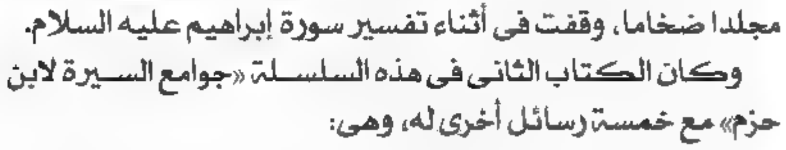


وأيضا رسالته الأخرى الضخمة «الصاهل والشاحج»، كما أخرج المرحوم أحمد أمين النص الأندلسي الفاتن «حي بن يقظان» مع رسائل مشرقية أخرى دارت حول شخصيتي سلامان وأبسال لكل من ابن سينا وابن النفيس..

سلسلة «تراث الإسلام».. رافد عن الذخائر

وقد بدأت دار المعارف في سنة ١٣٧٤هـ إصدار سلسلة أخرى من عيون التراث، يمكن اعتبارها الشقيقة الصغرى لـ «ذخائر العرب»، سمتها «تراث الإسلام». كان الكتاب الأول فيها «تفسير الطبري» أو «جامع البيان عن تأويل آي القرآن» من تحقيق شيخ العربية «محمود محمد شاكر»، وقد خرّج أحاديثه المحدِّث الجليل الشيخ «أحمد محمد شاكر».

صدر الجزءان الأول والثاني من كتاب «جامع البيان عن تأويل آي القرآن» الشهير بتفسير الطبري سنة ١٩٥٤م، لصاحبه أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ)، وكتب على غلافه الخارجي «حققه وعلق حواشيه محمود محمد شاكر، وراجعه وخرج أحاديثه أحمد محمد شاكر»، وقد أصدرت «دار المعارف» منه ستة عشر مجلدا ضخاما، وقفت في أثناء تفسير سورة إبراهيم عليه السلام.



وكان الكتاب الثاني في هذه السلسلة «جوامع السيرة لابن حزم» مع خمسة رسائل أخرى له، وهي:

رسالة في القراءات المشهورة في الأمصار، رسالة في أسماء الصحابة ورواة الحديث وما لكل واحد من العدد، رسالة في تسمية من روى عنهم الفتيا من الصحابة ومن بعدهم، جمل فتوح الإسلام، وأخيرا أسماء الخلفاء المهديين والأئمة أمراء المؤمنين..



وقد حقق هذا الكتاب الدكتور «إحسان عباس، والدكتور ناصر الدين الأسد، وراجعه الشيخ أحمد محمد شاكر».

كبار محققى «دار المعارف»:

من أبرز أولئك المحققين الذين ازدادت بهم سماء مصر عقودا من الزمن، واستضاءت بنورهم صفحات المكتبة العربية فى كل فن - العلامة الراوية المحقق اللغوى الأديب المصرى: "السيد أحمد صقر"، المولود عام: (١٣٣٥هـ/ ١٩١٥م)، والمتوفى بالقاهرة عام: (١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م)، ويعدُ العلامة السيد "أحمد صقر"، رابع أربعة فى مصر، هم أعلام تحقيق التراث ونشره فى عصرهم، يوم كان التحقيق علمًا ورواية، قبل أن يصبح اليوم فنًا وصناعة، الذين دخلوا ميدانه بزادٍ قويٍ من علم الأوائل وتجاربهم، ومدفوعين بروح عربية إسلامية عارمة، استهدفتْ إذاعة النصوص الدالة على عظمة التراث، الكاشفة عن نواحى الجلال والكمال فيه:



أولهم: العلامة المحدِّث "أحمد محمد شاكر" (١٨٩٢م - ١٩٥٨م)، الحائز - بعد وفاته بنصف قرن - على وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى، المُقدَم من رئاسة الجمهورية المصرية.

وثانيهم: شقيقه العلاّمة اللغوى الراوية "محمود محمد شاكر" (١٩٠٩م - ١٩٩٧م)، عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة، والحائز على جائزة الدولة التقديرية فى الآداب عام ١٩٨٢م، والحائز أيضًا على جائزة الملك فيصل العالمية فى الأدب العربى عام ١٩٨٤م.



وثالثهم: العلامة اللغوى "عبد السلام محمد هارون" (١٩٠٩م-١٩٨٩م)، الأمين العام لمجمع اللغة العربية بالقاهرة، والحائز على جائزة الملك فيصل العالمية فى الأدب العربى عام ١٩٨١م.

(٣) مجموعة «نوابغ الفكر العربى»


عباس محمود العقاد

فى عام ١٩٥١م، وبعد ثمانى سنوات من صدور سلسلة «اقرأ»، وثلاث سنوات من صدور «ذخائر العرب»، بدأت دار المعارف فى نشر سلسلة «نوابغ الفكر العربى» التى استهلها "عباس محمود العقاد" بكتاب عن «ابن رشد».

جاءت هذه المجموعة الجديدة "لتقدم نوابغ الفكر العربى فى جميع العصور، فهى تُعنى بالشعراء والكتاب، كما تعنى بالفلاسفة والحكماء، وتتناول أعلام اللغة كما تتناول أعلام التاريخ. يكتب عنهم ويترجم لهم نوابغ الفكر العربى فى العصر الحاضر من كل قطر وبلد عربى. ورأت دار المعارف أن تعهد فى كل بحث من هذه البحوث إلى المختصين به وذوى الخبرة والدراية فيه، فيجولوا فيه ويتبعوه بباب وافٍ للمختار من روائع المترجم له، مفسر المعانى مبين الأغراض»، بحسب ما سجل محرر السلسلة على ظهر أغلفتها المتتابعة.

ومنذ الكتاب الأول وحتى الكتاب الأخير جاءت كتب المجموعة كلها وفق تخطيط محدد يقوم على قسمين؛ الأول يتضمن ثلاثة فصول يعالج أولها العصر الذى ظهرت فيه الشخصية بأركانه الأساسية: الحياة السياسية، والحياة الاجتماعية، والحياة العقلية والثقافية، ويأتى الفصل الثانى ليعالج تفصيلا سيرة العلم المترجم له وأبرز المحطات التى ألمت به، والتفاصيل المهمة



فى حياته. والروافد الفكرية والثقافية التى استقى منها معارفه وشكلت شخصيته ولعبت أثرها فى نتاجه الفكرى والأدبي. وأخيرا يأتى الفصل الثالث ليقدم دراسة مكثفة وعميقة، وموجزة فى الآن ذاته، لأهم إسهامات تلك الشخصية فى مجالها المعرفى أو الحقل الذى برزت فيه وتميزت من خلاله.

بينما القسم الثانى، الذى يحتل تقريبا نصف الكتاب، فمخصص بكاملة لمنتخبات ومختارات من أعمال الشخصية المترجم لها، فإذا كان فيلسوفا أورد مؤلف الكتاب قطعا مختارة من نصوصه ومؤلفاته ليكشف عن لغته وأسلوبه وطبيعة أفكاره والقضايا الأساسية التى شكلت فلسفته ومجمل آرائه. وإذا كان شاعرا، أورد مؤلف الكتاب نماذج من شعره تعرض للأغراض التى تناولها وعالجها وتكشف فى الوقت ذاته عن خصائص أسلوبه الشعرى وجمالياته بشكل عام. وإذا كان مؤرخا تكون المنتخبات فى هذه الحال صورة من كتابته التاريخية ومنهجه ورؤيته للأحداث التى عالجها فى كتبه وأعماله.. إلخ.

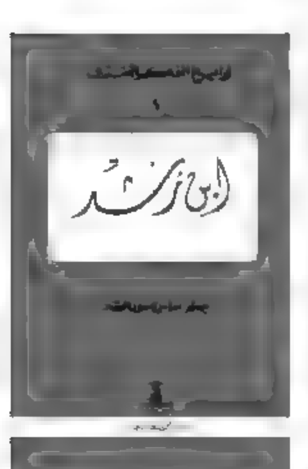
ورغم كثافة المادة وعمقها وما تقدمه من معلومات مهمة وغزيرة عن الشخصية التى تتناولها السلسلة، جاءت فى عدد محدود من الصفحات لا يتجاوز مائة وعشرين صفحة، قد تقل فى بعض الأحيان، وقد تزيد بصفحات قليلة، لكنها لا تخرج عن متوسط عدد الصفحات المشار إليه. بحيث يكون الكتاب فى النهاية عبارة عن «رسالة مكثفة» ودسمة وفى حيز محدود من الصفحات عن هذه الشخصية أو تلك. تقدم معرفة وافرة للقارئ العام أو المبتدئ تكفيه وتغنيه عن البحث فى شتات الكتب والمصادر، وفى الوقت ذاته تكون مفتاحا ومدخلا ممتازا للقارئ المتخصص والباحث عن المزيد فى هذا الموضوع لينطلق منه إلى كتب أكبر وأوسع.

وتميز الشكل الطباعى والإخراجى لكتب سلسلة «نوابغ الفكر العربى» من الكتاب الأول وحتى الكتاب الأخير، فجاء



القطع مميزا بين القطع الكبير والقطع الصغير (مقاس ٢٢ سم طولا في ١٤ سم عرضا) وهو ما يماثل حاليا قطع الروايات في وقتنا الراهن، وجاء تصميم الغلاف بسيطا غاية البساطة بلون واحد يتوسطه مستطيل أبيض أنيق يحتوى على اسم الشخصية المترجم لها مرسوما بخط الرقعة، وتحته بخط النسخ اسم مؤلف الكتاب مسبوقا بكلمة «بقلم».

صدر من سلسلة «نوابغ الفكر العربي» واحد وأربعون كتابا، غطت شخصيات وأعلام نبغت في تاريخنا العربي، قديما وحديثا، في الأدب والشعر والتاريخ والفلسفة والفكر الحديث والصحافة.. إلخ، وكان الكتاب الأول الذي صدر في السلسلة للعملاق عباس محمود العقاد عن «ابن رشد»، وهو كتاب فريد ورائع عن أشهر فلاسفة المسلمين في العصور الوسطى، وأبعدهم تأثيرا في الفكر الغربي الحديث، فهو الشارح الأعظم لكتب أرسطو طاليس، وأكبر الفلاسفة الشراح أثرا في الغرب خلال الفترة الزمنية الممتدة من القرن الثالث عشر إلى القرن العشرين.



وكما شأن كل إصدارات دار المعارف في تلك الفترة الزاهرة، استقبلت كتب السلسلة استقبالا جميلا وحافلا وأقبل عليها القراء من جميع أنحاء الوطن العربي، وتعددت طبعات أغلب كتبها لتجاوز العشر في غير قليل من العناوين، ولقيمة كتب السلسلة وبراعة مؤلفيها وحسن صنيعهم لا تكاد تخلو مؤسسة أكاديمية أو مكتبة جامعية أو مكتبة علمية في التخصصات الإنسانية من أعدادها جميعا أو على الأقل معظمها، وبالأخص



منهـا تلك التى تناولت أعـلام ذى خصوصية فى التراث العربى مثل «ابن المقفع»، «الجاحظ»، «التوحيدي»، «المتنبي»، «ابن زيدون»..



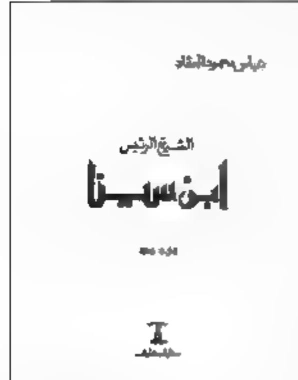
كانت سياسة القائمين على السلسلة (عادل الغضبان كان فى الحقيقة هو المشرف العام على كل سلاسل دار المعارف فى ذلك الوقت)، تقوم على اختيار مؤلفى هذه الكتب بعناية فائقة، ووفق المخطط الذى أوضحناه. وغالبا ما كانت الدار تقوم بإسناد الكتابة عن شخصية معينة من «نوابغ الفكر العربى» إلى مؤلف معاصر بذاته عرف عنه التخصص أو الاشتغال فى مشروعه



العلمى على تلك الشخصية. أغلب كتب السلسلة اضطلع بها أكاديميون متخصصون نابغون أيضا، التزموا بالشروط العامة لها، وقدموا كتبهم عن نوابغ الفكر العربى وفق هذا الشرط لا يغادرونه ولا يحيدون عنه، ومنهم من عكف خصيصا للكتابة عن شخصية أو علم بعد تكليف دار المعارف لهم بالكتابة عنها.

ونستطيع القول بأن مجموعة «نوابغ الفكر العربى» قد شكلت فى مجملها مكتبة كاملة ومتكاملة فى السير والتراجم، ووفرت لمطالعها معرفة واسعة وعميقة ودسمة عن أى شخصية من الشخصيات التى تناولتها، وكذلك مثلت واحدة من أهم المصادر لكل طلاب القراءة فى التراجم والسير على العموم، وتاريخ الفكر والثقافة العربية بصفة خاصة.

إجمالا يمكن تقسيم الشخصيات التى تناولتها «نوابغ الفكر العربى» إلى عدة مجموعات صغيرة، تشتمل تحتها على عدد من الأعلام جمع بينهم تخصص واحد أو فن واحد. ففى مجال الأدب والكتابة والشعر، سيجد قارئ السلسلة كتبا عن «الجاحظ»، و«بشار بن برد»، و«بديع الزمان الهمذانى»، و«أبو الفرج الأصفهاني»، و«ابن الرومى»، و«المتنبى»، والبحترى»، والفرزدق»، و«جرير»، و«أبى حيان التوحيدى».. وغيرهم من أعلام الأدب العربي، شعرا ونثرا، فى عصوره الأولى.



وسيجد كتبا عن «ابن رشد»، و«الفارابى»، و«ابن سينا»، و«إخوان الصفا» من الفلاسفة المسلمين، ومن المؤرخين: «المسعودى» مثلا صاحب كتاب «مروج الذهب ومعادن الجوهر»، ومن اللغويين والبلاغيين: «ضياء الدين ابن الأثير»، و«ابن رشيق



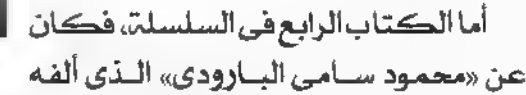
القيراونــى»، و«القاضــى الجرجانــى»، و«تقــى الديــن ابــن حجــة الحموى»، و«صفـى الدين الحلى»، وآخرين.

وكذلك سـيجد قارئ السلسـلة كتبا عن عـدد غير قليل من أبرز وأشـهر أعلام النهضة الأدبية الحديثة فى مطالع القرن التاسع عشـر وحتـى منتصـف القـرن العشـرين؛ مثـل: «محمـود سـامى البارودى»، «الشيخ ناصيف اليازجى»، «الشيخ إبراهيم اليازجى»، «عبـد الرحمن الكـواكبــى»، «رفاعة رافع الطهطـاوى»، «خليل مطـران»، «ولى الديــن يكــن»، «جمــال الديــن الأفغانى»، «قاسـم أمين»، «يـعقوب صـروف»، «أمـين الريحانــى»، و«حســن العطار».


رفاعة رافع الطهطاوى

من أهم ما صدر من عناوين فى مجموعة «نوابـغ الفـكر العربــى».. الكتاب رقم عن «رفاعــة رافــع الطهطــاوى» (١٨٠١م ـ١٨٧٣م) للمؤرخ القدير جمال الدين الشـيال، وهو من أسـبق الكتـب التى عرضت لسـيرة وحياة الطهطـاوى ومنجـزه الفكـرى والنهضوي، بمنهـج معاصـر ولغـة معاصـرة، وكـذلك أصبح هـذا الكتـاب منـذ صدوره مـن أهم المراجع وأجلها عن حياة الرائد التنويرى الأول فى العصر الحديث.


محمود سامى البارودى



أما الكتاب الرابع فى السلسلة، فكان عن «محمـود سـامى البـارودى» الـذى ألفه الدكتور عمر الدسـوقى، وهو من رواد الدراسة الأدبية فى تاريخنا الحديث، وجاء الكتاب ليقدم دراسة وافية وشاملة عن رائد الشعر العربى الحديث، ورائد مدرسـة الإحياء والبعث، أول مدرسة شعرية فى أدبنا المعاصر.



وكذلك من أهم ما صدر عن مجموعة «نوابغ الفكر العربى» أيضا، الكتاب رقم (٤٠)، عن العلامة الأزهرى، «الشيخ حسن العطار»، والذى كتبه محمد عبد الغنى حسن، وهو تقريبا الكتاب الوحيد الذى خصص بكامله عن هذا الشيخ المستنير رغم خطورة الدور الذى لعبه فى مستهل النهضة الأدبية الحديثة، وقدم الكتاب صورة كاشفة ومضيئة عن حياة الشيخ الأزهرى وأدواره وآثاره العلمية وأفكاره الإصلاحية ورؤاه التى كانت بلا شك البذرة التى أثمرت فى ما بعد إصلاحيين أزهريين كبار مثل الإمام محمد عبده ومن تخرج فى مدرسته الفكرية.

(٤) مجموعة «نوابغ الفكر الغربى»

وهذه السلسلة هى التوأم لمجموعة «نوابغ الفكر العربى»، أرادت بها دار المعارف أن تخرج للقارئ العربى وللمكتبة العربية مجموعة أخرى تقوم على نفس الأسس المنهجية والإطار العام والتخطيط الشامل الذى وضعته لإخراج مجموعة «نوابغ الفكر العربى»، لكنها فى هذه المرة عن «نوابغ الفكر الغربى» من الفلاسفة والمفكرين والأعلام الذين لعبوا أدوارا باهرة فى مسيرة الحضارة الغربية، واستكتبت لها خيرة المؤلفين والكتّاب من أساتذة الفلسفة فى الجامعات المصرية؛ مثل: زكى نجيب محمود، فؤاد زكريا، أحمد فؤاد الأهوانى، نجيب بلدى، وعزمى إسلام.. وآخرين.


زكى نجيب محمود

وكتب محرر دار المعارف «عادل الغضبان» عن هذه السلسلة يعرف بها ويقدمها إلى القارئ العربى، يقول «مهرت دار المعارف المكتبة العربية بهذه المجموعة النفيسة،



وتوخت فيها ألمع ما بزغ فى سماء الغرب من عقول جبارة نابغة؛ لإيمانها بأن مقومات الفكر فى الشرق العربى، وإن توفرت لخلق العالم والأديب، إلا أنها لا تؤتى أطيب ثمارها وأعظم أكلها إلا إذا امتزجت فيها مقومات الفكر الغربى، وهذا ما تتوخاه هذه المجموعة من نوابغ الفكر الغربى».

وكل كتاب من كتب هذه المجموعة «يمتاز بترجمة وافية لحياة العبقرى الذى أفرد له ذلك الكتاب، وبدراسة مفصلة عن أدبه وعلمه ومذهبه الفكرى، كما يمتاز بصفوة مختارة من آثاره الموضحة لمنهج البحث منقولة إلى اللغة العربية ومنشورة إلى جانب الأصل الأفرنجى المنقولة عنه. إنها معرض فكرى حافل سوف يلتقى القراء فيه بجابرة الفكر من رجال الغرب قديمهم وحديثهم؛ أولئك الذين كانوا للعالم مصابيح هدى فأناروا له سبيل العلم والمعرفة».

وبذات القطع الذى صدرت عليه مجموعة نوابغ الفكر الغربى، (مقاس ٢٢ سم طولا فى ١٤,٥ سم عرضا)، جاءت كتب نوابغ الفكر الغربى، ويتراوح متوسط صفحات الكتاب بين ١٥٠ صفحة و٢٥٠ صفحة، قد تقل فى بعض الكتب، وتزيد فى بعضها الآخر، لكن غالبها كان يقع بين الـ ٢٠٠ و ٢٢٠ صفحة.

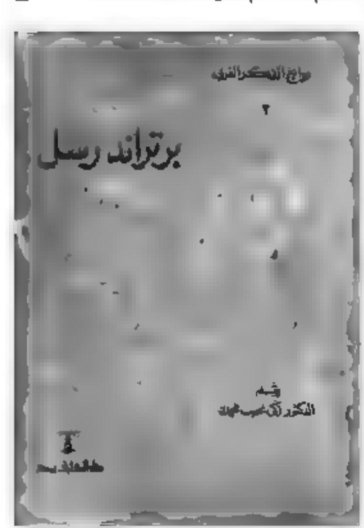
وعلى النهج ذاته أيضا، جاء التخطيط العام للسلسلة؛ فكل شخصية نابغة فى الفلسفة أو الاجتماع أو التاريخ أو القانون من نوابغ الفكر الغربى التى تتناولها يتم معالجتها بالتمهيد لدراسة عصرها؛ سياسيا واجتماعيا وعقليا، ثم عرض واف لمعالم حياة الشخصية وأبرز ملامحها، ثم عرض لمؤلفاتها وأعمالها وما يتصل بها من أفكارها ونظرياتها أو مذهبها الفلسفى على الجملة، وهذا كله يستغرق نصف الكتاب أو ما يزيد قليلا على النصف. ويأتى النصف الآخر أو القسم الثانى من الكتاب مخصصا بكامله لنصوص مختارة أو منتخبات من أعمال الشخصية وآثارها الكبرى.



علـى أن كـتب هذه السلسـلة تتعدى فكـرة كونها تعريفا بأعـلام الفكـر العالمـى، رواده فـى العصـور القديمة والوسـطى ومحدثيـه. فهى دراسـات رصينة، جـادة ومعمقة، بـل ناقدة أيضا لحياة وأعمال هؤلاء الأعلام من الفلاسفة والمفكرين الغربيين.

ظهر الكتاب الأول فى السلسـلة عن «نيتشه» بقلم الدكتور فـؤاد زكريا فى العام ١٩٥٦م، وكان كتابا باذخا عظيم الفائدة واسـع المعرفة، قدم وجبة رائعة ودسمة عن فيلسـوف أوربا المنعزل، ورسـم صـورة واضحـة المعـالم محـددة الأركان لعصـره وثقافته والأسـس التى شكلت فلسـفته وآراءه. كان هذا الكتاب أشبه برسـالة ماجسـتير حقيقية عكـف على تأليفها واحـد من أعظم وأكبر أساتذة الفلسفة فى القرن العشرين.

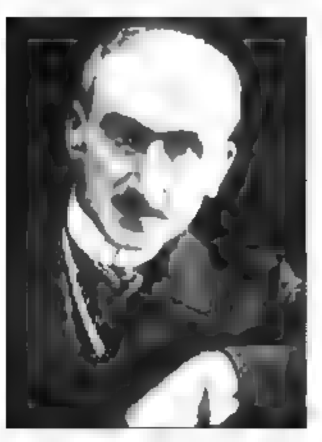
أما الكتاب الثانى فكان عن «برتراند رسـل» بقلم الدكتور زكـى نجيب محمـود، وصدر فى العام نفسـه. وربما يكون هذا الكتـاب الـذى يقع فـى ١٨٠ صفحة مـن القطع المتوسـط، من أهم الكتب بالعربية التى تعرضت لواحد من أهم وأشهر فلاسفة القرن العشرين. يقول زكـى نجيب محمود فى مقدمته للكتاب «حين كتبـت هـذا الكتاب، حاولـت أن أهتم بالمهم من فلسـفته، بغض النظر عن مدى ذيوعه بين أوسـاط القـراء، وجعلـت تتابـع الفصـول متمشيا، إلى حد كبير، مع التطور الفكرى للفيلسوف، كما يظهر هذا التطور فى رواية الفيلسوف عن نفسـه هى التى تراها فـى الفصل الأول من الكتاب».



وكتب أستاذ الفلسفة القدير الدكتـور زكريـا إبراهيـم عـن «برجسـون»، وهو الكتاب الثالث فى السلسـلة، يعرض فيه لفكر



برجسون ومذهبه الفلسفى فى واحد من أعمق وأبسط الكتب عن الفيلسوف الفرنسى الشهير، وفى أسلوب واضح جلى يدل على إحاطة مؤلفه وفهمه الكامل لصحيح مذهب الفيلسوف وأفكاره.


برجسون

وكتاب «أفلاطون» للدكتور أحمد فؤاد الأهوانى، وهو الكتاب الخامس فى السلسلة، يكاد يكون أهم كتاب صدر فى مجموعة نوابغ الفكر الغربى، لأهمية وذيوع صيت الشخصية التى يتناولها، فضلا عن علو باع المؤلف المعروف بدراساته العميقة والفذة فى فروع الدراسة الفلسفية عموما. وأحمد فؤاد الأهوانى (١٩٠٨م - ١٩٧٠م) أحد أهم أساتذة الفلسفة وعلم النفس والفكر الإسلامى فى جامعة القاهرة، وقدم للمكتبة العربية والدراسات الفلسفية العديد من الكتب والمؤلفات والمترجمات فى الفلسفة وتفرعاتها المتشابكة ما بين تأليف وتحقيق وترجمة. وكذلك فى القضايا الفكرية العامة. يعالج الكتاب تفصيلا السيرة الذاتية لأفلاطون من حيث حياته ومؤلفاته ومذهبه فى الفن والرياضة والهندسة والفلسفة والنفس والمدينة الفاضلة وغير ذلك، ثم يورد منتخبات من آثاره ونصوصا مختارة من أعماله مقرونة بأصلها الفرنسى أو اللاتينى بعد مراجعتها على الأصل اليونانى.

ويأتى كتاب «جون لوك» للدكتور عزمى إسلام، وهو الكتاب رقم (١٦) فى السلسلة، ليستعرض مكانة الفيلسوف والمفكر السياسى جون لوك فى التاريخ الإنسانى، ويؤكد على إسهاماته وأهميته فى حركة التنوير الكبرى التى سادت أوربا فى القرن الثامن عشر والتى لم تكن سوى امتداد طبيعى لفلسفة جون لوك. تلك الفلسفة التى قامت على احترام القيم الإنسانية



والحريــة الفرديــة ســواء فـى الديــن أو الفـكـر أو السياســة، وتنادى بتحرير الفرد.

وتتابعـت كتب مجموعـة نوابـغ الفـكـر الغربـى، لتصل إلى واحد وعشرين كتابًا تتحدث عن واحد وعشرين نابغة غربيا بأهم الأقلام الفلسفية فى مصر والعالم العربى، وبعضها طبع أكثر من طبعـة، وما زال الطلب عليها كبـيرا ومتزايدا برغم مرور ما يقرب من ستة عقود على صدور الكتاب الأول.

ظهر من سلسلة «نوابغ الفكر الغربى» على الترتيب:

«نيتشـه» لفـؤاد زكـريـا، «برتراند رسل» لزكى نجيب محمود، «برجسون» لزكـريـا إبراهيـم، «بسـكـال» لنجيب بلدى، «أفلاطـون» لأحمد فؤاد الأهوانى، «جـون سـتوارت مـل» لتوفيـق الطويـل، «ديفيد هيـوم» لزكـى نجيـب محمود، «شـيلر» لعثمان أمـين، «تايـلور» لأحمد أبو زيـد، «وليم جيمس» لمحمـود زيدان، «جـون ديـوى» لأحـمـد فـؤاد الأهوانــى، «ديكارت» لنجيب بلـدى، «باركلى» ليحيــى هويدى، «ســان ســيمون» لطلعـت عيســى، «كـولردج» لمحمد مصطفى بدوى، «جون لوك» لعزمى إسلام، «ت. إس. إليوت» لفايق متى، «كوندرسيه» لعاطف وصفى، «لدفيج فتجنشتين» لعزمى إســلام، «هيجل» لعبد الفتاح الديــدى، وأخيرا «هولدرلين» لعبد الغفار مكاوى.

(٥) مكتبة الدراسات الأدبية

يلفـت انتبـاه المـؤرخ والباحـث الثقافـى المعنى بدراســة حقبــة الخمسينيات والستينيات، على وجه الخصوص، أنها كانت فترة عامـرة ومزدهرة بالأكاديميين المتخصصـين الذين تتلمذوا على جيل الأســاتذة مـن رواد النهضـة الحديثـة، بدأت البـذور التى ألقاها



طه حسين وأحمد لطفى السيد ومصطفى عبد الرازق وأحمد أمين وأمين الخولى، ونظرائهم فى كل مجالات البحث والعلوم الإنسانية والاجتماعية، تؤتى أكلها وتثمر ثمارها، وكانت الجامعة المصرية هى مركز هذه الحركة ومولدها فى الوقت ذاته. شهدت هذه الفترة إجازة عشرات الرسائل من الماجستير والدكتوراه أنجزها أعلام أفذاذ سيصيرون أساتذة عظاما وعلماء أجلاء، وكان لا بد أن ينشروا هذه البحوث ويذيعوها على الناس، أولا لطلاب المعرفة والثقافة بصورة عامة، وثانيا للطلاب والدارسين فى الجامعات والأقسام العلمية المختلفة (الآداب، اللغات، الفلسفة، الاجتماع، التاريخ.. إلخ).

ولم يكن لدار المعارف، وهى الدار الأكبر والأشهر فى العالم العربى آنذاك، أن تغفل عن ملء الفراغ فى هذا الجانب وأن يكون لها قصب السبق ولواء الريادة فى نشر الكتاب الثقافى والأكاديمى المتخصص، وأن تفكر فى إصدار عدد من السلاسل العلمية المتخصصة لتخدم بها طائفة عريضة وشريحة واسعة من قرائها وتوفر لهم وبين أيديهم خلاصة وعصارة ما أنتجته قرائح أساتذتهم العظماء.



وفى ظنى أن مقترح إنشاء هذه السلسلة تحديدا «مكتبة الدراسات الأدبية»، كان بواعز من العميد طه حسين الذى كان يعد بمثابة المستشار الثقافى لدار المعارف، وأظن أنه عرض فكرته على صديقه شفيق نجيب



متری صاحب دار المعارف، الذى تحمس بدوره للفكرة، وأسند إلى المحرر العام للدار والمشرف على مطبوعاتها، عادل الغضبان، تنفيذها فورا.

ومن المؤكد أن مهندس وصاحب فكرة إخراج هذه السلسلة بشكل دورى وفق معايير محددة وصارمة، هو عادل الغضبان، وذلك ضمن عدد من السلاسل الأخرى التى تبتغى تحقيق هدفين معا: الأول أن تضيف هذه الكتب مادة معرفية وثقافية فى إطار النشر العام وتفيد جمهرة المثقفين والقراء كل حسب طلبه واهتمامه، والثانى أن تتوجه أيضا للطلاب الجامعيين الذين يدرسون موضوعات فى تخصصاتهم الدقيقة وتتصل مباشرة بموضوعات هذه الكتب. ومن هنا حققت السلسلة الهدفين بحجر واحد أن تكون كتبا ثقافية بالمعنى العام والشامل، ولا يستغنى عنها مثقف أو قارئ عام مطلع، وأن تكون أكاديمية تخدم الطلاب والدارسين، وتوفر لهم مادة يستعينون بها على إكمال مقرراتهم الدراسية إن لم تكن هى بحد ذاتها تمثل ذلك.

هكذا، ظهرت إلى الوجود سلسلة «مكتبة الدراسات الأدبية»، وتكون باكورة لعدد من السلاسل العلمية المتخصصة التى أصدرتها دار المعارف فى منتصف الخمسينيات من القرن الماضى (صدر على غرارها مكتبة «الدراسات الفلسفية»، «مكتبة علم النفس»، «مكتبة الدراسات التاريخية»، «المكتبة الجغرافية».. إلخ) لتستوعب الدراسات الأدبية والنقدية المتخصصة والمتعمقة، والتى كان



أغلبها أطروحات علمية تقدم بها أصحابها إلى نيل درجتى الماجستير والدكتوراه فى تخصصات الاداب والنقد وتاريخ الأدب العربى.

ولم يكن هؤلاء المؤلفون، من أساتذة الأدب والمتخصصين فى مصر فقط، بل كانوا أيضا وبنسبة لافتة من الدول العربية الأخرى: من العراق وسوريا وفلسطين والأردن والسودان وتونس والجزائر والمغرب، ومن يحصى كتب «مكتبة الدراسات الأدبية» سيجد فيها كتبا لكل من سامى الدهان وسامى الكيالى وجودت الركابى من سوريا، وناصر الدين الأسد من الأردن، وكامل السوافيرى من فلسطين، ويوسف عز الدين من العراق، والنشاشيبى من العراق أيضا، وزكى المحاسنى من سوريا، وأبو القاسم عبد الله من الجزائر، ويوسف حسين بكار من تونس.. وغيرهم.

واتخذ شكل الكتب التى صدرت فى «مكتبة الدراسات الأدبية» شكلا إخراجيا موحدا، بتصميم غلاف ثابت (لون واحد يتوسطه العنوان واسم المؤلف فى شكل بيضاوى يتخلل مساحة اللون الثابت للغلاف)، وكان القطع كبيرا، وتتراوح عدد الصفحات ما بين ٢٥٠ صفحة و٣٥٠ صفحة، وقد تزيد فى بعض الكتب إلى ما يزيد على الخمسمائة صفحة.

ظهر الكتاب الأول فى «مكتبة الدراسات الأدبية» فى العام ١٩٥٦م، وهو كتاب المرحوم الدكتور ناصر الدين الأسد «مصادر الشعر الجاهلى وقيمتها التاريخية». وهذا الكتاب المرجعى الذى استهلت به «مكتبة الدارسات الأدبية» إصداراتها، كان فى الأصل أطروحة الدكتوراه التى تقدم بها ناصر الدين الأسد إلى قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة القاهرة


الدكتور شوقى ضيف



لنيل درجة الدكتوراه عام ١٩٥٥م تحت إشراف الدكتور شوقى ضيف، وبتشجيع ودعم من الدكتور طه حسين.

ثم صدر الكتاب الثانى بعنوان «شعراء الرابطة القلمية» للدكتورة نادرة جميل السراج، وهو عبارة عن دراسات فى شعر المهجر عامة وفى شعر شعراء الرابطة القلمية خاصة، وفيه صفحات مشرقة من شعراء إخوان لهم سطع فنهم العربى فى سماء الأندلس الجديدة.


أحمد شوقى

وجاء الكتاب الثالث بتوقيع الدكتور شوقى ضيف عن «شوقى شاعر العصر الحديث»، وهو من أشهر كتب السلسلة وأذيعها وأكثرها طباعة وتداولا منذ صدور طبعته الأولى حتى وقتنا هذا. وفى هذا الكتاب، الذى يعد بحق من أوفى الدراسات وأشملها عن شاعر العربية الأشهر والأكبر فى العصر الحديث، يصور حياة أمير الشعراء أحمد شوقى من جميع النواحى، ويبحث عن مكونات الصناعة الشعرية وروافدها، و يحدد موقف الشاعر بين التيار القديم والتيار الجديد و يحسم الجدل الدائر فى هذه المسألة و يختم دراسته بموقف النقاد المحدثين من شعر شوقى واختلافهم حوله، وكذلك موقف الشاعر نفسه من النقد والنقاد.

ويصدر الكتاب الرابع فى السلسلة لشوقى ضيف أيضًا، بعنوان «الأدب العربى المعاصر فى مصر»، ليقدم مدخلا ممتازا ووافيا بتاريخ مائة عام كاملة من أدبنا المعاصر، نثرا وشعرا، ويترجم فيه لأهم وأبرز أعلام الحركة الأدبية خلال الفترة من ١٨٥٠م وحتى ١٩٥٠م.

وتتوالى أعداد «مكتبة الدراسات الأدبية»، ويصدر من هذه



السلسلة حوالى ١٠٠ كتاب (لحين توقفت فى أواخر الثمانينيات أو أول التسعينيات من القرن الماضى)، مثلت معنى المكتبة الحقيقية، الوافرة، العميقة، كتبها خيرة الأساتذة والنقاد والمتخصصون فى الأدب والنقد وتاريخ الأدب، واستوعبت بحوثا ودراسات أصبحت، وما زالت، منذ نشرها فى كتاب على الناس، من أهم الكتب فى موضوعاتها، بمعنى أن من عكف على قراءة هذه الكتب وفى إطارها المحدد لها، يكون قد ألم تماما بأهم وأبرز ملامح الحياة الأدبية فى العالم العربى وما يتصل بها من دراسة أو نقد، قديما أو حديثا، إلماما تاما ووافيا ومحيطا.

أقبل القراء على إصدارات «مكتبة الدراسات الأدبية» إقبالا كبيرا ورائعا، ووضح أن السلسلة تغطى مساحة عريضة لا يستهان بها. ولهذا تجاوز الأثر الذى أحدثته السلسلة فى أهميتها وقيمة ما تطبعه وتنشره من بحوث النطاق المصرى وامتد أثره إلى العالم العربى كله من المحيط إلى الخليج. وصدرت عشرات الطبعات من كتب «مكتبة الدراسات الأدبية» لتغطى الطلب المتزايد عليها فى مصر وخارجها. وأصبحت كتبها الرصينة أيقونة معروفة وراسخة لكل طلاب الدراسات الأدبية فى كليات الآداب بأقسامها الأدبية واللغوية، وكليات الدراسات العربية، وكلية دار العلوم، وما يشابه هذه الكليات من مؤسسات ومعاهد معنية بدراسة الأدب واللغة العربية والنقد وتاريخ الأدب.



كتب لها تاريخ

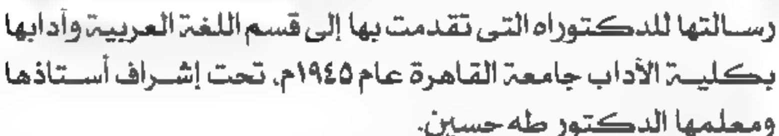
فى مكتبة الدراسات الأدبية نشر المرحوم الدكتور شوقى ضيف أبرز وأهم كتبه ودراساته الأدبية التى تكمل بصورة أو أخرى موسوعته الضخمة «تاريخ الأدب العربى» التى صدرت فى عشرة أجزاء عن دار المعارف أيضا (راجع فصل نجوم تألقت فى دار المعارف)،



ومن هذه الكتب:

«التطور والتجديد فى الشعر الأموى»، «دراسات فى الشعر العربى المعاصر»، «الفن ومذاهبه فى الشعر العربى»، «الفن ومذاهبه فى النثر العربى»، «الشعر وطوابعه الشعبية عبر العصور»، «البارودى رائد الشعر الحديث»، «الشعر والغناء فى مكة والمدينة فى العصر الأموى»، و«فى التراث والشعر واللغة». وهو الكتاب الأخير الذى صدر فى السلسلة تحت رقم (١٠٠)، وغيرها من الكتب المهمة التى لا غنى عنها لكل طالب جاد أو باحث مدقق أو قارئ عام يبحث عن لذة الثقافة والمعرفة لذاتها.

ومما أصدرته «مكتبة الدراسات الأدبية» أيضا من الكتب المهمة والقيمة لأعلام الأدب والنقد فى مصر والعالم العربى، وتركت بصمات عميقة فى تطور الدراسة الأدبية أو رادت الطريق أمام الباحثين فى فروع مختلفة، نذكر العناوين التالية:



الكتاب رقم (٦).. «ألف ليلة وليلة ـ دراسة وتحليل» للمرحومة الأستاذة الجليلة الدكتورة سهير القلماوى، من أهم الكتب ـ إن لم يكن أهمها ـ التى صدرت فى «مكتبة الدراسات الأدبية» خلال مشوارها الذى امتد لما يزيد على أربعة عقود متصلة، وهو فى الأصل رسالتها للدكتوراه التى تقدمت بها إلى قسم اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب جامعة القاهرة عام ١٩٤٥م، تحت إشراف أستاذها ومعلمها الدكتور طه حسين.

وكان العميد شديد السعادة بهذه الدراسة وبصاحبتها، وقال فى تقديمه للكتاب فى طبعته الصادرة عن دار المعارف سنة ١٩٥٦م: "وكل ما أتمناه هو أن تكون هذه الخطوة هى الأولى لسهير فى درس الأدب الشعبى، وألا تكون خطوتها الأخيرة". وقد



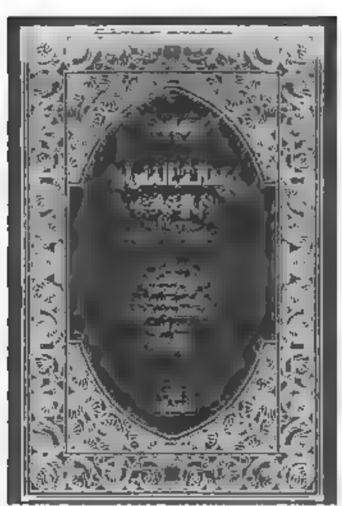
نال هذا الكتاب العظيم شهرة واسعة فى الدراسات الأدبية بعامة والشعبية بخاصة، وتعددت طبعاته التى تجاوزت العشر طبعات (على أقل تقدير)، واحتلت صاحبته مكانة رفيعة وسامقة فى مضمار البحث الأدبى بسبب هذا الكتاب الذى ارتادت به أرضا بكرا لم يسبقها إليه سابق؛ إذ إنها بهذه الدراسة كانت رائدة دراسات ألف ليلة وليلة، وفتحت الباب أمام شباب الباحثين والدارسين لاقتحام مجال الدراسات الشعبية دون وجل أو خوف.

الكتاب رقم (٨).. «الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى» للدكتور يوسف خليف، وصدرت طبعته الأولى عام ١٩٥٩م، وهو فى الأصل أطروحة الماجستير التى تقدم بها يوسف خليف لنيل درجة الماجستير من كلية الآداب جامعة القاهرة، قسم اللغة العربية وآدابها، تحت إشراف المرحوم أحمد أمين، كانت دراسة أصيلة وفريدة فى بابها؛ إذ كانت الدراسة الأولى عن هؤلاء الشعراء الذين عاشوا رمال البادية وفى أعماقها الغامضة الرهيبة، وكانوا عصابات من خُلعاء القبائل وشُذاذها، وأغربتها السود، وفقرائها المهمشين المتمردين، يجمع بينهم الفقر والتشرد والتمرد على النظام القبلى، وجسد شعرهم صيحة احتجاج واعتراض قوية ضد هذا النظام، كما صور فلسفتهم الاجتماعية والاقتصادية وحياتهم التى انبنت على قيم البطولة والنبالة والمغامرة.

وكتاب «ذو الرمة شاعر الحب والصحراء»، له أيضا، يتناول هذا الكتاب دراسة أدبية تحليلية ونقدية فى شعر أحد أهم شعراء العصر الأموى وهو ذو الرمة من خلال دراسة لحياة الشاعر من حيث نشأته وشبابه وقصص حبه، وأبرز المراحل المميزة لتجربته الحياتية، مع الوقوف على قراءة أدبية فى شعر الحب وشعر الصحراء لدى ذو الرمة، مختتما بدارسة فنية حول سمات وخصائص تجربته الشعرية، موضحا مكانته من تاريخ الشعر العربى.

ثم تتابعت كتب «مكتبة الدراسات الأدبية» حتى وصلت للكتاب رقم (١٠٠)، ومن أبرز هذه العناوين:





«منهج الزمخشرى فى تفسير القرآن» لمصطفى الصاوى الجوينى، «شوقى وشعره الإسلامى» لماهر حسن فهمى، «حافظ إبراهيم شاعر النيل» للدكتور عبد الحميد سند الجندى، «الأدب العربى المعاصر فى سورية (١٨٥٠-١٩٥٠)» لسامى الكيالى، «شكيب أرسلان حياته وآثاره» لسامى الدهان، «فى الأدب الأندلسى» لجودت الركابى، «شعر الحرب فى أدب العرب» للدكتور زكى المحاسنى، «رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى دراسة نقدية» للدكتورة بنت الشاطئ عائشة عبد الرحمن، و«التفسير البيانى للقرآن الكريم» لها أيضا، «النيل فى الأدب المصرى» للدكتورة نعمات أحمد فؤاد، «الجاحظ - حياته وآثاره» لطه الحاجرى، «اتجاهات الشعر العربى فى القرن الثانى الهجرى» لمحمد مصطفى هدارة، «تطور الرواية العربية الحديثة فى مصر (١٨٧٠-١٩٣٨)» للدكتور عبد المحسن طه بدر، «القصة فى الأدب الفارسى» للدكتور أمين عبد المجيد بدوى، «القيان والغناء فى الشعر الجاهلى» لناصر الدين الأسد، و«العرب قبل الإسلام» لخليل يحيى نامى.. وغيرها من الكتب والدراسات التى نفد معظمها، ولم يعد طبعها منذ زمن بعيد.

(٦) مكتبة الدراسات الفلسفية

من أعظم ما أخرجته دار المعارف فى خمسينيات القرن الماضى سلسلة ليس لها نظير فى المكتبة العربية، أسمتها «مكتبة الدراسات الفلسفية»، وهى بحق "مكتبة" عامرة بكل أصيل وقيم فى مجال الدراسات الفلسفية، وما يتصل بها من قضايا



وموضوعات ومذاهب فلسفية، اضطلع بكتابتها أو ترجمة نصوصها أعظم أساتذة الفلسفة في مصر بلا شك، وكانت هذه الفترة تشهد ازدهارا في مجال الدراسات الأكاديمية، ويحظى الدرس الفلسفي بنخبة من ألمع الأسماء؛ مثل: يوسف كرم، نجيب بلدى، محمد يوسف موسى، سليمان دنيا، أحمد محمود صبحى، على سامى النشار، إمام عبد الفتاح إمام، إبراهيم بيومى مدكور، فؤاد كامل، عاطف العراقى، وآخرين.

من منتصف الخمسينيات وحتى منتصف الثمانينيات (على أقصى تقدير) صدر من هذه السلسلة قرابة الأربعين عنوانا (قد تزيد قليلا أو تنقص فى ظل غياب معلومات ببليوجرافية دقيقة وموثقة)، صدر من بعض هذه العناوين ما يقرب من الطبعات العشر، وكانت أهم مراجع فى أبوابها تسعى المكتبات الأكاديمية والأقسام العلمية بالجامعات المصرية والعربية على التزود منها.

وإذا كان محبو وعشاق ودارسو تاريخ الأدب العربى يعتبرون موسوعة العظيم شوقى ضيف هى "أكمل" و"أعظم" ما كتب عن تاريخ الأدب العربى، ولا غنى عنها لأى طالب أو باحث، يحرص عليها وعلى اقتنائها، فإن «مكتبة الدراسات الفلسفية» تمثل هذه القيمة وهذه الأهمية والمرجعية فى آن لطلاب الدراسات الفلسفية والمعنيين بالدرس الفلسفى.

أما فكرة إخراج هذه السلسلة فكانت من أفكار عادل الغضبان، أيضا، ضمن عدد من السلاسل الأخرى التى تحقق هدفين معا: الأول أن تضيف هذه الكتب مادة معرفية وثقافية فى إطار النشر العام، وتفيد جمهرة المثقفين والقراء كل حسب طلبه واهتمامه، والثانى أن تتوجه أيضا للطلاب الجامعيين الذين يدرسون موضوعات فى تخصصاتهم الدقيقة وتتصل مباشرة بموضوعات هذه الكتب.

ومن هنا حققت السلسلة الهدفين بحجر واحد، أن تكون



كتبا ثقافية بالمعنى العام والشامل، ولا يستغنى عنها مثقف أو قارئ عام مطلع، وأن تكون أكاديمية تخدم الطلاب والدارسين، وتوفر لهم مادة يستعينون بها على إكمال مقرراتهم الدراسية إن لم تكن هى بحد ذاتها تمثل ذلك.

صدر الكتاب الأول من مكتبة الدراسات الفلسفية بعنوان «تاريخ الفلسفة الأوربية فى العصر الوسيط» لمؤرخ الفلسفة القدير يوسف كرم، وهو من أعلام الثقافة المصرية الحديثة الذين لم يلقوا حظا كبيرًا من الشهرة برغم قيمته الكبيرة وإنجازه الضخم فى مجال الدراسات الفلسفية.

وجاء كتابه هذا ليدرس الحركة الدينية والحركة الفكرية فى أوربا العصور الوسطى، والتى كان للدين والفلسفة أثر فيهما، إذ كانت الفلسفة اليونانية نواة الفلسفة الأوربية وتناولتها العقول الجديدة فى الشرق والغرب، فاصطنعت منها أشياء وأنكرت أشياء وضل بسببها عن العقائد الدينية لفيف كبير. هذه الحركة الكبيرة يعرضها المؤلف ويتتبع آثارها عند الأمم الغربية قوما ولسانا، ويبين آراء الأوربيين باللاتينية طوال العصر الوسيط. وفى الكتاب أيضا تراجم لجمهرة من فلاسفة العصر الوسيط تؤرخ لحياتهم وأعمالهم الفكرية وتسجل آراءهم ونظرياتهم الفلسفية فى وضوح امتاز به المؤلف ودل على تمكنه فى هذا العلم الذى لا يسلس قيادة إلا لفئة قليلة ممتازة.

أتاحت «مكتبة الدراسات الفلسفية» ليوسف كرم أن يُخرج أعظم وأهم أعماله فى تاريخ الفلسفة وقضاياها، وكان كتابه الأول فى السلسلة حلقة من حلقات تأريخه الضخم لتاريخ الفلسفة



عبر العصور، وكان أصدر كتابه الضخم «تاريخ الفلسفة اليونانية» عن لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٣٦م، ليمثل الحلقة الأولى من هذا المشروع الكبير. ثم جاء كتابه «تاريخ الفلسفة الأوربية فى العصر الوسيط» ليكون الحلقة الثانية، وأتبعه بكتابه المرجعى «تاريخ الفلسفة الحديثة»، وهو الكتاب الثانى الذى صدر فى سلسلة «مكتبة الدراسات الفلسفية»، لتكتمل بذلك حلقات تاريخ الفلسفة عبر العصور. وهذا الكتاب الأخير نال شهرة فائقة، وتعددت طبعاته، وأقبل عليه جمهور قراء الفلسفة ومحبيها إقبالا شغوفا.

البداية كانت مشجعة ومبشرة، خاصة بعد الاستقبال الحافل من القراء للكتابين الأولين، مما استدعى إعادة طبع الكتابين مرات ومرات، ثم صدر الكتاب الثالث ليوسف كرم أيضا بعنوان «العقل والوجود»، والكتاب الخامس له أيضا بعنوان «الطبيعة وما بعد الطبيعة»، وهذا الكتاب محاولة فلسفية لفهم طبيعة الحياة وطبيعة الإنسان والوصول إلى الله، وقد أراد المؤلف تحرير الفلسفة من هذا العقم فى عبارة محكمة دقيقة لا غموض فيها ولا التواء أو عسر.

هكذا استوعبت «مكتبة الدراسات الفلسفية» أعظم وأهم الأعمال التى كتبها مؤرخ الفلسفة القدير يوسف كرم، وباتت كتبه التى أصدرها فى هذا الإطار من أهم الأعمال التى يرجع إليها طلاب الفلسفة وروادها ولا يستغنون عنها. لا فى دراساتهم الأولية أو فى مراحل الدراسة العليا لمن أراد منهم استكمال الطريق.



استوعبت السلسلة أيضا نصوصا مهمة من عيون النصوص الفلسفية فى القرن العشرين. وكانت أن فاجأت الجميع بصدور الترجمة العربية من النص الفلسفى الكبير «أصول الرياضيات» فى أربعة أجزاء لبرتراند راسل، وقام بالترجمة محمد مرسى وأحمد فؤاد الأهوانى، وهذا الكتاب الكبير أحدث انقلابا فى مبادئ العلم الرياضى، وهو يتناول أفكارا أساسية فى العلم الرياضى مثل فكرة العدد اللا نهائية والاتصال وغير ذلك مما يعد أساسا لجميع العلوم الطبيعية والذرية فى العصر الحاضر. وأما مؤلفه فواحد من أشهر الفلاسفة والرياضيين فى القرن العشرين.



ومن النصوص الفلسفية التأسيسية التى صدرت عن مكتبة الدراسات الفلسفية «فايدروس أو عن الجمال» لأفلاطون، والذى ترجمته الدكتورة أميرة حلمى مطر، وهى المحاورة الخالدة بين سقراط وفايدروس حول مسائل الفن وفلسفة الجمال.

أيضا «مقدمة فى المنطق الرمزى» من تأليف أ. هـ بيسون، و د. ح. أوكونر، ومن ترجمة د. عبد الفتاح الديدى، والمنطق الرمزى هو أسلوب فى التفكير الحديث السريع المباشر الذى يسعى للعثور على حلول عملية دقيقة منهجية فى كل الإشكالات التى تعترضه.

ونص كتاب «المنطق ـ نظرية البحث» لجون ديوى، وترجمة الدكتور زكى نجيب محمود. وهو من النصوص الفلسفية المعاصرة التى تعرض لوجهة نظر فى المنطق تلائم العلم المعاصر، يعبر بها عن رأى البراجماتيين الذين هم ألصق الجماعات الفلسفية



المعاصرة بتيار العلم، وقد أطلق صاحب الكتاب على منطقه الجديد اسم «نظرية البحث».

وفى مكتبة الدراسات الفلسفية صدرت الترجمة العربية من الكتاب المرجعى «تاريخ الفلسفة الروسية» من تأليف د. نيقولا لوسكى، ومن ترجمة فؤاد كامل، ومراجعة الدكتور زكى نجيب محمود، ويقع هذا الكتاب الكبير فى ٤٦٨ صفحة من القطع الكبير.

وتتابعت إصدارات مكتبة الدراسات الفلسفية ليصدر منها حوالى أربعين عنوانًا خلال ما يزيد على ثلاثة عقود، كان من أبرزها:

فى الفلسفة الإسلامية: «مناهج البحث عند مفكرى الإسلام»، لعلى سامى النشار، و«نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام» فى ثلاثة مجلدات له أيضا، و«فى الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيقه» (جزءان) لإبراهيم بيومى مدكور، و«بين الدين والفلسفة عند ابن رشد» لمحمد يوسف موسى، و«القرآن والفلسفة» له أيضًا. و«الإدراك الحسى عند ابن سينا» للدكتور محمد عثمان نجاتى، و«الفلسفة الطبيعية عند ابن سينا» لعاطف العراقى، و«الحقيقة فى نظر الغزالى» لسليمان دنيا، و«الفلسفة الأخلاقية فى الفكر الإسلامى» لأحمد محمود صبحى، و«النزعة العقلية فى فلسفة ابن رشد» لعاطف العراقى، و«المادية والمثالية فى فلسفة ابن رشد» لمحمد عمارة، و«الشخصانية الإسلامية» لمحمد عزيز الحبابى..





وفى الفلسفة القديمة: «تمهيد لتاريخ مدرسة الإسكندرية وفلسفتها» (١٩٦٢م) للدكتور نجيب بلدى، والكتاب الضخم «حكمة الصين - دراسة تحليلية لمعالم الفكر الصينى منذ أقدم العصور» لمحمد فؤاد شبل فى مجلدين، وهو عرض ممتع وشائق ودراسة جادة وعميقة لتطور الفكر الصينى الذى يختلف اختلافا شديدا عن الأنماط الفكرية فى الشرق والغرب.

وفى الفلسفة الحديثة: «المذهب فى فلسفة برجسون» لمراد وهبة، و«سورين كيركجورد: أبو الوجودية» لفوزية ميخائيل، و«بين برجسون وسارتر - أزمة الحرية» لحبيب الشارونى، و«الفرد فى فلسفة شوبنهور» لفؤاد كامل، و«الغير فى فلسفة سارتر» له أيضا. و«ألبير كامى محاولة لدراسة فكره الفلسفى» لعبد الغفار مكاوى، و«المنهج الجدلى عند هيجل» لإمام عبد الفتاح إمام، و«مراحل الفكر الأخلاقى» لنجيب بلدى.. و«من الكائن إلى الشخص» للدكتور محمد عزيز الحبابى. و«فلسفة المصادفة» لمحمود أمين العالم.

(٧) مكتبة الدراسات التاريخية



«مكتبة الدراسات التاريخية» هى الشقيقة الثالثة للسلسلتين السابقتين. «مكتبة الدراسات الأدبية»، و«مكتبة الدراسات الفلسفية»، وتكتمل أضلاع مثلث العلوم الإنسانية التى سعت هذه المكتبات الثلاثة إلى تغطيتها بهذه السلسلة التى كانت شديدة التخصص، وذات طبيعة نوعية مميزة، ونشرت عددا من أندر وأهم



الدراسات التاريخية فى بابها، وإن كان عدد العناوين الذى نشر فيها أقل نسبيا من السلسلتين السابقتين.

بالمنهج نفسه الذى سارت عليه السلسلتان السابقتان، استوعبت «مكتبة الدراسات التاريخية» طائفة من الموضوعات المختارة بين التاريخ القديم والوسيط والحديث، فى مجالات وفروع عدة، ومن بينها المؤلف، وهو الأغلب، والمترجم الذى لم يتجاوز كتابا أو اثنين على الأكثر.

ويلفت النظر أن صدور هذه السلسلة تزامن مع ذروة المد الناصرى فى العالم العربى، والقومية العربية، مما انعكس على بعض الاختيارات والكتب التى نشرت فى إطارها، ومنها مثلا دراسة محمود كامل المحامى «الدولة العربية الكبرى»، وهى دراسة ضخمة جاءت تطبيقا مباشرا فى اتجاه التعريف بالتاريخ الواحد واللغة الواحدة وعناصر القومية المشتركة بين الشعوب العربية. ولهذا جاء على غلاف الكتاب الخلفى فى معرض التعريف به «وهذا أول كتاب يتحدث عن العرب وتاريخهم كأمة وجنس متميز لا كأفراد وجماعات، يستحق لما بذل فى تأليفه من جهد وما حوى من تحقيق دقيق للأحداث الماضية والأخيرة، أن يكون مرجعا تاريخيا مهما، وموسوعة يجدر بكل عربى مثقف أن يقتنيها».

أيضا من بين الكتب التى نشرت فى «مكتبة الدراسات التاريخية»، كتاب المؤرخ الجليل على حسنى الخربوطلى «تاريخ العراق فى ظل الحكم الأموى»، وهو أول دراسة لتاريخ العراق فى



فجر الإسلام، وتناول دراسة أحوال العراق السياسية والاجتماعية والاقتصادية بالتفصيل. بالإضافة إلى دراسة الحياة الثقافية والدينية منذ الفتح العربي إلى سقوط الحكم الأموي.

وفى السلسلة نفسها، نشر العلامة الدكتور إحسان عباس كتابه القيم «العرب فى صقلية ـ دراسة فى التاريخ والأدب» عام ١٩٥٩م. ولا يقتصر هذا الكتاب على كونه تاريخا لحياة الشعر العربى فى صقلية. وإنما يتناول أيضا تاريخها من النواحى السياسية والاجتماعية والثقافية. يقول مؤلفه فى مقدمته للكتاب «كان أملى حين بدأت هذه الدراسة أن تكون تاريخا لحياة الشعر العربى فى صقلية، ولكنى وجدت أن دراسة الشعر لا يمكن أن تتم دون تعميق فى فهم تاريخ صقلية من نواحيه السياسية والاجتماعية والثقافية. ولذلك قدمت البحث فى هذه الجوانب على البحث فى الشعر، متعمدا الاستقصاء والاستكثار من الحقائق، بانيا الموضوع بالتدريج دون تحليل كثير أو مقارنات ومقايسات؛ إذ لا بد فى البدء من تكوين صورة وافية لصقلية الإسلامية فى ناحيتى التاريخ والأدب قبل القيام بالقياس والمقارنة والتحليل».

كذلك من أندر الكتب وأهمها التى عالجت موضوعا صعبا ومعقدا، ولم يكن من الميسور الاطلاع على أى مصادر أو نصوص تكشف أو تلقى بعض الضوء على تفاصيله، كتاب المرحوم الدكتور محمد كامل حسين «طائفة الإسماعيلية ـ تاريخها وعقائدها» عام ١٩٥٩م وصنوه «طائفة الدروز ـ تاريخها وعقائدها» عام ١٩٦٢م. وهما كتابان منفصلان متصلان إذا جاز التعبير، يمكن لقارئهما معا أن يعد الكتاب الثانى مكملا ومتما للكتاب الأول إذا أراد.

وكتاب «طائفة الدروز ـ تاريخها وعقائدها». برغم صغر حجمه وقلة عدد صفحاته (١٣٦ صفحة من القطع الكبير)، هو أول كتاب



فى بابه يتعرض لتاريخ هذه الطائفة وعقائدها اعتمادا على نصوصهم المقدسة وكتبهم الخاصة التى كانوا يخفونها ويضنون بها على غير الخاصة من أهل المذهب أو الطائفة. وقد شرح محمد كامل حسين بعضا من أفكارهم وعرض لآرائهم المذهبية فى إيجاز شديد دون مناقشتها مع الإلمام بالأصول الفكرية والتاريخية والعقيدية التى استقى منها الدروز هذه العقائد. (قاصدا بذلك عرض أصول مذهبهم كما يرونها فى كتبهم دون تدخل منه برأى أو تفسير على أن يكون ذلك فى مؤلف أو كتاب منفصل).


د. محمد كامل حسين

والدكتور محمد كامل حسين، واحد من أنبغ تلاميذ العميد الدكتور طه حسين، وهو أول أستاذ متخصص فى الأدب المصرى فى العصور الإسلامية، وأحد القلائل من العلماء الأفذاذ الذين توفروا على دراسة الحقبة الفاطمية فى مصر وإخراج ونشر وتحقيق نصوصها التراثية النادرة التى كان من الصعب جدا أن تتوافر للباحثين، كما أنه أحد القلائل الذين ألفوا وكتبوا فى تاريخ المذاهب والطوائف الإسلامية، ولم يكتب أحد مثل ما كتب عن طائفتى الدروز والإسماعيلية والشيعة الباطنية عموما. هذا غير تأليفه العظيمة فى تاريخ الأدب المصرى فى العصور الإسلامية وخصوصا العصر الفاطمى..

ومن أبرز عناوين «مكتبة الدراسات التاريخية» التى صدرت فى إطار السلسلة وعنها:

كتاب «مصر والسودان» (فى ٥٧٢ صفحة من القطع الكبير)، للمؤرخ القدير الدكتور محمد فؤاد شكرى، وهذا السفر النفيس، يؤرخ لمصر والسودان فى فترة لم تكن تفصل بين البلدين الشقيقين أى حدود أو حواجز وكانا يشكلان معا



كيانا سياسيا واحدا. ويسجل ما اعتراهما من أحداث وحوادث مؤيدة بالوثائق والأسانيد.

ثم جاء الكتاب الفريد فى بابه، ولم يكتب مثله فى موضوعه، وهو «تاريخ الطباعة فى الشرق العربى»، لرائد تاريخ الصحافة والإعلام الدكتور خليل صابات، صدرت طبعته الأولى عام ١٩٦٦م، ويبحث هذا الكتاب فى نشأة الطباعة فى بلاد الشرق العربى وتطورها، وفى العوامل السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية التى ساعدت على تقدم هذا الفن أو جموده فى بعض بلاد هذا الشرق، وهو أول بحث من نوعه يعالج هذا الموضوع من الناحيتين الفنية والتاريخية مستندا إلى الوثائق الرسمية والإحصاءات، وهو يبين إلى أى مدى ساهمت الطباعة فى تطور وعى الشرق العربى وإلى أى حد أثرت الصحافة فى تقدم هذا الفن.

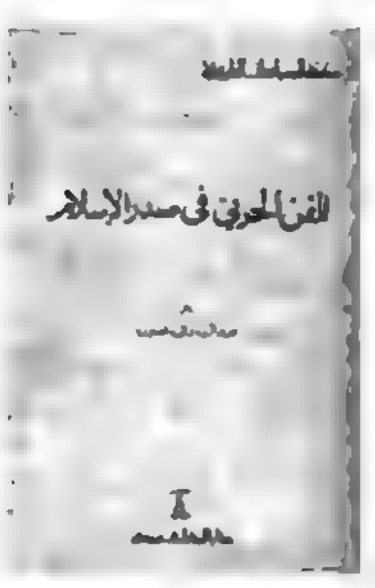
وتضمن الكتاب أيضا العديد من الصور النادرة التى تعود بالقارئ إلى الحقبة الأولى من تاريخ الطباعة، كما يعنى عناية خاصة بالتأريخ لبعض دور الطباعة التى مضت بهذا الفن قدما (ومنها أهم مادة توثيقية عن دار المعارف فى دور نشأتها الأولى حينما أسسها نجيب مترى تحت مسمى «مطبعة المعارف ومكتبتها» عام ١٨٩١م).

وكتاب «الهيلينية فى مصر من الإسكندر إلى الفتح العربى»، تأليف سير هارولد إدريس بل، وترجمة د.زكى على، وجاءت هذه الترجمة لكتاب فريد فى تنوعه حيث تناول النظم الدينية والاجتماعية والفكرية والأحداث الكبرى التى جرت فى الحوض الشرقى من البحر المتوسط فى مدة تقرب من ألف سنة، فجاء جامعا فى جملته لتراث علمى جليل، ومفصلا لظاهرة القومية المصرية وصراعها مع تيار الهلينية الجارف فى أول القرن الثالث قبل الميلاد حتى كتب لها النصر.

«سيف الدولة وعصر الحمدانيين». للأستاذ سامى الكيالى، ١٩٥٩م، ويقع فى ٢٣٥ صفحة من القطع الكبير، وهو أول دراسة



حديثة لعصر الحمدانيين فى الشام، والإمارة الزاهرة التى تأسست على يد سيف الدولة الحمدانى فى القرن الثالث الهجرى.



وكتاب «الفن الحربى فى صدر الإسلام»، للأستاذ عبد الرؤوف عون، ويعرض هذا الكتاب للتكتيكات الحربية الإسلامية ويطبقها فى أشهر معاركهم، ويتحدث عن غنائم الجند وتوزيعها، ومرتباتهم وتطورها الزمنى، والأسرى ومعاملتهم وطرق تبادلهم، ثم يتعرض إلى ذكر الحروب البحرية، وتزين هذا الكتاب بصور ورسوم لأنواع من أسلحة القتال والحصار الخفيفة والثقيلة.

وكان آخر كتاب تم نشره تحت مسمى «مكتبة الدراسات التاريخية» فى العام ١٩٦٥م، كتاب العالم الكبير سليم أنطون مرقس، «حضارات غارقة ـ قصة الكشوف الأثرية تحت البحر»، وهذا كتاب عظيم فى مجال نادر من مجالات التخصص العلمية «تاريخ علوم البحار»، ربما كان الوحيد من نوعه فى تلك الفترة الذى عالج تاريخ منشآت وآثار وحضارات غارقة على سواحل البحر المتوسط، من منظور تاريخى/ علمى، فقد أدى هبوط سواحل البحر الأبيض المتوسط بالنسبة لسطح البحر إلى غرق كثير من المنشآت البحرية؛ مثل الإسكندرية القديمة، و«صور» و«صيدا» على الساحل اللبنانى، و«أبولونيا» على الساحل الليبى، وقد ظلت هذه المنشآت الغارقة مجهولة حتى تطور فن الغوص بدرجة سمحت باستكشافها.



الفصل الخامس

طه حسين.. ودار المعارف



د. طه حسين

ليس هناك من أبناء جيلي، ومن الأجيال السابقة، من لا يذكر طبعات كتب الدكتور طه حسين بأغلفتها التي تتصدرها صورته الشهيرة بنظارته السوداء ووضعية يده أسفل ذقنه، تلك الصورة التي انطبعت في أذهاننا منذ تفتحت أعيننا على روائع طه حسين، وأعماله العظيمة في الأدب والفكر والإسلاميات والدراسات الأدبية واللغوية والتاريخية.. إلخ.

وليس هناك من له أدنى صلة بالقراءة أو اتصل بالثقافة بسبب، لم يقرأ كتابا واحدًا على الأقل لطه حسين، أو اقتنى في مكتبته واحدا من كتبه في طبعتها الأصلية المدققة المشهورة عن دار المعارف التي احتضنت طه حسين، وزهت به، وحرصت كل الحرص على اتصاله بها ونشر كتبه منذ ثلاثينيات القرن الماضي وحتى وفاته في أكتوبر سنة ١٩٧٣م. ولعل مكتبة الأعمال الكاملة لطه حسين التي اضطلعت دار المعارف بنشرها وتوفيرها لعموم القراء لأكثر من نصف القرن، كانت وما زالت هي الأهم والأقيم والأجدر بالانتقاء من بين كل الطبعات التي صدرت لكتب طه حسين (شرعية كانت وما أقلها، أو مزورة وما أكثرها خاصة في بيروت).





وحكاية عميد الأدب العربي، الدكتور طه حسين، الرجل الذى أحضر لنا الشمس والنور مع أنه عاش حياته كلها فى الظلام، مع دار المعارف، حكاية فريدة، غنية، وافرة المتعة والفائدة والتاريخ. وليس من المصادفات العابرة، أن حلت الذكرى الثانية والأربعين لرحيل عميد الأدب العربى، الدكتور طه حسين (١٨٨٩م - ١٩٧٣م) فى الثامن والعشرين من أكتوبر ٢٠١٥م، وذلك بالتزامن مع الاحتفال بمرور ١٢٥ عاما على إنشاء الصرح الأكبر فى تاريخ النشر العربى الحديث، دار المعارف التى اقترن اسمها بطه حسين، واقترن اسمه بها منذ أن انضم فى ثلاثينيات القرن الماضى إلى كتيبة الأعلام الذين تنشر لهم الدار (وقد كان على رأسهم)، وحتى الآن.

كان الدكتور طه حسين يحب دار المعارف، ويثق فيها ويكثر من زيارتها فى مختلف المناسبات (وما أكثرها فى ذلك الزمن الزاهر) ويعرض على القائمين عليها اقتراحاته وآراءه فى نشر الثقافة. وإن كثيرًا من المجموعات والسلاسل التى لا تزال الدار تقوم على نشرها حتى اليوم هى من ثمار آرائه السديدة ورعايته ومتابعته لها ومشاركته فيها أيضا.

بدأت علاقة طه حسين المباشرة بدار المعارف ذات يوم من أيام عام ١٩٣٠م، عندما اصطحب عميد الأثريين المصريين وشيخهم سليم حسن العميد طه حسين إلى مكتب شفيق نجيب مترى صاحب دار المعارف ومديرها، كى يعرض عليه طبع كتابه «قادة الفكر»، ومن حينها لم تنقطع علاقة طه حسين بدار المعارف حتى توفاه الله فى سنة ١٩٧٣م. لكن علاقة طه حسين بمطبعة المعارف ومكتبتها تعود إلى ما قبل ذلك بقليل؛ إذ كان



طه حسين وقتها فى كامل عنفوانه الفكرى ولياقته العقلية والذهنية وحضوره الطاغى، وكانت آثار معركة كتابه «الشعر الجاهلى» لم تنقشع بعد، وما زال فى الأجواء بعض من غبارها ودخانها.

ما أشد ما وقع فى قلبى من الحزن حين خطها القلم على الورق لأول مرة الفقيد لا العميد! وإن لم يكن القلم قد تعثر فخط هذه مرة فالتاريخ سيظل يردد عميد الأدب العربى فتعرفه الأجيال ما شاء الله من دهور.

لم تبق الأيام الطوال على كثير مما قيل فى ذلك اليوم العزيز على من أيام حياتى ولكنها محاولة أضع بها بين يدى هذا الجيل لمحات مما خلفه هذا اللقاء فى نفسى من أثر.

قال الدكتور سليم حسن ما معناه: إن الكاتب يكتب فيحسن ويجيد، ثم يدفع بكتابه إلى دار النشر أو الطباعة فيصدر عنها فى ثوب قد يكون قشيبا يدفع القارئ إلى الحفاوة بما يقرأ، وقد يكون هذا الثوب زريا فيجعله يعرض عن هذا الكتاب إعراضا.

فعقب حضرة عميد الأدب العربى بما معناه:



وقد جئناك اليوم بكتابى قادة الفكر ليصدر عند دارك فى هذا الثوب القشيب. فماذا أنت فاعل به؟ إذا احتفى القراء به وبمن كتبه فأنت شريك فى الفضل، وإن أعرضوا.. ولن أزيد.

ومهما أكن قد أنسيت من الألفاظ والعبارات فإننى لن أنسى وقع هذا المعنى من نفسى.

وظهر كتاب «قادة الفكر» فى ثوب عده الدكتور العميد





قشيبا.. وتحول المؤلف الكبير صديقا كبيرا، يفسح من قلبه الكبير مكانا عزيزا لشخصى ولدار المعارف، ويفسح لى من وقته الغالى ما أفضى له فيه بما يتردد فى نفسى من خواطر وأفكار.

ومن أيام دار المعارف المشهودة مع الدكتور العميد يوم الاحتفال بعيدها الذهبى (مرور خمسين عاما على تأسيسها) عام ١٩٤١م وكان قد صدر عن الدار طبعة محققة فاخرة من كتاب «كليلة ودمنة» وثق مصادرها وحقق نصها الدكتور عبد الوهاب عزام، وقدمها إلى القراء الدكتور طه حسين تقديما هو دراسة قيمة تقرأ لذاتها.



وكان شفيق مترى صاحب مطبعة المعارف المصرية ومكتبتها (دار المعارف)، قد نظم حفلاً باهرا فى منتصف العام ١٩٤١م، بمناسبة العيد الذهبى لتأسيس المطبعة، دعا إليه لفيفا من الوزراء والأدباء والمفكرين. وكان فى استقبالهم كل من أنطون الجميل ومحمد خالد حسين، ويوسف مشاقة مدير الدار. وتحدث فى الحفل مجموعة كبيرة من المفكرين والسياسيين، ومنهم: د.طه حسين، ومحمد خليل بك، وعبد العزيز البشرى، وعبد الله عفيفى بك، ومحمد أحمد جاد المولى، وحلمى عيسى باشا وزير المعارف، والدكتور على إبراهيم وزير الصحة، وفوزان السابق مندوب الوزير السعودى المفوض فى مصر، وإسماعيل تيمور بك، ومحمد توفيق رفعت رئيس المجمع اللغوى، وزكى العرابى باشا، وجعفر والى باشا، ومحمد صفوت باشا.. وآخرون.

وبهذه المناسبة ألقى حضرة صاحب العزة الدكتور طه حسين خطابا قال فيه:

"فقد كان عهدى بالكتب التى ننشرها فى مصر أنها تكلفنا ما تكلفنا من العناء فى تأليفها وإذاعتها، ثم لا نجنى منها شيئا، أو لا نكاد نجنى منها شيئا. وربما كلفتنا إلى العناء العقلى أثقالا مالية لم نكن نقدر على احتمالها فى كثير من الأحيان. فلما اتصلت بمطبعة المعارف ومكتبتها تغير هذا كله تغيرا تاما. ومن المحقق أن المرتب الذى كنت أتقاضاه من الجامعة لم يكن من شأنه أن يمكننى من الرحلة إلى أوربا فى كل عام هنالك حيث كنت أفرغ للراحة أولا، ثم للدرس والإنتاج بعد ذلك. فأنا مدين بالرحلة المنتظمة إلى أوربا، وبما أتاحت لى هذه الرحلة من راحة وإنتاج لمطبعة المعارف ومكتبتها".

وعن هذه المناسبة وما تخللها من كلمات، وخاصة كلمة طه حسين، يقول شفيق مترى:



"وألقى رحمه الله فى ذاك اليوم كلمة أرسى فيها قواعد رسالة النشر والناشرين. ومن أيامه معى يوم طرحت فيه أمامه فكرة سلسلة من الكتيبات تصدر كل شهر، زهيدة الثمن رفيعة المستوى مؤلفة غير مترجمة بأقلام كتاب من كل طرف من أطراف الوطن العربى يقرأها العرب فى كل رجا من أرجاء الوطن العربى. كان ذلك فى يوم من أيام عام ١٩٤٢م، فانطلق، رحمه الله، بما معناه: إنَّ العرب الذين نراهم اليوم منقسمين، ونرى أهواءهم شتَى. لن يجمع كلمتهم - يوم تجتمع - إلا نسيجُ فكرى متجانس، تنسج خيوطه أقلام كتَابهم جميعًا، فيشترك فى قراءة آثار أقلامهم قراء العربية قاطبة.. بمثل هذا ستجتمع كلمتهم يوما بفضل الله.

أصدر سلسلتك يا شفيق. وسمها «اقرأ»..

وقد أتحفها بكتابه الأول «أحلام شهر زاد» فكان فاتحة الخير العميم والبركة الشاملة..

ومما يرويه الأستاذ سامى الكيالى، وهو واحد من أنجب تلاميذ العميد ومريديه، أنه بعد عامين من صدور سلسلة (اقرأ) نظمت دار المعارف مسابقة عن أحسن كتاب صدر فى السلسلة فى خلال العامين، فنال كتاب «أحلام شهر زاد» للدكتور طه حسين الجائزة الأولى، لكن طه حسين طلب استبعاد كتابه من المسابقة، ففاز بها كتاب «سيدة القصور» للأستاذ على الجارم وكتاب «جحا فى جانبولاد» للأستاذ محمد فريد أبو حديد، وكانت لجنة التحكيم تتكون من: عباس محمود العقاد، أنطون الجميل، يوسف مشاقة، شفيق نجيب مترى، عادل الغضبان، وفؤاد صروف..

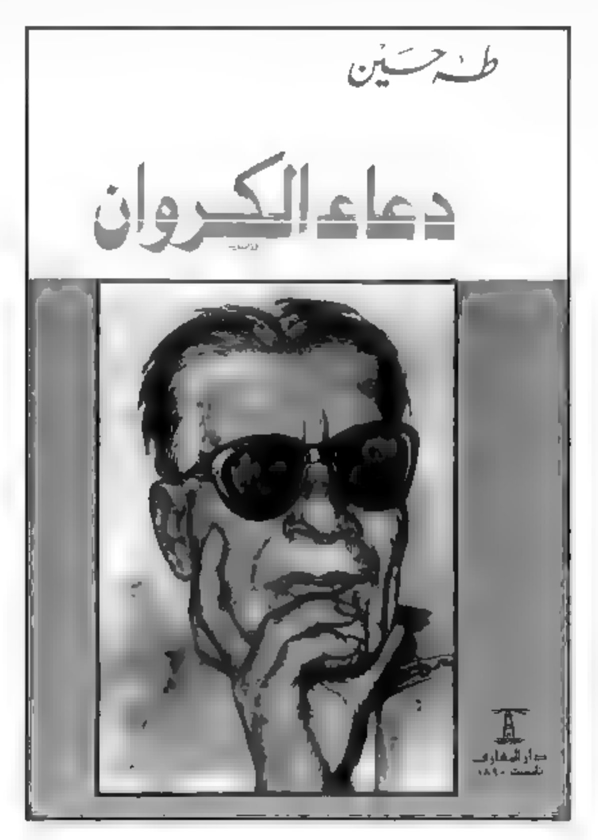
وطوال ثلاثة وأربعين عاما متصلة، نشر طه حسين الطبعات الأولى من أعماله فى دار المعارف، وأعاد نشر ما لم ينشر فيها مرات



ومـرات، وارتبط اسـم الدكتـور العميـد بكل مناسـبة عزيزة ونشـاط مبدع لدار المعـارف، وكان أحد أركانهـا الركينة فى إبداعاتها المبتكرة وسلاسلها المخترعة، يذهب إليه شفيق مترى بالفكرة تجـول بخاطره، فيؤيده ويدعمـه ويكون على رأس المشـجعين بل المشـاركين بفاعلية وحيوية فى هذا المشـروع أو ذلك النشاط.

كتبوا عن طه حسين فى دار المعارف

وليسـت مؤلفات العميد وحدها هى التى يطلبها جمهرة القراء ومحبو أدب طه حسـين، وليست كتبه وحدها التى اعتنت بها دار





المعارف وازدانت مطابعها ومكتباتها وقوائم إصداراتها بعناوينها، بل أيضا أهم الكتب التى صدرت عن طه حسين فى حياته، وعقب مماته، صدرت عن دار المعارف، وهى كلها من نفائس الكتب ونوادر المؤلفات، خصوصا منها ما اقترب من حياة العميد من واقع صداقة قريبة أو تلمذة علمية أو اتصال بدوائر الأدب والفكر التى كانت تستضيف العميد وتفيد من علمه وبصيرته.

مؤلفات طه حسين التى أصدرتها دار المعارف

أهم كتب طه حسين وأشهرها وأبقاها خرجت فى دار المعارف، وعن دار المعارف، وتعددت طبعاتها بالعشرات، ووزعت نسخها بمئات الآلاف فى مصر وخارجها، سيرته العظيمة التى فتحت بابا جديدا فى فن السيرة الذاتية «الأيام». وفى الأدب القصصى والروائى تعرف القراء أول ما تعرفوا على «دعاء الكروان» و«أديب» و«المعذبون فى الأرض» و«الحب الضائع» و«شجرة البؤس» و«رحلة الربيع» فى طبعات دار المعارف.

كتاباته الجليلة فى الأدب والنقد، لم يعرف دارسو الأدب والنقد طبعات موثقة ومدققة منها غير طبعات دار المعارف، ويأتى على رأسها «فى الأدب الجاهلى»، و«فصول فى الأدب والنقد» وكتابه الخالد «حديث الأربعاء» بأجزائه الثلاثة كاملة. وكان الجزء الأول (وهو أشهرها وأذيعها) دراسة فاتنة وبديعة استهل بها طه حسين محاولته الفذة فى اختراق غابات الشعر الجاهلى ممسكا بيد قارئه، هاديا ومرشدا ودليلا؛ للتعرف على روح الثقافة العربية فى العصر الجاهلى، وتمثيله جماليا من خلال فن العربية الأول "الشعر". وكان طه حسين فى هذا الكتاب رائدا لأرض غير مطروقة، ووجه أنظار النقاد ودارسى الشعر القديم ومتخصصيه إلى ضرورة التوسط بين المقبلين على قراءة ودرس الشعر القديم بتشابكاته اللغوية والجمالية والفنية وبين النصوص ذاتها. فتح طه حسين الباب



واسعا، لقراءة وتحليل الشعر العربى وتذوقه فى عصور ازدهاره، وفى الجزئين الثانى والثالث من «حديث الأربعاء» سار طه حسين على ذات النهج فى درسه للحياة الأدبية والاجتماعية فى عصر الدولتين الأموية والعباسية، ولأول مرة فى تاريخ الدراسة الأدبية يتعرض العميد لشعراء الدعابة والمجون واللهو ليكشف عن جوانب مثيرة من الحياة الأدبية والاجتماعية، ومن خلالها ينطلق لتصوير معركة القيم والحديث فى أدبنا المعاصر.

وهناك العديد من الكتب التى نشرتها دار المعارف لرائدنا الكبير تعد "محطات" فى تاريخ الثقافة المصرية منها مثلا على هامش السيرة ، ومستقبل الثقافة، والفتنة الكبرى..





الفصل السادس

نجوم تألقت فى دار المعارف

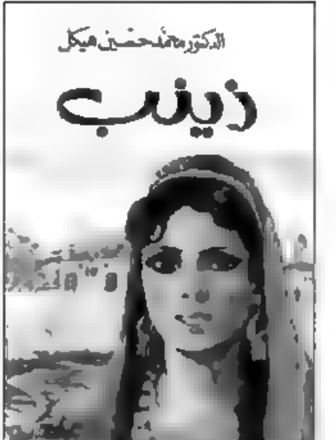
محمد حسين هيكل (١٨٨٨م - ١٩٥٦م).. مؤرخ السيرة النبوية



محمد حسين هيكل

أديب وصحفى، وروائى ومؤرخ وسياسى مصرى كبير، صاحب أول رواية عربية باتفاق نقاد الأدب العربى الحديث، كما أنه قدم التاريخ الإسلامى من منظور جديد يجمع بين التحليل العميق، والأسلوب الشائق، وكان أديبا بارغا، كما كان له نشاط كبير فى التاريخ السياسى المصرى الحديث. ولد عام ١٨٨٨م بمحافظة الدقهلية لأسرة ثرية، توجه فى صغره إلى الكتّاب، ثم التحق بمدرسة الجمالية الابتدائية، وأكمل دراسته بعدها بمدرسة الخديوية الثانوية. ثم قرر الالتحاق بمدرسة الحقوق المصرية عام ١٩٠٩م. سافر بعد ذلك إلى فرنسا ليحصل من هناك على درجة الدكتوراه. وعاد هيكل إلى مصر عام ١٩١٢م، واشتغل بالصحافة حتى عام ١٩١٧م، مارس بعدها التدريس الجامعى حتى عام ١٩٢٢م إلا إنه ضاق ذرعًا بالعمل الوظيفى، فقرر الاستقالة ليتفرغ للعمل السياسى، فكان أحد أعضاء مجلس إدارة حزب الأحرار الدستوريين، ورئيسا له فيما بعد، كما تقلد منصب رئيس تحرير جريدة «السياسة» التى أسسها الحزب، وتقلد عدة مناصب حكومية رفيعة منها





توليه لوزارة المعارف ثلاث مرات، وتوليه لوزارة الشئون الاجتماعية، كما كان رئيسا لمجلس الشيوخ، ورئيسا لوفد مصر فى الأمم المتحدة عدة مرات.

مر التطور الفكرى لهيكل بمراحل، حيث بدأ حياته الفكرية مؤمنا بالقيم الغربية، والنزعة الفرعونية التى شهدت تناميا بسبب تقدم الدراسات الأوربية فى حقل «المصريات»، إلا إنه بعد إمعان النظر، بدأ يخضع ما يراه من سلوكيات اجتماعية وأخلاقية مصاحبة للحداثة الغربية للنقد، حيث عاصر الوجه القبيح للمشروع الحضارى الغربى الذى أدى لقيام الحرب العالمية الأولى والثانية والتى تسببت فى مقتل أكثر من خمسين مليون إنسان، كما عايش الظاهرة الاستعمارية ورأى كيف أن الديمقراطية الغربية تكيل بمكيالين.

لم يكن متصومعا على نفسه، يحلق بفكره فى أبراج عاجية تنأى عن هموم الناس ومشاكلها اليومية، بل كان رجل فكر وحركة، فكما كان يكتب فى الفلسفة والتاريخ والأدب، كان فى الوقت ذاته رائدا من رواد العمل السياسى العام فى مصر الحديثة، يكافح من أجل استقلال مصر. وقد توفى الدكتور هيكل عام ١٩٥٦م، بعد ثمانية وستين عاما قضاها فى جهاد فكرى وحركى.

وقد نشرت له دار المعارف العديد من مؤلفاته.. منها :

١ ـ حياة محمد.

٢ ـ الصديق أبو بكر.







٣ـ الفاروق عمر.
٤ـ جان جاك روسو وكتبه (ثلاثة أجزاء).
٥ـ تراجم مصرية وغربية.
٦ـ فى أوقات الفراغ.
٧ـ مذكراتى فى السياسة المصرية (ثلاثة أجزاء).

عباس محمود العقاد (١٨٨٩م - ١٩٦٤م)


عباس محمود العقاد

والعقاد غنى عن التعريف، فهو عبقرى من عباقرة الأدب العربى، وشاعر ومؤرخ وفيلسوف مصرى، برغم تخرجه من المرحلة الابتدائية فقط فإنه شغفه بالقراءة والبحث جعله يقبل على العلم ويستزيد منه، فأصبح بذلك علما من أعلام الفكر وأنصار التجديد فى الأدب. عرف بمعاركه الأدبية مع كبار الكتاب، فاختلف مع طه حسين وغيره من النقاد بسبب قراءاته التحليلية المتفردة والخارجة عن المألوف، حظى بإعجاب وتقدير نظرانه



الذين وجدوا فى أدبه نبض الحياة المصرية الحديثة. من أشهر أعماله «العبقريات» وهى سلسلة من المؤلفات التى استهلها بـ «عبقرية محمد» وختمها بـ «عبقرية المسيح».

انفردت دار المعارف وطوال أكثر من ثلاثة عقود فى حياته، بنشر الإنتاج الفكرى لعباس محمود العقاد، أشهرها وأظهرها وأبقاها أثرا وتأثيرا، أخرجته دار المعارف. وحتى بعد رحيله تعددت طبعات العشرات من كتبه فى الإسلاميات، والسير والتراجم، والدراسات الأدبية واللغوية، والدراسات التاريخية.. إلخ.

فى سلسلة «نوابغ الفكر العربى» صدر الكتاب الأول عن «ابن رشد» بتوقيع العقاد، وفى هذا الكتاب يظهر ابن رشد ظهورا واضحا ممهدا له بذكر حركات العلم والسياسة والاجتماع، فتنجلى للقارئ الكريم بعد هذا التمهيد جوانب كثيرة من حياة الفيلسوف العربى الذى كان منفعلا بعصره وفاعلا فيه وفى ما تلاه من عصور.

وفى سلسلة «اقرأ» أخرج العقاد ما يزيد على الكتب العشرة كلها صارت من أشهر أعماله وأكثرها طباعة ورواجا ربما حتى الآن.. أما كتبه الأخرى التى أخرجها فى كتب النشر العام، فهى كثيرة جدا، لكن من أهمها على الإطلاق:

«اليوميات» و«الفصول» و«الخلاصة»..

أما «اليوميات» التى تقع فى ٤ مجلدات ضخام من القطع الكبير، فمقالات كتبت بمبضع الجراح لا يشق إلا بتقدير ولا يقطع إلا بمقدار. تحلت بالقوة وتنوعت فيها المعارف؛ فمن



فصول فى الدين والفلسفة وعلم النفس إلى نظرات فى السياسة والاجتماع والاقتصاد إلى دراسات فى العلوم والآداب والفنون.

ويأتى مجلد «الإسلاميات» الذى طبع عشرات الطبعات، وضم بين دفتيه سبعة كتب أساسية.

«أشتات مجتمعات فى اللغة والأدب».. فى هذه الصفحات فصول متفرقة يجمعها غرض واحد هو تصحيح بعض الأخطاء فى النظر إلى اللغة العربية والحكم على مكانتها بين اللغات العالمية التى تصلح لأداء رسالة العلم والثقافة فى القرن العشرين.





ونشرت له دار المعارف أيضا..

١ - الديمقراطية فى الإسلام.

٢ - كتاب الله.

٣ - تذكار جيتى.

٤ - التعريف بشكسبير.

٥ - أثر العرب فى الحضارة الأوربية.

سهير القلماوى (١٩١١م - ١٩٩٧م).. رائدة دراسات «ألف ليلة وليلة»


سهير القلماوى

كانت سهير القلماوى بطبيعة تكوينها وثقافتها تجمع بين القديم والحديث، تعلمت الجديد فى المدارس الأجنبية التى درست بها قبل أن تلتحق بقسم اللغة العربية بكلية الآداب، وأتقنت العديد من اللغات الأوربية (الإنجليزية والفرنسية)، واستعدت لدخول كلية الطب، ولكن كلية





الطب لم تقبل أوراقها لأنها فتاة، فقد كانت الجامعة المصرية تتردد فى قبول الطالبات حتى عام التحاق سهير القلماوى بها. وذهب والدها الطبيب الشهير إلى طه حسين ليعينه على حل مشكلة ابنته، ولكن طه حسين صرف نظر الطالبة عن كلية الطب، وأقنعها بالالتحاق بكلية الآداب، والدراسة فى قسم اللغة العربية الذى كان أشهر أساتذته.

ويبدو أن شخصية طه حسين الساحرة جذبت الفتاة سهير القلماوى إليه، فتعلقت به، واتخذته أبا ثانيا وأستاذا ومشرفا ورائدا ومثلا أعلى فى الحياة، وأجلها الأستاذ وأعجب بها، ووجد فيها نموذجا للمرأة الجديدة التى كان المثقفون المصريون يحلمون بها منذ أن كتب قاسم أمين كتاب «المرأة الجديدة» ونشره سنة ١٩٠٠م من القرن الماضى.

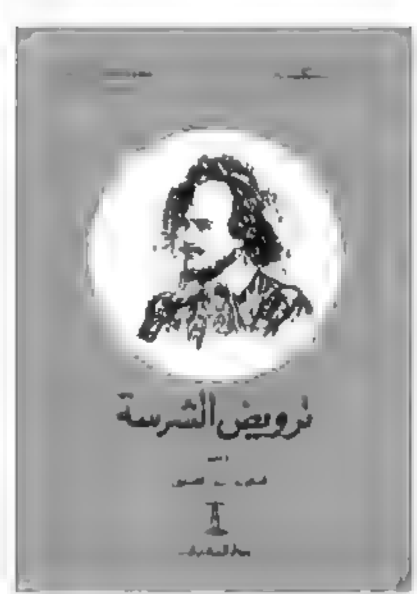
وبعد أن حصلت على درجة الدكتوراه، انتهى بها الأمر أستاذة للأدب الحديث ونقده فى قسم اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب جامعة القاهرة، ثم أصبحت رئيسة للقسم، فكانت الفتاة الأولى التى تدخل كلية الآداب، والفتاة الأولى التى تحصل على درجة الدكتوراه من جامعة مصرية، والأستاذة الأولى التى تترأس قسما من أقسام الدراسات العلمية بالجامعة، وكانت فى إشرافها على القسم، كما يروى تلامذتها، نموذجا للحزم الإدارى، والصلابة الموضوعية، والمواقف المحايدة العادلة.

تزوجت سهير القلماوى من المرحوم يحيى الخشاب الأستاذ الرائد فى اللغات والآداب الشرقية (اللغة الفارسية وآدابها)



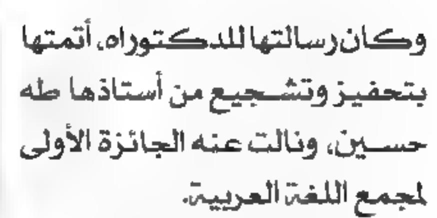
وصاحب الترجمة المهمة لرحلة ناصر خسرو الشهيرة «سفرنامه» وصاحب الكتب والدراسات المرجعية فى الأدب الفارسى.. تولت منصب أستاذ الأدب العربى الحديث بكلية الآداب عام ١٩٥٦م، ثم منصب رئيس قسم اللغة العربية (١٩٥٨م - ١٩٦٧م). كما تولت الإشراف على (دار الكتاب العربي)، ثم الإشراف على مؤسسة التأليف والنشر فى الفترة من (١٩٦٧م - ١٩٧١م)، وأسهمت فى إقامة أول معرض دولى للكتاب بالقاهرة عام ١٩٦٩م والذى يشمل على الأخص جناحا خاص بالأطفال وهو ما استمر بعد ذلك ليصبح فيما بعد المعرض السنوى لكتب الطفل، فى عام ١٩٧٩م أصبحت عضوًا بمجلس الشعب عن دائرة حلوان، وشاركت فى عضوية مجلس اتحاد الكتاب، واختيرت عضوا بالمجالس المصرية المتخصصة. ومثلت مصر فى العديد من المؤتمرات العالمية..

نالت سهير القلماوى العديد من الجوائز والأوسمة منها: جائزة الدولة عن كتابها «المحاكاة فى الأدب» عام ١٩٥٥م، وجائزة الدولة التقديرية فى الآداب عام ١٩٧٧م، ووسام الجمهورية من الطبقة الأولى عام ١٩٧٨م.



ارتبط اسم الأستاذة الجليلة، تلميذة طه حسين النجيبة، بدار المعارف ارتباطا وثيقا منذ بدأت مسيرتها الأكاديمية ورحلتها مع البحث والتأليف، فصدرت أوفى طبعة من كتابها التأسيسى المرجعى «ألف ليلة وليلة - دراسة وتحليل» فى مكتبة الدراسات الأدبية (الكتاب رقم ٦) عام ١٩٥٦م، بتصدير طه حسين،





وكان رسالتها للدكتوراه، أتمتها بتحفيز وتشجيع من أستاذها طه حسين، ونالت عنه الجائزة الأولى لمجمع اللغة العربية.

هذا الكتاب الذى فتح الباب واسعا أمام طلاب الدراسات الشعبية، أدارته الدكتورة سهير القلماوى حول الكتاب الساحر «ألف ليلة وليلة»، أعظم ما أنتجه الخيال الإنسانى من إبداع فى قص الحواديت وسرد الحكايات، واحتل مكانة مرموقة فى الآداب العالمية ككتاب قصص رائع وخالد...

وعن طبعة دار المعارف، صدرت طبعات عديدة مصورة، ومزورة أيضا، ولا زال هذا الكتاب حتى الآن محل اهتمام الباحثين والدارسين فى مجال الدراسات الشعبية بصفة عامة، ودراسات ألف ليلة وليلة بصفة خاصة.

وعندما اضطلعت دار المعارف بإخراج «مسرحيات شكسبير» ضمن مشروع ضخم مولته وقامت عليه الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية بتوجيه وإشراف الدكتور طه حسين، اشتركت سهير القلماوى فى ترجمة ومراجعة المسرحيات الآتية: «هنرى السادس» (جزءان)، «تيتوس أندرونيكوس»، «كوميديا الأخطاء»، «سيدان من فيرونا»، «روميو وجولييت»، «ترويض الشرسة»، «مأساة الملك ريتشارد الثانى»، «الليلة الثانية عشرة»، «هاملت أمير دانمركة»، «ترويلوس وكريسيدا»..

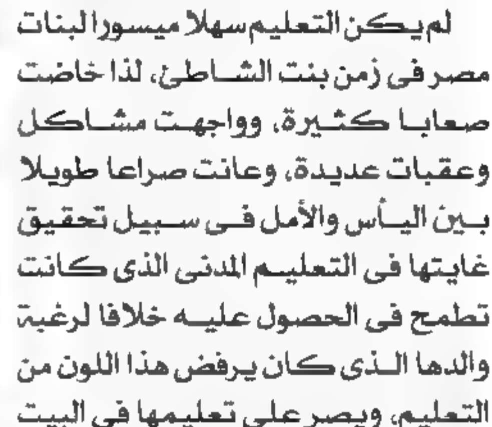
فى عام ١٩٥٨م أصدرت سهير القلماوى كتابها الممتع «العالم بين دفتى كتاب» الذى بنت فكرته على ترجمة مقالات عن القراءة وأنواعها وطرائقها المختلفة كانت تتصرف فيها إلى حد



كبير وتستبدل بنماذجها الغربية الموجهة للقارئ الأوربى فى المقام الأول نماذج عربية من التراث أو الأدب المعاصر. وكان من بين مقالات الكتاب مقالا بعنوان «القراءة المثمرة» اختير ضمن دروس المطالعة والقراءة لطلاب مراحل التعليم الأساسى.

وفى عام ١٩٦٥م، صدر كتابها «ثم غربت الشمس»، عن نهاية الوجود الإسلامى فى الأندلس وزوال دولة بنى نصر الأحمر فى غرناطة، فى سلسلة (اقرأ)، العدد ٧٦، وكتابها «ذكرى طه حسين» صدر أيضا فى سلسلة (اقرأ) العدد ٣٨٨، نوفمبر ١٩٧٣م.

عائشة عبد الرحمن (١٩١٣م - ١٩٩٨م).. بنت الشاطئ



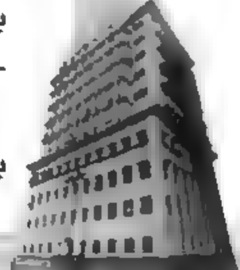


د. عائشة عبد الرحمن

لم يكن التعليم سهلا ميسورا لبنات مصر فى زمن بنت الشاطئ، لذا خاضت صعابا كثيرة، وواجهت مشاكل وعقبات عديدة، وعانت صراعا طويلا بين اليأس والأمل فى سبيل تحقيق غايتها فى التعليم المدنى الذى كانت تطمح فى الحصول عليه خلافا لرغبة والدها الذى كان يرفض هذا اللون من التعليم، ويصر على تعليمها فى البيت شأن بنات البيوت المحافظة التى لا تسمح للبنات بدخول المدارس.

لقد تكون البناء العلمى والثقافى لبنت الشاطئ على أساس العلوم العربية كالنحو والأدب، والعلوم الإسلامية كعلوم التفسير والحديث، وأثمرت الشدة فى تحصيل هذه العلوم، وحفظ بعضها إلى تكوين شخصية أدبية وعلمية عظيمة تميزت بها بنت الشاطئ عندما اجتازت مرحلة طفولتها، وتدرجت فى مراحل حياتها، إلى أن أصبحت رمزا من رموز العلم والخلق والمعرفة.

تخرجت عائشة عبد الرحمن فى قسم اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب جامعة القاهرة عام ١٩٣٩م، بعد أن حصلت على



الليسانس الممتازة، وعينت معيدة بالقسم ذاته فى العام نفسه، وبعد ذلك بعامين حصلت على الماجستير سنة ١٩٤١م بمرتبة الشرف الأولى، ثم حصلت على الدكتوراه بدراستها المهمة عن «رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى» سنة ١٩٥٠م بتقدير ممتاز، وقد كانت بهذه الرسالة قد ازدادت شهرة لتحقيقها ودراستها لنص من نصوص الأدب الصعبة فى التراث العربى، أثبتت فى البحث العميق فيه كفاءتها العملية، واستعرضت علمها الواسع بتراث الأدب العربى فى نماذجه الجليلة الأصيلة، وأشرف عليها فى هذه الرسالة الدكتور طه حسين، عميد الأدب العربى، وكان وزيرا للمعارف وقتها. وقد أشاد طه حسين بعملها الجاد فى هذا البحث، وأشاد بها أعضاء المناقشة كذلك.

تولت الدكتورة بنت الشاطئ كثيرا من المناصب العلمية المهمة، أستاذة بقسم اللغة العربية بكلية الآداب جامعة عين شمس من سنة ١٩٦٢م، وأستاذة التفسير والدراسات العليا بكلية الشريعة جامعة القرويين بالمغرب عام ١٩٧٠م، وأستاذة منتدبة بمعهد الدراسات العربية التابع لجامعة الدول العربية بالقاهرة عام ١٩٦٢م، وأستاذة منتدبة بمركز تحقيق التراث، بدار الكتب القومية بالقاهرة عام ١٩٦٨م.

كان للدكتورة بنت الشاطئ دور كبير فى إثراء الحياة العلمية والثقافية بجهودها الثقافية وحضورها العلمى ليس فى مصر وحدها وإنما فى العالم العربى، فقد كانت أستاذة زائرة



لكثير من الجامعات العربية مثل : جامعة أم درمان الإسلامية، وجامعة الخرطوم، وجامعة القاهرة فرع الخرطوم، وجامعة الجزائر، وجامعة بيروت العربية، وجامعة الإمارات العربية، وكلية التربية للبنات بالرياض. ولم يقتصر دور الدكتورة «بنت الشاطئ» الثقافي والعلمي على المجال الجامعي، بل امتد إلى كثير من المؤسسات والهيئات الثقافية التي شرفت بعضويتها مثل : المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، والمجلس الأعلى للثقافة، والمجالس القومية المتخصصة.

قامت الدكتورة «بنت الشاطئ» عبر رحلتها العلمية الثقافية الحافلة بالعطاء بتأليف عدد كبير من الكتب والأبحاث، كما شاركت في عدد كبير من المؤتمرات المصرية والعربية والعالمية، وكانت وجها مشرقا للأستاذة المصرية التي مثلت الشخصية المصرية في إسهامها في رقي العلوم والفنون والآداب عبر عصور الإنسانية منذ تاريخ طويل ضارب في أعماق الحضارة والعلم والإيمان.

ارتبط اسم بنت الشاطئ بدار المعارف منذ خطت خطواتها الأولى في عالم التأليف والكتابة، وبعد حصولها على درجة الدكتوراه عن تحقيقها لرسالة الغفران لأبي العلاء المعري، ونالت جائزة مجمع اللغة العربية لتحقيق النصوص عن عملها هذا سنة ١٩٥٠م، صدرت الطبعة الأولى من «رسالة الغفران» لأبي العلاء المعري بتحقيق عائشة عبد الرحمن عن سلسلة «ذخائر العرب».







ونشرت دراستها المفصلة عنه أيضا فى كتاب مستقل صدر عن «مكتبة الدراسات الأدبية» بعنوان «رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى» وفى عام ١٩٥١م، صدر لها ضمن إصدارات سلسلة (اقرأ)، العدد ١٠٤، كتابها الصغير الممتع «أرض المعجزات» (رحلة فى جزيرة العرب). وعن دار المعارف أيضا، صدر كتابها «قيم جديدة للأدب العربى القديم والمعاصر».

وأما إسهامات بنت الشاطئ فى دراسة اللغة العربية والكشف عن أسرارها الجمالية البلاغية خاصة فى أسلوب القرآن الكريم، فقد احتلت مساحة كبيرة من إنتاجها العلمى والبحثى. وصدر لها فى هذا الإطار عدة كتب ودراسات صدرت كلها عن دار المعارف.

من أشهر هذه الكتب «التفسير البيانى للقرآن الكريم» الذى صدر فى جزئين عن «مكتبة الدراسات الأدبية».

وصدر لها أيضا «من أسرار العربية فى البيان القرآنى»، الذى درست فيه البيان القرآنى والإعجاز القرآنى مبينة ما يتميز به أسلوب القرآن الكريم من فصاحة عربية تعد مثلا رفيعا لجمال أسلوب اللغة العربية وأثره فى النفس. كما كشفت



بنت الشاطئ فى هذا الكتاب أثر دراسة البيان القرآنى فى معرفة أسرار اللغة العربية فى قراءة منهجية دقيقة لدراسة الحرف واللفظ القرآنى فى المصحف كله، لتبين سياقه الخاص فى الآية والسورة، وسياقه العام فى القرآن الكريم كله، وهو المنهج الذى تأثرت فيه بأمين الخولي.

أما فى كتابها «لغتنا والحياة»، الذى صدرت طبعته الأولى عن دار المعارف، فقد ربطت بين اللغة العربية؛ قديمها وحديثها، ضمن ما اهتمت به من القضايا الحيوية «إذ يظل موضوع اللغة جديدا ما بقيت هذه العربية - أى اللغة العربية أداة نطقنا وتفكيرنا، ولسان قوميتنا، ووسيلة الثقافة والتعبير عن إنسانيتنا. واللغة التى تصلنا بتراث أسلافنا، وتاريخ أمتنا، وبها نتفاهم ونلتقى عبر حدود الزمان والمكان».

وفى كتابها «تراثنا بين ماض وحاضر» تدعو الدكتورة عائشة عبد الرحمن إلى نهوض الأمة العربية، وتقرر أن التراث يستوعب الماضى والحاضر والمستقبل. لا يعنى الاهتمام بالتراث القديم إهمال متطلبات التجديد فى العصر الحديث، ولا يعنى التجديد إنكار التراث القديم الذى يمثل الذات العربية، والشخصية القومية.





شوقى ضيف (١٩١٠م ٢٠٠٥م).. شيخ مؤرخى الأدب العربى



نظـرة واحدة إلى قائمة مؤلفاته المطبوعة، وتحقيقاته، تجعل منه حالة فريدة فى ضخامة الإنتاج الفكرى واسـتمراره، أو عدم انقطاعه، سـواء من الناحيـة الكمية أو الكيفية. ولو قسـمنا عـدد الكتـب التـى أصدرها علـى سـنوات عمره (توفـى رحمه الله عـن خمسـة وتسـعين عامـا) لكانـت المحصلـة أكثر من كتاب على امتداد نصف قرن من النشـاط الأكاديمى الخصب. والنتيجـة هى أنـه لا يمكن أى قارئ أن يمضى فـى معرفة الأدب العربـى وتاريخـه الممتـد وبيئاته المتنوعـة مـن دون أن يرجع إلى كتب شوقى ضيف، ويجد فيها من ثراء المعلومات وشمول المنظور مـا لا يجده عند غيره. والأمر نفسـه ينطبق علـى مجالات التراث البلاغى والنقدى، والتراث اللغوى والنحوى، والدراسات الإسلامية والحضارية، وهى المجالات التى تظل كتابات شـوقى ضيف فيها أشبه بالمنارة التى يستهدى بها السائر فى عتمات البحث العلمى، أو حتـى الثقافـى التى تسـعى إلى استكشـاف الآفـاق المتعددة لأنشطتها وموروثاتها.



وإذا كان المرحوم شوقى ضيف قد فتن بالعقاد وكتب عنه كتابه الصغير القيم «مع العقاد»، وقال عنه "لم يكتسب العقاد مكانته الأدبية الرفيعة من جاه ولا من وظيفة ولا من لقب علمى، وإنما اكتسبها بكفاحه المتصل العنيف الذى يعد به أعجوبة من أعاجيب عصرنا النادرة!"، فإن هذه العبارة تنطبق بحذافيرها على شوقى ضيف نفسه.

تنوعت مؤلفات شوقى ضيف وتعددت على نحو يدعو إلى الإكبار والإجلال والإعجاب والاندهاش فى الوقت نفسه، فما أنجزه ذلك العالم الجليل، كما وكيفا، يمثل حالة نادرة من حالات الرهبنة العلمية والتصوف الفكرى والإخلاص الأكاديمى والدأب البحثى الذى قل نظيره. ولذلك يصعب تصنيف جهود شوقى ضيف فى مجال واحد أو تخصص محدود. فقد كتب فى كل فروع الدراسات الأدبية والبحث النقدى وتاريخ الأدب والدراسات الدينية؛ كتب فى (الشعر) و(النثر) و(البلاغة) و(النقد) و(النحو) و(اللغة) و(التاريخ) و(التراجم والسير) و(التفسير القرآنى) و(السيرة النبوية) و(دراسة الحضارة) و(تحقيق التراث)..





ولا غرابة - والأمر كذلك - فى أن يكتب بعض تلامذته عنه كتبا تؤكد قيمته الاستثنائية، وأن ينال تكريم العديد من المؤسسات العلمية والأكاديمية، فتاريخه العلمى حافل فى الجامعة، وفى مجامع اللغة العربية

على السواء، ومؤلفاته تزيد على الخمسين كتابا ومؤلفا، وستة كتب محققة، أولها «الرد على النحاة» لابن مضاء القرطبي، وثانيها القسم الخاص بالأندلس من كتاب «المغرب في حلى المغرب» لابن سعيد، وثالثها كتاب «السبعة قراءات» لابن مجاهد، ورابعها «الدرر في اختصار المغازي والسير» لابن عبد البر، وخامسها «نقط العروس في تواريخ الخلفاء» لابن حزم، وهي رسالة طبعها في الجزء الثاني من المجلد الثالث عشر لمجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة. أما التحقيق الأخير فهو «رسائل الصاحب بن عباد» (بالاشتراك) الذي طبعته دار الفكر العربي.

ظل يعمل فيه منذ أن أصبح معيدًا سنة ١٩٣٦م، ونال فيه درجة الماجستير بمرتبة الشرف سنة ١٩٣٩م، والدكتوراه بمرتبة الشرف الممتازة سنة ١٩٤٢م. وترقى في هذا القسم إلى وظيفة مدرس بعد حصوله على الدكتوراه سنة ١٩٤٢م، وانتقل إلى درجة أستاذ مساعد سنة ١٩٤٨م، وأصبح أستاذًا لكرسي آداب اللغة العربية في القسم نفسه سنة ١٩٥٦م، ثم رئيسا له سنة ١٩٦٨م. وحين جاوز الستين عُيِّن أستاذًا غير متفرغ سنة ١٩٧٥م، ثم أصبح أستاذا متفرغًا إلى وفاته في شهر آذار مارس الماضي.

وتعني هذه السيرة الجامعية أن الرجل ظل يقوم بالتدريس والإشراف والتوجيه الجامعي على امتداد سبعين عامًا، وأنه ظل يسهم في تكوين أجيال عدة توزعت على أقطار الوطن العربي،



وأسهمت فى تأسيس جامعاته التى لم يبخل عليها شوقى ضيف بالعطاء، فقد تولى التدريس فى جامعة بيروت العربية أستاذًا زائرًا سنة ١٩٦٣م، ودعته الجامعة الأردنية للمشاركة فى تأسيسها سنة ١٩٦٦، وجامعة بغداد سنة ١٩٦٨م، وشارك فى تأسيس جامعة الكويت سنة ١٩٧٠م، وحاضر فى جامعة الرياض سنة ١٩٧٣م، الأمر الذى كان يصله بتلامذة جدد -إلى جانب الأجيال الأقدم- من أبناء هذه الأقطار التى تدين له جامعاتها بعطائه الذى انطلق من وعيه القومى الذى دعمه إيمانه «بوحدة التراث العربى».

ولولا هذا الإيمان ما كانت فاعليته فى مجمع اللغة العربية الذى دخله عضوًا عاملًا سنة ١٩٧٦م، وانتخب أمينًا عامًا له سنة ١٩٨٨م، ثم نائبًا للرئيس سنة ١٩٩٢م ورئيسًا سنة ١٩٩٦م، لا يكف عن تأكيد وحدة الثقافة العربية فى مؤتمرات المجمع الثقافية. ولذلك أصبح رئيسًا لاتحاد المجامع اللغوية العلمية العربية سنة ١٩٩٦م، وذلك فى الأجيال الكثيرة اللاحقة. وأصبح عضو شرف فى المجمع العلمى الأردنى والمجمع العلمى العراقى بعد رحلة طويلة من التأثير فى الأكاديميين العرب الذين تتلمذوا عليه







فى المجالات المتنوعة التى ترك فيها علاماته وكتاباته. ولا غرابة - والأمر كذلك - فى أن تكرمه المجامع العربية والهيئات الثقافية التى منحته جوائزها، وعلى رأسها جائزة الملك فيصل العالمية.

أما أعظم ما ألف الدكتور شوقى ضيف فهو موسوعته الضخمة «تاريخ الأدب العربى» بمجلداتها العشرة التى استغرق العمل فيها ما يقرب من ثلاثين عاما، ثلاثة عقود متصلة يعمل فيها بدأب وإصرار وتجرد إلى أن أتم أوفى وأكمل موسوعة عن تاريخ الأدب العربى عبر عصوره المتعاقبة، يكتبها وللمرة الأولى مؤرخ أدب عربى.

وهذه المجلدات العشرة ألقت الضوء على بيئات ظلت مجهولة فى تاريخ الأدب العربى، وظلت أدوارها بعيدة عن اهتمام دارسى الأدب العربى، مثل ليبيا وتونس وصقلية وإيران وإفريقيا وغيرها من البيئات، والتى أسهم إلقاء الضوء عليها فى استكمال اللوحة البانورامية الكبرى لمسيرة الأدب العربى فى بيئاته المعروفة وغير المعروفة، وذلك على نحو غير مسبوق فى شموله وثرائه ودقته.

وخرجت الأجزاء العشرة على النحو التالى: الجزء الأول عن «العصر الجاهلى» الذى أصدرت منه دار المعارف بالقاهرة أكثر من اثنتين وعشرين طبعة إلى اليوم، وبعده جاء الجزء الثانى، كتاب «العصر الإسلامى» الذى صدرت له تسع عشرة طبعة، ثم الجزء الثالث عن «العصر العباسى الأول»، والجزء الرابع عن «العصر العباسى الثانى».

وجاء الجزء الخامس عن «عصر الدول والإمارات» الممتد من سنة ٣٣٤ للهجرة إلى مشارف العصر الحديث، والذى يتعرض لتاريخ الشعر فى الجزيرة العربية والعراق وإيران. وهو الجزء الذى يكتمل بالجزء السادس عن «الشام»، فى عصر الدول والإمارات، وبعده الجزء السابع من العصر نفسه عن «مصر»، ثم الجزء الثامن عن «الأندلس». أما الجزء التاسع فكان عن «ليبيا وتونس



وصقلية»، بينما انفرد الجزء العاشر والأخير بالأدب فى «الجزائر والمغرب الأقصى وموريتانيا والسودان». ويمكن لأى قارئ متخصص أن يدرك على الفور سبق شوقى ضيف، فى موسوعته التاريخية، إلى التأريخ لأقاليم وأقطار، لا نجد لها تاريخا أدبيا يغطى عصورها التراثية المختلفة، كما حدث مع ليبيا وتونس وصقلية وموريتانيا والسودان وأشباهها.

وهناك، إلى جانب هذا الجهد الاستثنائى، فى التأريخ للأدب العربى عبر عصوره وأقطاره، العشرات من كتبه الأخرى فى مجالات الأدب العربى وفنونه، وكلها صدر عن دار المعارف.





الفصل السابع

مجلة أكتوبر.. ٤٠ عامًا من عمر مصر

بلا شك، تمثل أربعة عقود من عمر مجلة «أكتوبر» التى ارتبط اسمها بدار المعارف منذ النصف الثانى من سبعينيات القرن الماضى، فترة عامرة ومزدحمة بجلائل الأعمال والمواقف والتفاصيل، شخصيات ومشاهير ولحظات تاريخية، هى جزء من تاريخ هذا الوطن، فى الوقت الذى كانت فيه أيضا شاهدة عليه وموثقة له. أربعة عقود شهدت فيها المجلة سنوات أمجاد لا تتكرر، كما شهدت فترات نكوص لعبت فيها عوامل عديدة فعلها، لكن التاريخ لا يكذب ولا يتجمل، والتاريخ يقول لنا، عبر شهادات وكتابات ووثائق أصيلة، وشهود عدل، إن هذه المجلة التى تأسست بقرار من الرئيس الراحل أنور السادات فى أواخر شهر أكتوبر سنة ١٩٧٦م، كانت حدثا جللا بكل المقاييس، وكانت إضافة حقيقية ومتميزة



شفيق مترى يطالع أكتوبر الإنجليزية




السادات يقرا اول عدد لأكتوبر مع أنيس

فى مسيرة الصحافة المصرية، واستطاعت بفضل النخبة المختارة التى قامت على أكتافها هذه المجلة أن تتصدر الساحة الصحفية بامتياز واقتدار واستحقاق لما يزيد على عشرة أعوام متصلة.

يشهد هذا الفصل من تاريخ دار المعارف، ومجلة أكتوبر، تحولا جذريا فى مسيرة المؤسسة الأعرق فى عالم النشر، فبعدما كانت منفردة بنشاطها التنويرى والتثقيفى والمعرفى الكبير، طيلة ما يقرب من خمسة وثمانين عاما، أصبحت دار المعارف رائدة فى مجال النشر الصحفى وإصدار المجلات الصحفية، لتصبح واحدة من أكبر المؤسسات الصحفية القومية فى مصر خلال أربعين عاما. وذلك بعد أن صدر تكليف الرئيس الراحل محمد أنور السادات إلى الكاتب الصحفى الكبير أنيس منصور بإصدار مجلة أكتوبر، على أن يكون رئيسا لتحرير المجلة الوليدة، ورئيسا لمجلس إدارة دار المعارف أيضا. وكان السادات يأمل فى أن يصدر العدد الأول من المجلة فى ١٥ مايو ١٩٧٦م، لكن التجهيزات والتحضيرات اللازمة للمجلة لم تكن اكتملت بعد فى غضون ذلك التاريخ.

صدر العدد الأول من مجلة «أكتوبر» فى ٣١ من أكتوبر سنة ١٩٧٦م، وكانت وقتها درة المجلات العربية والمصرية، وأصبحت عن جدارة واقتدار المجلة السياسية الأولى فى العالم العربى، حيث صدرت بشكل ومضمون ومحتوى وقطع جديد تماما على تجربة إصدار المجلات فى العالم العربى، إذ كانت عين مؤسسها أنيس



منصــور تنظر بكثير مـن الاهتمام والتركيز علــى تجارب أعرق المجلات فى العالم وأشـهرها، وقرر أن يستوحى فى تجربته الجديدة قمــة ما وصلــت إليــه صحافــة المجــلات والدوريــات فى العــالم مع الاحتفاظ بطابع خاص وأصيل ونكهة مميزة من صحافة المجلات فى تجربتنا العربية والمصرية خلال ما يقرب من مائة عام.

ويذكـر الكاتب الكبـير أنيس منصـور، فى مناسـبات عدة ولقاءات أجريت معه حـول تجربته وتاريخه مع مجلة «أكتوبر»، أن فكرة صدور مجلة جديدة فى الشكل والمضمون قد حيرته كثيرا، ولهذا فإنه قد اسـتعرض وقلب فـى كل المجلات التى كانت تصدر فى ذلـك الوقت بجميع اللغـات الحية المشـهورة؛ الإيطالية والألمانية والفرنسـية والأمريكيـة، ومنها مجـلات «الأيروبـى»، «أبوكا»، و«بوردا»، ومجلة «شـيترن»، و«دير شبيجل»، و«بارى ماتش»، و«لو بوان»، و«إكسبريس»، و«تايم»، و«نيوزويك»، وتوقف عند أبواب وصفحات وألوان وصور وموضوعات وأغلفة هذه المجلات، وكذلك المجـلات العربية، يقـول أنيس منصور "وقد اسـتفدت من كل هذه



يوسف السباعى يشارك أنيس منصور وأسرة التحرير "الاحتفال بالعدد الأول"





السادات وأنيس منصور مع أسرة تحرير مجلة أكتوبر

المجلات ولكن لابد أن تكون مجلتنا ذات طابع خاص وجديد ولكنه ليس مختلفا عن الذوق العام للمجلات".

وإذا كان الرئيس الراحل أنور السادات قد أطلق اسم (أكتوبر) على المجلة الوليدة لتخليد ذكرى انتصار أكتوبر العظيم وتحمل اسمه لتبقى فى ضمير كل مصرى دائما. فقد أوكل للكاتب الكبير أنيس منصور رئاسة تحريرها ورئاسة مجلس إدارتها على أن تصدر من دار المعارف أعرق دور النشر المصرية والعربية، وقدم الرئيس السادات كل الدعم لمجلة «أكتوبر» حتى إنه أمدها بمذكراته التى لاقت اهتماما كبيرا فى ذلك الوقت وبأحاديثه التى أدلى بها لأنيس منصور. والذى اتضحت معالم شخصيته الثقافية والمهنية على كل محتويات المجلة من مادة صحفية ذات مستوى عال ومتميز من كتب مترجمة وأبواب متميزة..



كان أنيس منصور نجما حقيقيا من نجوم الصحافة المصرية، وواحد من أنبغ وأنبه الكتاب الصحفيين فى العالم العربى آنذاك، ولم يكن اختيار الرئيس السادات له عشوائيا، ولا «ضربة لازب»، كما يقول التراثيون، ولكنه جاء اختيارا موفقا لعوامل كثيرة ليس أولها أو آخرها أن أنيس منصور لم يكن الصحفى السياسى فقط بل كان المثقف الفنان متعدد المواهب واسع الخبرات، يتمتع بشبكة من العلاقات الإنسانية والمهنية بأعظم وأشهر شخصيات المجتمع، فى السياسة والصحافة والأدب والفكر والفن. وكان أنيس منصور موهوبا وبارعا فى استثمار هذه الميزة بما انعكس بالتأكيد على مجلة أكتوبر وأداءاتها ونجاحاتها المتلاحقة التى تحققت على يديه.

وحمل العدد الأول من «أكتوبر» مفاجآت عدة. وعلى كل المستويات؛ الرئيس السادات فقد كتب افتتاحية العدد، وخص المجلة فى عددها الأول بذكرياته التى نشرت تحت عنوان "ذوبان الجليد بين القاهرة وموسكو"، وفى العدد ذاته حملت الصفحة الأولى تنويها عن انفراد المجلة بنشر الترجمة العربية من مذكرات زوجة عميد الأدب العربى، سوزان طه حسين، بعنوان «معك». وكتب إحسان عبد القدوس محاوراته السياسية الشهيرة "على مقهى فى الشارع السياسى"، وبدأ فى العدد الأول نفسه نشر رواية





نجيب محفوظ الشهيرة «ملحمة الحرافيش» مسلسلة برسوم الفنان الراحل ابن مجلة أكتوبر محمد إبراهيم. وكتب أنيس منصور تقديما موجزا للرواية على صفحات المجلة ووصفها بأنها "خلاصة فلسفة نجيب محفوظ عن الناس والحياة فى مصر".

كانت «أكتوبر» أول مجلة مصرية تصمد للبقاء بعد ١٩٥٢م، حققت نجاحا كاسحا وكبيرا بل مذهلا، وسرعان ما باتت المجلة الأسبوعية الأولى فى مصر والعالم العربى. كانت المجلة إضافة جديدة وناهضة وحيوية للمشهد الصحفى فى مصر، لم يكن يعيبها سوى البنط الصغير الذى طبعت به، وقد تم تلافى هذا العيب فى الأعداد التالية مباشرة.

وفى خلال فترة قياسية وبعد ٦ شهور تقريبا أطلت «أكتوبر» على القارئ العربى بكل ما هو جديد، وفى ذلك الوقت، ولأول مرة، استخدمت «أكتوبر» الجمع التصويرى لجمع حروفها، وكذلك طباعة "الأوفست" التى كانت جديدة فى مصر فى ذلك الوقت، فى طفرة غير مسبوقة وهى الطباعة الأنيقة والنظيفة. وقد لا يعرف الكثير من القراء فضلا عن شباب الأجيال الجديدة من الصحفيين والعاملين فى الإعلام والميديا عموما أن شعار المجلة أو "اللوجو" المميز لها بتصميم كلمة "أكتوبر"، قد تم اختياره من بين ٤٠ محاولة لتصميم هذا الشعار، وقد قام بتصميمه الفنان القدير شريف رضا بحروف هندسية حرة وليس لها علاقة بالخطوط العربية المعروفة.

ويروى الكاتب والناقد القدير، محمود عبد الشكور، فى كتابه «كنت صبيا فى السبعينيات - سيرة ثقافية واجتماعية» عن أصداء العدد الأول من المجلة، يقول "لا أنسى أن المجلة دفعت لإذاعة إعلان تليفزيونى تشكر فيه نصف مليون مصرى اشتروا العدد الأول. لا أعرف مدى صحة الرقم، ولكن الناس كانت سعيدة بظهور مجلة جديدة تحمل اسم شهر النصر، لم أكن أعلم ولا أتخيل أننى سأعمل بمصادفة غريبة فى المجلة نفسها التى اشترى أبى عددها الأول".



ولأنني أنتمي إلى جيل التحق بالعمل بالمجلة في العقد الأول من الألفية الثالثة، ولم أشهد لحظات الميلاد التي سجلت بحروف من نور في سجل الصحافة المصرية (بطبيعة الحال لم أكن ولدت بعد!)، فإن الرعيل الأول من أبناء المجلة الذين كانوا النواة التي استعان بها أنيس منصور في تأسيس مجلة «أكتوبر» وخروجها للنور، قد سجلوا شهاداتهم القيمة على تلك اللحظة التاريخية، والمرحلة العامرة الزاهرة ليس في تاريخ مجلة أكتوبر وحدها بل في تاريخ الصحافة المصرية والعربية في عدد تاريخي من مجلة أكتوبر صدر في نهاية أكتوبر ٢٠١٥م.

سجلت هذه الشهادات والمقالات جوانب حية ومضيئة من تاريخ المجلة، وتاريخ الصحافة في مصر، وهي أفضل ما كتب عن مجلة أكتوبر وتاريخها ونشأتها وسنواتها الأولى، وما شهدته من نجاحات ساحقة، ولحظات مجد لن تتكرر، وأسماء تألقت على صفحاتها وباتت من نجوم الصحافة والإعلام والأدب خلال نصف القرن الأخير.



أنيس منصور من مكتبه بمؤسسة دار المعارف ومجلة أكتوبر



الفصل الثامن

دار المعارف.. الحاضر وآفاق المستقبل



لا شك أن مؤسسة دار المعارف الآن، واحدة من كبريات المؤسسات المعنية بالنشر والطباعة والأنشطة المتصلة بها، ليس فى مصر وحدها ولكن فى العالم العربى كله. وبالرغم من ظروف كثيرة ومعوقات صعبة وتحديات جسيمة واجهت المؤسسة وما تزال، فإنها قادرة بعون الله على مواجهتها وتجاوزها، خصوصا إذا كانت الإدارة القائمة واعية ومدركة لهذه التحديات، وقررت بشجاعة أن تسير على الأشواك وتواجه المنغصات وتتحدى الصعاب، فتتقدم على القرارات الجريئة والإجراءات اللازمة لتعضيد وضع المؤسسة والتغلب على المشكلات التى تواجهها والانطلاق بها نحو آفاق واعدة واستعادة مكانتها الزاهرة واحتلالها دائما، كما كانت، قمة مجال النشر والطباعة فى العالم العربى.



ولكـى لا يكـون الـكلام مجردا مـن دلائلـه وعاريا عن شـواهده، فإن هذا الفصل يرصد مجموعة من المسارات والإجراءات وكذلك المشـروعات التى تنتهجها إدارة المؤسسة الحالية برئاسة الأستاذ سـعيد عبده، لاسـتعادة مجـد دار المعـارف ووضعها فى مكانتها اللائقة مصريا وعربيا، وأن تكون شريكا ومنافسا فاعلا فى سوق النشر العربية.

وبالتزامـن مـع الاحتفال بمرور ١٢٥ عاما على إنشـاء المؤسسـة العريقـة (دار المعـارف)، كأول دار نشـر فى الوطـن العربى ورابع دار نشـر على مسـتوى العالم. يحلم القائمون على المؤسسة، بل يطمحون ويسعون فعليا إلى اقتحام صناعة النشر الإلكترونى ليكون للدار بصمة وتواجد بل مسـاحة من السوق تتواءم مع اسم هذه المؤسسـة. ولهذا، وبالتعاون مع معالى الشيخ نهيان بن مبارك آل نهيـان وزير الثقافة والشـباب وتنمية المجتمـع الإماراتى، وفى إطار بروتوكول تعاون مشـترك لمدة خمس سنوات به العديد من نواحى التعاون فى مجال الثقافة وعلى رأسها النشـر الإلكترونى، جـار حاليـا إنشـاء (مركـز زايد للنشـر) لهـذا الغـرض بدعم من مؤسسة زايد الخيرية.

يأتى إنشاء هذا المركز الضخم ليكون نافذة جديدة فى عالم النشـر الإلكترونى للكتـاب العربى بصفة عامـة. وليس لدار المعارف فحسـب، بل لكل الناشـريـن المصريـين والعرب لتكون الثـروة الفكريـة لـدور النشـر فى العـالم العربى ومصـر بصفة خاصـة متاحـة على منصـة مصريـة خالصـة. ولن يكـون هذا المشروع، على ضخامته، هو المشروع الوحيد فى هذا الإطار، فهناك العديد من مشـروعات التعاون الأخرى مع دولة الإمارات الشـقيقة التى لا تألو جهدا فى دعم الثقافة ورسالة دار المعارف.

وقد سـبق هذا الإنجاز بقليل، الاتفاق على التعاون المثمر بين المؤسسـة وبـين وزارة الثقافة الإماراتية، كـان مـن ثـماره الرائعة إعادة إصدار أكثر من ٤٥٠ كتابا من كنوز دار المعارف، وإصدار



٢٠ كتابا للأدباء الشباب بالإمارات، بدعم وافر من أبناء الشيخ زايد (عليه رحمة الله)، وكم لهذا الرجل "زايد الخير" وأبنائه البررة من أياد بيضاء ناصعة ليس فى إطار هذه المشروعات التنموية فقط، بل على الثقافة العربية كلها.

ففى إبريل من العام الحالى، وقعت وزارة الثقافة والشباب وتنمية المجتمع الإماراتية بحضور معالى الشيخ نهيان بن مبارك آل نهيان وزير الثقافة والشباب وتنمية المجتمع مذكرة تفاهم مع مؤسسة "دار المعارف" لإعادة نشر وطباعة إصدارات المؤسسة التى قامت بطباعة عدد كبير من أمهات الكتب، كما أثرت المكتبة العربية بنشر العديد من أعمال كبار الكتاب على مدار ١٢٥ عاما.

وجاءت مذكرة التفاهم حرصا من الطرفين على تعزيز الهوية العربية الإسلامية والحفاظ على اللغة العربية وتقديم الثقافة التى تبنى المجتمعات وتنهض بها، وتحقيق التعايش بين البشر فى تحضر وسلام وانفتاح على العالم ورغبة فى توطيد أواصر العلاقات بين الشقيقتين العربيتين، الإمارات ومصر، وتحقيقا لرؤية القيادة الرشيدة فى الدولة التى تعمل بكل عزم وإخلاص على دعم المؤسسات المصرية وتمكينها من أداء دورها العربى والإسلامى. وقع هذه الاتفاقية عن وزارة الثقافة والشباب وتنمية المجتمع سعادة عفراء الصابرى وكيلة الوزارة فيما وقعها من جانب مؤسسة دار المعارف المصرية، الدكتور حسن أبوطالب رئيس مجلس الإدارة السابق، بحضور سعادة أحمد شبيب الظاهرى مدير عام مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية والإنسانية وعدد من قيادات موظفى الوزارة.

أيضا، وفى إطار التعاون العربى تم توقيع عقد وكالة مع مكتبة «العبيكان» للنشر بالمملكة العربية السعودية لتسويق إصداراتهم بمصر من خلال مكتبات دار المعارف بحضور مدير عام الشركة ووفد مرافق له، كما سيتم قريبا افتتاح مكتبة



الإسماعيلية كأحدث فروع المؤسسة لخدمة القارئ هناك.

كل ذلك بموازاة تنشيط دور المركز العربى للبحوث والإدارة "أراك"، أول مركز بحثى عمل على تطوير المحتوى وتدريب العاملين فى الإدارات والقطاعات المختلفة، وتنمية مهاراتهم لمواكبة العصر بقفزاته المتسارعة وطفراته المعرفية غير المسبوقة.

ولا تغفل مؤسسة دار المعارف تحديث وتطوير نوافذها الإلكترونية التى تتواصل بها ومن خلالها مع جمهور عريض، وجديد، من الأجيال الشابة، خاصة فى ما يتصل بنشاط الموقع الإلكترونى الرسمى لدار المعارف، الذى سيشهد خلال الفترة المقبلة طفرة كبيرة، سيكون من نواتجها دعم نشاطه الأصلى فى نشر المحتوى الثقافى العربى فى شكل عمليات بيع للكتب والإسطوانات والشرائط (المرئية والمسموعة) والمواد الإلكترونية (المجانى منها وغير المجانى) وضمان وصولها إلى القارئ فى أسرع وقت ممكن وبأقل تكلفة ممكنة.

وقبل عامين، كان مجلس إدارة دار المعارف قد قرر الموافقة على إطلاق بوابتى «أكتوبر» و«دار المعارف» الإلكترونيتين، وكل منهما له مجاله وتخصصه، وهما مشروعان واعدان سيحققان انطلاقة كبرى ودفعة قوية للدار ولمجلة أكتوبر، ينتظر إطلاقهما فى غضون الفترة القليلة المقبلة، ليضيفا إضافة هائلة وداعمة لمسيرة النشر والصحافة والإعلام فى مصر والعالم العربى.

من ناحية أخرى، وعبر ثلاثة مسارات متوازية ومتقاطعة، وبالاعتماد على ما كانت تمتلكه - ومازالت دار المعارف من ثروة بشرية تعد الأفضل فى مجالات الطباعة والنشر، فالكتب الصادرة عن دار المعارف هى الأفضل من حيث دقة المحتوى وصحته لغويا وجمال شكله، فضلا عن حسن إخراجه، تسعى المؤسسة إلى تحديث القطاعات الأساسية التى تقوم عليها أى دار للنشر؛ وهى:



قطاع النشر، قطاع التسويق بجناحيه الداخلي والخارجي، وقطاع المطابع الشريان التاجي الذي يمد القطاعين السابقين بثمرات إنتاجه. وفي القطاعات الثلاثة تسير حركة متسارعة ونشطة لتحديثها وتطويرها بصورة غير مسبوقة، من خلال حزمة من الإجراءات والتعاقدات الجديدة، أفصح الأستاذ سعيد عبده عن بعضها على هامش الاحتفال بمرور مائة وخمسة وعشرين عاما على تأسيس الدار.

يقول "لدينا حلم للمستقبل قد يكون صعبا، ولكن ليس بالمستحيل، فالأحلام ما دام وراءها رجال قادرون على العمل لا بد أن تتحقق بإذن الله".

وكل يوم يقدم فريق العمل بدار المعارف الجديد في مسيرة التطور والتحديث في قطاعات وإدارات المؤسسة كافة.

أولا: قطاع التسويق وإدارة المعارض:

يشهد هذا القطاع طفرة هائلة في ظل التحديثات القائمة والمستهدفة خلال الفترة القادمة، مع السعي لزيادة عدد منافذ البيع ومكتبات الدار التي تنتشر بطول الجمهورية وعرضها؛ إذ يدخل تحت هذه الإدارة كل مناطق البيع في كل من: القاهرة والإسكندرية وأسيوط وقنا وسوهاج وأسوان وطنطا والمنصورة والزقايق والسويس والعريش وأخيرا الإسماعيلية.

وتتبع إدارة التسويق الرئيسية أربع إدارات فرعية موزعة على مناطق الجمهورية، وهي: منطقة القاهرة بالفجالة، منطقة الإسكندرية بشارع سعد زغلول، منطقة الزقازيق بميدان المنتزه، ومنطقة أسيوط بعمارة الأوقاف رقم (٣).

وحاليا، تمتلك دار المعارف واحدا وعشرين منفذا للبيع بجميع محافظات الجمهورية، وسيتم افتتاح الفرع الثاني والعشرين بمحافظة الإسماعيلية خلال فترة وجيزة. تضم منطقة القاهرة وحدها ست مكتبات كبرى، تتوزع كالتالي: فرع عبد الخالق





مكتبة دار المعارف بالسيدة زينب

ثروت، فرع الفجالة برمسيس، فرع المبتديان بالسيدة زينب، فرع شبرا، وأخيرا فرع ماسبيرو الملاصق للمبنى الرئيسى لدار المعارف على كورنيش النيل.

وتضم منطقة الإسكندرية مكتبتين رئيسيتين؛ هما: مكتبة سعد زغلول، ومكتبة التحرير.

وتضم منطقة الزقايق ثلاث مكتبات: مكتبة الزقازيق القديمة، مكتبة الزقازيق الجديدة، ومعرض كلية الهندسة.

وتأتى منطقة الإسماعيلية برصيد مكتبتين؛ الأولى بنادى الشجرة، والثانية هى المكتبة الأحدث التى سيتم افتتاحها بمناسبة مرور ١٢٥ سنة على تأسيس دار المعارف، لتنضم إلى أخواتها من مكتبات وفروع الدار. وتضم منطقة العريش مكتبة واحدة، أمام قسم العريش.

تتحدد استراتيجية هذه الإدارة المحورية فى حزمة من الأهداف التى تعتبرها دستورا وغاية تسعى إلى تحقيقها وتتفانى فى الوصول إليها، أوجزتها الإدارة المسؤولة عن هذا الشريان الحيوى فى الأهداف الستة الآتية:

أولا: عميلنا دائما على حق، ولذلك نسعى إليه دائما ونكون فى خدمته دوما.



ثانيا: العميل عندنا أهم كثيرا من الصفقة المعقودة، ولذلك نتمسك دائما بالصدق والشفافية في أي تعاملات تتم أو تجرى مع العميل بيعا أو شراء أو توزيعا.

ثالثا: خدمة البيع لدينا ليست "شطارة" لكنها "مهارة" تعتمد على العرض الجيد والمعاملة اللائقة وطرق الدعاية والإعلان الجاذبة.

رابعا: نؤمن بالمنافسة الشريفة، البناءة، المنتجة، ونسعد دائما بالمنافس الناجح، نتعلم منه ونفيد من مزاياه ومهاراته، ونتلافى أخطاءه وعيوبه.

خامسا: الانتظام والوضوح في التعاملات المالية، سواء في التوريد أو التحصيل أو المبادلة، فتحصيل ما لنا لدى عملائنا يتم بكل احترام وتوقير، مع الالتزام الكامل بالسداد حسب التوقيتات المحددة في حال وجود أي مستحقات أو متأخرات واجبة السداد، فخير طريق للاحتفاظ بالعملاء هو الصدق والوضوح والالتزام الكامل بما لنا أو علينا.

سادسا: تحرص الإدارة على مشاركة عملائها في كل ما يخصهم من مناسبات عامة أو خاصة، لأنهم الرصيد الذي تفخر به دار المعارف في كل تعاملاتها داخل مصر أو خارجها.





وأرادت إدارة التسـويق والمعارض بالدار أن تبلور هذه الأهداف فـى عـدد مـن الشـعارات الترويجيـة، التـى اسـتقت أغلبها من تاريـخ الدار ومنجزاتهـا الكبيرة خاصة فى فترة الخمسـينيات والستينيات، ومنها:

(خذ المعارف من دار المعارف، بأسلوب اليوم وتفكير الغد، النشر رسالتنا والطباعة صناعتنا، نتائج المعارف دوائر المعارف.. إلخ).

وتختـص إدارة المشـتروات (كتـب الغيـر) بتدبيـر احتياجات كتب التسـويق من كتب الغير المحلية، بأفضل الشروط مقابل عمولة محـددة يتم الاتفاق عليها مـع الموردين، وكذلك تختص بعقد اتفاقات كتـب المبادلة مع الغير، وتوزيع كتب الغير على المناطـق والمكتبات، وكذلك تنفيذ الطلبـات التى ترد إليها من جهاز البيع والمكتبات فى حدود القواعد الموضوعة، وأخيرا تنفيذ المرتجعات وتزويد المكتبات بالإصدارات والكتب الحديثة.

أمـا إدارة (الاسـتيراد)، فتختص هذه الإدارة باسـتيراد الكتب بقصد الإتجار بها عن طريق عرضها بالمكتبات والمعارض.

ثـم تأتى إدارة التسـويق الخارجـى (التصديـر)، وتختص هذه الإدارة بتسـويق كتب الإدارة ومطبوعاتها وغيرها من منشورات الغير بالأسـواق الخارجيـة، وعلـى وجـه الخصـوص، فـى البلاد العربية والإسـلامية والإفريقية عن طريق المعارض المقامة دوريا بهذه الـدول. ومن أهم اختصاصات هـذه الإدارة وأدقها هو التصدى لتزويـر كتب الـدار ومتابعة السـرقات التى تكتشـفها لتزوير كتب المؤسسة والعمل على منع هذا الفعل اللا أخلاقى.

وأخيرا، تأتى إدارة (المخازن) أو التخزين، وهى المختصة بمتابعة التوزيع من الناحية التنفيذيـة التى تبدأ من وقت وصول الأصناف إلى المخازن وتسـلمها إلى وقت صرفها، وتتضمن مسئولياتها أيضا فحص الأصناف وتسلمها بشـكل صحيح وسليم فنيا وقانونيا، طبقـا للمواصفـات والقواعـد الموضوعـة، ثـم المحافظـة عليهـا وصيانتها أثناء التخزين، ولحين إعادة توزيعها مرة أخرى.



لدار المعارف عدة مخازن كبرى موزعة على مناطق الجمهورية، منها مخازن أدوات بمهمشة، ومخزن كتب الغير بمهمشة أيضا، ومخزن الوراق الرزم بالزاوية الحمراء، ومخزن المطابع بالمبنى الجديد، ومخزن أكتوبر البديل عن مخزن قليوب، ويحتوى على مخزون الورق اللفات، بالإضافة إلى مخزن المخلفات، ومخزن كتب الأطفال، ومخزن الكتب الثقافية والجامعية، ومخزن كتب التوزيع. كل هذا بخلاف تخصيص جزء كبير تحت التأسيس لإنشاء مطبعة جديدة وكبيرة للمؤسسة.

ثانيا: قطاع المطابع:

امتد نشاط دار المعارف إلى تقديم خدماتها الطباعية التى تميزت بها فلا تزال تتميز بالإخراج الفنى الجميل والدقة فى الطباعة وكفاءة الفنيين والعاملين من خبراء الطباعة حتى قيل «إن هذا الثوب مصنوع فى باريس وهذا الكتاب مطبوع فى دار المعارف»، وذلك بفضل التطوير المستمر فى مجالات الطباعة وجلب أحدث الآلات الطباعية ذات الكفاءة العالية والتى تعمل بالكمبيوتر.







ويعلم كل من اتصل بمهنة النشر وطباعة الكتب منذ أقدم العهود. أن قطاع المطابع هو العمود الفقرى لأى دار نشر أو مؤسسة صحفية عاملة فى مجال النشر والطباعة، فقطاع المطابع هو المنوط به تجهيز الكتب والإصدارات المختلفة (كتب، صحف، مجلات، كتب مدرسية، منشورات إعلانية، مطبوعات دعائية.. إلخ) قبل وبعد الطباعة، فهو شريان الدم الذى يغذى كل إدارات العمل المسئولة فى المؤسسة؛ بدءا بإدارة النشر، ومرورا بإدارتى التسويق الداخلى والخارجى، وانتهاء بإدارة الدعاية والإعلانات.

ولا يمكن لأى باحث أو مؤرخ أراد أن يسجل تاريخ الطباعة فى مصر والعالم العربى، أن يتجاوز أو يتجاهل دور دار المعارف أو (مطبعة المعارف ومكتبتها بالفجالة) التى تأسست عام ١٨٩١م، على يد واحد من أهم وأكبر رواد الطباعة والنشر آنذاك، المرحوم نجيب مترى (١٨٦٥م-١٩٢٨م)، وهو الذى قاد بمفرده حركة ناشئة فتية فى إدخال المطبعة وتطويرها وتحديثها إلى مجال النشر الخاص وطباعة الكتب المدرسية التعليمية والثقافية فى تلك المرحلة الباكرة.



وإذا تحدثنا عـن تاريخ الطباعة فى (دار المعارف)، فإننا نتحدث عـن تاريخ الطباعة ليس فـى مصر وحدها، بل فـى العالم العربى كلـه؛ فـ(مطبعة المعارف ومكتبتها) التى أنشـأها نجيب مترى فـى ١٨٩١م، وحولها ابنه شـفيق مترى إلى (دار المعـارف بمصر) فى ١٩٤٥م، هـى أول كيـان مؤسسـى يتخصـص فى نشـر الكتب وطباعتها، ويكون سباقا إلى استيراد أحدث ماكينات الطباعة من ألمانيا (أم المطبعة وماكينات الطباعة فى العالم كله).

كانت المطابـع الوليدة فى مصر آنذاك. وعلى رأسـها مطبعة المعارف ومكتبتها، فى حركة دائمة تسـتجلب آلات مستحدثة مختلفة؛ بعضها للطباعة، وبعضها للتجليد، وآلات أخرى للتهيئة والترتيب، ولقد أتقنت (مطبعة المعارف) منذ البداية الطبع بالألوان حتـى ضارعت فيها كبريـات المطابع الأوربيـة، وأغنت عن طبع ما يـراد طبعه من الكتب أو المصورات خـارج مصر، بعد أن راحت تنهل من خبرة المطابع الغربية الفائقة، واضعة فى اعتبارها كل تحسـين ممكن لصناعـة الكتاب المصـرى والعربى. ويكتب صاحبها نجيب مترى مبكرا جدا فى عام ١٩١٥م:





«إن مطبعة المعارف قد أصبحت بمشيئة الله، بعد ما جهزناها به من أنواع الحروف المختلفة، والآلات الحديثة، مستعدة للقيام بكل ما يطلب منها طبعه فى اللغات العربية والإفرنجية»، ولذلك نشرت المطبعة فى ذلك الوقت إعلانا فى الصحف ينوه عن أجناس الحروف الموجودة فى المطبعة وأنواعها واستخداماتها، وعلى سبيل المثال يشرح الإعلان سمات ووظائف حرف بنط ٩ فيقول (يحسن استخدامه لطبع الألقاب والوظائف على بطاقات الزيارة)، وهكذا يستطرد فى شرح وظائف الأبناط الأخير التى كان معمولا بها فى ذلك الوقت..

وفى ستينيات القرن الماضى، تم استيراد ماكينات الطبع "ألمان" وكذلك مقصات "البولار" الضخمة، ومنذ ذلك الوقت واكبت دار المعارف أحدث الصيحات فى عالم الطباعة وماكينات الطبع، فمن طبع "التيبو" و "الروتاتيف" إلى ماكينات الطبع الرقمية "الديجتال"، مرورا بماكينة "الويب هانشو" التى تتكون من خمس وحدات، وبها جهاز تجفيف ومبرد ووحدة لضم الملفات أوتوماتيكيا بما يحقق السرعة فى الإنجاز، وكذلك وحدة أخرى لتجفيف الألوان من على الورق.

وكان يعمل على هذه الماكينة الضخمة ١٢ عاملا، وقد بدأ تشغيلها عام ١٩٩٤م، حيث كانت تتميز بإمكانات عالية، مثل طبع الفرخ الواحد من الورق ٤ لون من الجهتين، أو فرخين من الورق أحدهما ٤ لون من الجهتين، والآخر لون من الجهتين، وكانت هذه الماكينة تطبع كتب وزارة التربية والتعليم بطاقة طباعية تصل إلى ٥٠ ألف فولدر فى اليوم. وكانت مطابع دار المعارف تطبع كتب وزارة التربية والتعليم فى الدول العربية المختلفة لسمعتها العالية وشهرتها الكبيرة التى تجاوزت الآفاق المحلية إلى العربية، وكانت رائدة فى هذا المجال وسبقت كثيرا من دور النشر الكبرى فى العالم العربى.







كان هناك أيضا الماكينة الضخمة "ويب كومباكتا" التى بدأت مع صدور مجلة أكتوبر عام ١٩٧٦م، وتتكون من أربع وحدات وطاقتها الطباعية ٩٠ ألف فولدر فى اليوم، ومن قبلها استحدثت دار المعارف ماكينة "ويب فرانكنيتال" مكونة من أربع وحدات وتعمل بطاقة طباعية ٥٠ ألف فولدر فى اليوم، بالإضافة إلى وجود ١٠ ماكينات أوفست مسطحا (تتعامل بالفرخ).

أما ماكينة طبع غلاف (مجلة أكتوبر) فتعمل بنظام التحكم الطباعى بالكمبيوتر أو سى بى سى (CPC) الذى يتيح ضبط الحبر والحركة لأسطوانات الزنك عن طريق مجموعة من المفاتيح بدلا من الأسلوب التقليدى اليدوى.

وفى مجال التجليد، أضيف خط تجليد الكتاب كولوبس وهو يتكون من ١١ محطة جمع ومحطتين يدويتين وحدة بشر وتغرية وتغليف وتجفيف وقص للكتب بكميات هائلة تصل إلى ٤٠ ألف كتاب فى اليوم.

وكانت دار المعارف سباقة، بل الأولى فى مصر التى تستخدم الكمبيوتر فى الجمع والتوضيب وتوجد حاليا أكثر من ١٥





وحدة كمبيوتر تقوم بهذه العمليات بالإضافة إلى التصميم والإخراج الصحفى لجميع المطبوعات التجارية ولمجلة أكتوبر وهناك وحدات جديدة فى الطريق.

وامتدت يد التحديث أيضا إلى الشكل الطباعى المعاصر، توضيبا وإخراجا، وقد نجحت دار المعارف فى العقدين الأخيرين فى اجتذاب نوعيات مختلفة من الشركات والوزارات والبنوك والمؤسسات الأخرى فى التعاون معها لتقديم منشوراتها ومطبوعاتها فى إخراج متميز وجودة فائقة. والقائمة تطول إذا حاولنا حصر أسماء الشركات والجهات الرسمية وغير الرسمية التى سعت لطبع منشوراتها فى دار المعارف؛ منها على سبيل المثال: شركة المقاولون العرب، بنك مصر، شركة النيل للأدوية .. وحتى مطبوعات وكتب دور النشر العالمية مثل لونجمان وهايتيه التى طبعت كتبها فى دار المعارف بجودة عالية.

وبسبب شهرة مطابعها وإتقان عمالها وفنييها. نجحت دار المعارف فى إبرام العديد من التعاقدات لطبع كتب بعض الوزارات وعلى رأسها وزارة التربية والتعليم فى دولة الإمارات العربية المتحدة والمملكة العربية السعودية، وليبيا، وغيرها من الدول العربية الشقيقة.

ويزخر دولاب دار المعارف بعشرات من خطابات الشكر وشهادات التقدير تسجل الإشادة بجودة طباعة الكتب التعليمية المقررة.

و يجرى حاليا الإعداد لمشروع طموح لشراء ماكينات طباعة جديدة، وحديثة، لتدعيم القدرات الطباعية للدار ودخولها كمنافس قوى وعملاق مع كبريات دور الطباعة فى العالم العربى.

حاليا يوجد فى دار المعارف ما يلى:

مرحلة ما قبل الطبع، أجهزة جمع الكتب، وهى أجهزة آبل ماكنتوش حديثة. علاوة على برامج المونتاج ويتم إرسالها إلى



جهاز (CTP) وهو جهاز نقل الصفحات من الكمبيوتر إلى الزنك مباشرة والذى يعطى جودة طباعية عالية، وهذا النظام حقق نسبة عالية من تقليل المفاقيد التى كانت تهدر بنظام الأقلام، كما أنه يوفر جودة طباعية ممتازة.

توجد أيضا ماكينات حديثة للطبع الأوفست، وماكينات أخرى أحدث، توفر جودة طباعية متميزة وعالية، تم استيرادها من شركات عالمية كبرى لها باع طويل فى هذه النوعية من الماكينات المتخصصة، وهى تطبع ٤ لون بكفاءة عالية.

أما ماكينات "الويب"، فيوجد ماكينتا ويب؛ إحداهما قديمة والأخرى حديثة، بمقاسات متنوعة تتيح طباعة كل الكتب؛ بالأسود وبالألوان وبكميات كبيرة جدا وجودة عالية.

وتأتى المرحلة الأخيرة فى صناعة طباعة الكتب، وهى مرحلة التجليد، وتوجد فى هذه الدائرة ماكينات تجليد عديدة ومتنوعة المهام، مثل ماكينات الخياطة والسلك، وخطوط السلك، وخط البشر علاوة على ماكينات القص وماكينات التربيط.

وبعد سرد مراحل الطبع المختلفة للكتاب تقوم مطابع دار المعارف بطبع كتب وزارة التربية والتعليم بكميات هائلة تصل إلى عشرة ملايين نسخة، بالإضافة إلى طباعة كتب مشيخة الأزهر الشريف بكميات كبيرة أيضا. علاوة على طبع كتب رابطة الأدب الإسلامى، وطباعة كتب النشر الثقافى والخاصة بإدارة النشر بدار المعارف لكبار المؤلفين فى مصر والعالم العربى. كما تقوم المطابع أيضا بالطبع التجارى لأى شركة سواء داخل مصر أو خارجها.

وأخيرا، دائما ما تفتخر مطابع دار المعارف بأبنائها المهرة من مهندسين وفنيين وعمال؛ فهم دائما الذين يعطون الفارق فى الجودة والتميز عن أى مؤسسة أخرى، وهم دائما من يقفون بجوار



مؤسستهم، يدعمونها ويساندونها فى كل المواقف الصعبة، وبكتيبة دار المعارف من أبنائها المخلصين ستعود دار المعارف منارة ساطعة ومشعة تنشر العلم والثقافة والنور فى ربوع مصر والعالم العربى كله.



ملاحق

وثائق وصور ونصوص

١ - المقدمة التى كتبها المؤرخ والمحقق الكبير الدكتور أحمد فريد رفاعى بك للكتاب التذكارى «مطبعة المعارف ومكتبتها وأصدقاؤها» (١٨٩٠م - ١٩٣١م).

مقدمة/ بقلم حضرة المؤرخ المحقق الكبير الدكتور أحمد فريد رفاعى بك

هذه كلمة إخلاص وولاء واعتراف بالجميل وإذاعة لفواضل انف حسناته ترتهن بها أعناقنا نحو تلك الجهود المنتجة البريئة التى تخدم الوطن والفن فى غير ضجيج ولا ضوضاء ولا كبرياء وهى جهود سعادتنا المؤلفين والناشرين وكرام الكاتبين من علماء وأدباء وشعراء أولئك الذين شرفهم الله برسالة قدسية مترعة بما يفيد وينفع ويؤلف الشتات ويجمع ويدعو لله والسداد ويذيع بين الإنسانية معالم الحكمة وفصل الخطاب.

هى كلمة إخلاص وولاء لأن أولئك الذين يجودون بعصارة أفئدتهم وحبات قلوبهم وذخيرة عقولهم وثمين أوقاتهم بما يجودون به من تألدهم لشحذ أذهاننا وإنارة بصائرنا وإمدادنا بكل ما فيه جعبتهم وحولهم وطولهم مما يزيد فى حولنا من قوة ونهى وعلم وحجة وقد واصلوا مغداتهم برواحهم وفحمة ليلهم ببياض نهارهم فى غير كلال ولا ملال، لخليق منا بأن نقابل جميل صنيعهم بما نملك من إخلاص وولاء وشمر وثناء إحقاقا للحق وجزاء لدين جسيم ليس لنا إلى وفائه العدل من سبيل..

يرسل الكاتب صيحاته الإصلاحية ويدبج العالم بحوثه العلمية ويفيض الشاعر بقصائده الشعرية وعلم الله أن كل أولئك وهو فى تحليقه الفكرى وعالمه الروحى إنما ينحت من قلبه ويسكب من دمه تلك الحروف التى نقرأها فى دعة واسترواح وبهنية من العيش ولحظات قصار من الوقت وهى قد أقضت مضجعه وأعنتت جماع تفكيره.

وبعد.. فجميل من صديق النابهين (شفيق وإدوارد مترى) نجلى صديقى الراحل الكريم بطل فن الطباعة حقا وزعيم الناشرين الأمناء عدلا وصدقا أن يتقدما للناطقين بالضاد بهذه المجموعة القيمة من رسوم قادتنا فى عالم التأليف الذين أحسنوا وأجادوا وأبلوا فأفادوا اعتراف منهما بالجميل وإن كان الأحرى أن يكون الصنيع من السادة المؤلفين لسلالة هذا البيت العامل الأمين إلا أن الواقع المحسوس الذى لا ريب فيه وليس فى ثناياه من مبالغة ولا إغراق أن قسطا كبيرا من نشاطنا الفكرى ليدين فى أكثر نواحيه إلى تلك الجهود المتواصلة نحو الكمال والإبداع و نحو الإحسان والإتقان التى بذلها بكل الطباعه راحلنا الكريم نحو الذكرى المبرورة والأيادى البيضاء على المؤلفين خاصة وجمهور القارئين عامة صديقى ذى الأحدوثة الفيحاء المرحوم نجيب مترى والدهما البر وولى الكاتبين الحميم.

منذ حوالى نصف قرن وذلك البطل العصامى العظيم يعمل فى اتئاد ومواظبة وفى حسن مواتاة ومثابرة وفى غير إعلان عن النفس مع الجود فى غير ما تردد، ولا امتعاض بما فى حوزته من مال ونشب عمل الجبابرة الأفذاذ، وكان إلى دمث مناقبه ولين عريقته وسعة عطنه وسماحة أخلاقه وطيب أعراقه نعم المعين والمشجع ونعم النصير والظهير لكل كاتب ومؤلف ولكل شاعر ومصنف، حتى أيقن الجميع أن ماله نهب للجميع وإن دار طباعته لمن لا مطبعة له ناهيك بوداعته وأصالته وحزامته ونبالته ونزاهته وأمانته.



لقد وفق فقيدنا الكريم بطل صناعة الطباعة فى المشرق بلا نقد ولا إبرام وإمام الناشرين الأمناء بلا شك ولا إحجام إلى إصدار مئات المؤلفات القيمة سواء كانت مدرسيه إفادة لطلابنا، أم أدبية عمرانية ثقفتنا شيوخنا وشبابا فى إتقان صنعه وجمال مظهره وكمال مخبرة إلى رخص ثمن وسهولة تناوله ومثابرة الجبابرة وحزم الحكماء فى صدق نية وطهر طوية ما أثبت به شرفا لجدودة الفينيقيين وبنى به مجدا خالدا لمعاشريه المصريين وخلف من وراءه أحدوثة وضاءة لاولاده البررة الأكرمين فعليه رحمة الله ورضوانه بقدر نفعه لجمهور الكاتبين والقارئين.

على أننى أرى لزاما محتوما على أن أنوه هنا بما لشبليه من تزين صادق واحتذاء دقيق لخطوات والدهما البر الكريم وبطل صناعة الطباعة الفذ العظيم، وأنه إذا كان كتابنا جميعا يعترفون بصحة ما أثبته أحد كرام مؤلفينا الفضلاء فى كلمة طيبة ألقاها فى العيد الفضى عام ١٩١٦م حيث يقول :ولى عادة فى الطبع لا يرضى بها ولا يتحملها إلا صاحب مطبعة المعارف أو من كان له صبر صاحبها وسماحته وطيب أخلاقه كنت أعقد فصل وأقدمه للطبع فتصدر المطبعة منه مثالا وتعيده إلا لا راجعه فلم أكن اكتفى بمراجعته طبق الأصل كما هى عادة الكتاب والمؤلفين بل كثيرًا ما كنت أزيد على الأصل أو أنقص منه وأغير وأبدل فى معانيه وألفاظة تغييرا يوجب فيه أكثر الأحيان قلب الصفحات كلها فى لا مطلعه رأسا على عقب" ولقد أثبتت ذلك القول كنموذج صادق لما اعترف به جميع الخطباء من وزراء وشعراء وأدباء وهنا أسمح لنفسى بإثبات ذلك أيضا عن ولديه الجديرين بكل تنشيط وحدب وتأييد ونصر.

(شفيق وادوارد) فلله درهما، من شهمين كريمين خليقين لكل رعاية وإجلال، أجل أذكر هذه بمناسبة ما وقع لى بنصه وفصه وأنا أخذ فى طبع كتابى الشخصيات البارزة فكم كان



صنعى أضعاف مضاعفة لما اعترف به الجميع من قلب وإبدال وتقديم وتأخير وإضافة وحذف ومع ذلك لم ألق من هذين الشابين الحكيمين إلا كل هش وبش وإجابة وتلبية وليان وطواعية فى أدب رائع وإتقان يانع إلى خلق سجيح وفضل وعقل رجيح. إننى هنا تنبيها للناشئين من شبابنا الناهضين بفضلهما وإكبابهما على عملهما ومضيهما فى أداء واجبهما كل فى حيزه، فشفيق للفن الذى بذ فيه الأقران وتعلمه فى النمسا وبلاد الألمان، وأدوار للإدارة المتئدة الحكيمة التى لا تبخل بالبذل فى كل ما يحقق غايتهم فى اقتداء أثر قدوتهما الصالحة وأمثولتهما الخالدة مع الألفية وعروة الإخاء وكمال التعاون.

وأيم الحق ما زرت دارهما إلا كان كل يفتلذ من عمله المتواصل المجدى ما يتقدم به لنفع نفسه وقته وقومه. ووالله لقد شغل كل فى حيزه ذلك الفراغ العظيم الذى تركه صديقى الكريم حتى إن الجميع من بليغ أسفهم لفقد المرحوم نجيب مترى الذى كان حركة دائمة ونشاطا مستمرا لم يحس من فراغ تركه، بهمة هذين العاملين اللذين قد وصلا بمثابرتهما وامانتهما وكدهما وجدهما وقناعتهما إلى الذروة التى ليس بعدها من غاية أو كمال.

فلنذكر بذكرهما وذكرى الراحل الكريم الأخلاق الكاملة والتربية الاستقلالية والإكباب على العمل. ولنذكر الأمانة وحسن الأحدوثة والتفانى فى أداء الواجب ثم لنذكر إلى جانب ذلك جميعه محاسبة النفس على الصغيرة والكبيرة فى عدم حدتها عن المبدأ السامى لهذه الدار بل ذلك البناء الشامخ والجود الراسخ اسما ومسمى ولفظة ومعنى وهو (إلى الأمام فى إخلاص وأمانة وإتقان..).



٢ نص الخطاب الذى ألقاه الأستاذ الكبير حضرة أنطون بك الجميل فى حفلة العيد الفضى لمطبعة المعارف سنة ١٩١٦م، تحت عنوان «مشاهدات فى مطبعة المعارف»

لو بعث المقريزى من رمسه، أو نشر على باشا مبارك من قبره، وحاول هذا أو ذاك وضع «خُطط» جديدة لمدينة القاهرة، لكان كلاهما ولا شَك يُطلق على شارع الفجالة اسم: «شارع الأدب والأدباء أو شارع المعارف».

فمن هذه البقعة الصغيرة التى لا تتجاوز الكيلومتر يصدر قسم كبير من المطبوعات العربية، وينتشر فى أقطار العالم الأربعة. فأخر بمحافظتنا أن تغير اسم هذا الشارع، ولا سيما أنَ لا أثر فيه اليوم للفجل والفجالين، وتسميه بشارع المعارف.

ولو حددنا الموقع الجغرافى لمطبعة المعارف لقلنا إنها واقعة على مدخل هذا «البوغاز الأدبى».

مطبعة المعارف، منذ عهد بعيد، ملتقى رجال التأليف وأرباب القلم فى مصر. ومن حاول أن يكتب تاريخ الأدب العربى فى ربع قرن ومن أراد أن يصف مشاهير الكتاب والشعراء من أحياء وأموات ارتادوها وجلسوا بين جدرانها فقد أراد أن يذكر مطعم الذين ألفوا وترجموا فى هذة الحقبة من الزمن تسع سنوات مرت ويكاد مغرب كل شمس يرانى فى هذه المطبعة تارة مؤلفا وحينا مترجما وطورا ناشرا أو مصححا فأتيح لى أن أنظر بعينى وأسمع بأذنى من أخبار الأدباء وأعرف من سير الحركة الأدبية وظهور الكتب وانتشارها ما أنا عارض منه عليكم بعض نتف فى هذه المصرية كما تعرض صور السينما فتوغراف إذ أنى لى أن أحيط بهذا الموضوع المتشعب من جميع أطرافه فى بضع دقائق حددت لى لمحادثاتكم.

فى إحدى زوايا المطبعة قطعة أثاث سموها ما شئتم منضدة أو مكتبا أو طاولة فكل هذة الأسماء تنطبق عليها لأنها كثيرا ما تقوم بجميع الوظائف التى تدل عليها هذه الألفاظ...



حـول هذه الطاولة أو المنضدة اجتمع فى فترات مختلفة كتاب ومؤلفـون مختلفون نوعـا ومنهجا وأسـلوبا متفقـون أبدا وكرم أخلاق وسـعة معارف، إلى هذه الطاولـة طالما جلس وزراء ووكلاء وزارات وقضـاة ومحامـون وأدبـاء وشـعراء فعقدو حولها جلسـات لطيفـة وقـد سـلوت بين الجميـع حرفـة الأدب وصناعـة التأليف فهـذا يصحح بروفة وذاك يبحث عن كلمـة وذلك يكتب تتمة فصل من فصول كتابه والآخر يراقب طبع ملزمة يهمه أمرها وهذا يناقـش ذاك فـى موضـوع أو عبارة فكأنهم قفير نحل يشـترون عسلا والكل فى ذهاب وإياب، وآلات الطباعة بقربهم تدور على محورها مرتلة تراتيل العلم كأنها الات الموسـيقى تعزف والخروج مـن جميـع الأجناس تـدب فى أيـدى العمـال النشـيطين فتتراص بعضهـا إلى بعـض مؤلفـة كلمـات والكلمـات تؤلف سـطور والسطور تؤلف صفحات هى صورة العلم الغزير والأدب الجم.. هذا وصاحـب المطبعة يقظ وأخـوه مديرها الغيور فـى رواح ومجىء لا تغفل لهما عين عن إشاره ولا تصم لهما أذن عن كلمة.

وأول مـن أذكر مـن قصاد المطبعـة وإن كان قـد انقطع عن جلسـاتنا منذ مدة سعادة إسماعيل باشا حسـنين وكيل وزارة المعارف اليوم وناظر مدرسـة المعلمين يومئذ ولا أزال أراه جالسا فى زاوية يصلح مؤلفه النفيس فى خلاصة الطبيعة يحيط به جلال العلـم الحق وهيبته ويكتنفه تواضع الأدب ورزانته فكان يهتم بإنـارة أذهان الطلبـة بكتابته كمـا يهتم اليوم بأمـر تربيتهم وتثقيفهم بإرادته.

وقـد ظـل مـدة واسـطة عقـد هـذه الجلسـات الصديقـان "حافظ إبراهيـم وخليل أفندى مطران" وكانا يشـتغلان بترجمة الموجـز فى علـم الاقتصاد لبول ليروا يوليو وحولهمـا هالة من الأدباء والظرفـاء، ومن يجهل رونق كل اجتمـاع يزينه هذان الأديبان أن الكبيران.

ولـو كان فـى الطاولة التى أشـرت إليهـا أسـطوانة فوتوغراف لـرددت عليكم أحسـن منى بعـض ما سمعت من نـكات حافظ



ومداخلات خليل التى كانت تتطاير شرار ذكاء لامع خلاب وقد كان لكل منهما عدا هذه الجلسات المشتركة جلسات خاصة

الأول لطبع كتابه فى التربية والأخلاق وكتيبه فى الاقتصاد، والآخر لطبع ديوانه المسجدى ورواية عطيل المشهورة.

و نحن على هذه الحالة مثيرا ما كنا نسمع قرع عصا كأنها الصولجان فى يد الملك المتوج.

وهمهمة كأنها الزئير خارجا من خلق الأسد ثم يدخل علينا داخل كليب المتنبى. يطأ الثرى مترفقا من تيهه فكأنه أسد يجس عليلا.

مازال يجمع نفسه فى زوره حتى حسبت العرض منه الطولا.

على أنه لم يكن كذلك الليث.

ليرد عفرته إلى نافوخه حتى تصير لرأسه إكليلا

بل كان يلقى بطربوشه ما بين ناظريه كأنه يريد أن يحجب بعض المناظر عن عينه.

عرفتهم من هذا الوصف ذاك الذى له من الأسد اسمه المصغر وعزمه المكبر عنيت الحكيم شبلى شميل وكان يأتى لمراقبة طبع مجموعته المملوءة تألما نفسيا أو رواية دفنيس وخلوى الطافيا حبا فطريا وهل لشميل إلا مجموعة هاتين العاطفتين.

وفى مطبعة المعارف التقى لأول مرة على ما أذكر صاحب الشفاه بصاحب مناهج الأدب أمين بك واصف فما تعارفا حتى تحايا وقدر كل منهما قدر صاحبه وكم كانت مطبعة المعارف واسطة التعارف بين الأدباء وكان لحكيمنا مساء ذلك الالتقاء غضبة من غضباته المعروفة على الزمان وأهله ترك صداها أجمل أثر فى نفس الأديب المصرى الكبير.

وكان أمين بك واصف يطبع يومئذ كتاب الفهرست الذى وضعه ملحقا لخريطة الممالك الإسلامية وما اجتمعنا به فى كل مساء إلا وكان لديه كلمة جديدة من الموضوعات المصرية



يناقشنا بها وهو يتلهب غيرة على لسان العرب ويزود عن حياضه بقلمه السيال ولسانه الذلق وقد حداه ذلك إلى وضع أساس مشروع جليل بالاتفاق مع نفر من الأدباء سيعود إلى اللغة بأجل الفوائد وكانت الجلسات تحول فى بعض الأحايين إلى جلسات اشتراعية تتناول القوانين العامة والخاصة وفلسفاتها إبان كان ثلاثة من نخبة رجال القانون يطبعون كتبهم فى علم الحقوق:

أولهم المفكر المدقق حلمى بك عيسى مدير الإدارة القضائية فى وزارة الحقانية وكان بعد كتاب شرح البيع وقد لاقى هذا المؤلف من الرواج والإقبال حال صدوره ما دل على معرفة الناس فضل صاحبه وأدبه الرائع.

وثانيهم الشاب الكامل المهذب الذى يؤلمنا غيابه وأيم الحق فى هذه الحفلة شفاه الله قريبا.

وهو عبد الحميد بك أبو هيف الأستاذ فى مدرسة الحقوق وصاحب كتاب قانون المرافعات المدنية والتجارية أما الثالث الدكتور عبد السلام أفندى ذهنى فكان يجيئنا فى كل أسبوع من بنى سويف لطبع كتابه فى مسئولية الحكومة وهو راكب من نشاطه قطرات أسرع من قطار الحديد تحدوه همة متقدة، أنفذ من البخار ومن هذه الطائفة من المؤلفين أذكر القاضى الفاضل صالح بك جودت الذى كان يطرق أحيانا كتب القانون ليجول جولات تذكر فى الموضوعات الأدبية والاجتماعية كما فعل فى روايته الإيمان.

وإذا عدت إلى أدباء الكتاب أذكر أديبنا المشهور السيد المنفلوطى وهو جالس إلى الطاولة المعهودة بثوبه الشرقى الجميل يصوب نظراته فيصيب بها كبد الحقائق ويذرف عباراته فيستقطر بها دموع القراء وما فكرت بجمال إنشاءه وتألق أزياؤه إلا ذكرت الكاتب الفرنسى بوفون، وكان يجيئنا شاعر الشعور الحى والعواطف الرقيقة ولى الدين بك يكن صاحب المعلوم والمجهول والابتسامة على ثغره تكاد تكون الدمعة تتلألأ فى



عين الحسناء فيمتعنا من أدبه المعروف وظروفه المشهور بايوقات أنس لا تنسى وليت زميلى مدير الزهور قريب منا يومى الشهادة وكثيرا ما كنا نشاهد الأستاذ المدقق الشيخ محمد الحضرى وقد جلس يصحح كتابه فى تاريخ الأمم الإسلامية وإلى جانبه شيشة ممشوقة القوام تنمى فقاقيع الماء فى جوفها ويتصاعد الدخان من رأسها. وكان يتقض علينا كالباذى رجل الهمة والمروءة نعوم بك شقير وهو مهتم بطبع تاريخ سيناء وقد تمكن أن يضع لهذة المغازاه الخرداء تاريخا ضخما جامعا من قطع المثيل فى باله مجددا فى ذلك الأعجوبة التى تمت على يد موسى عليه السلام ولقد فجر الكليم الماء من الثورة الصماء.

وفى مساء النهار كان يقبل علينا محمد خالد حسنين بك وقد جمع إلى همة الشباب رزانة الكهول وهدوء المشتغلين بالعلوم الرياضية فيكتب على مراجعه حساب المثلثات والجداول الرياضية والهندسة المستوية إلخ.

وكثيرا ما كان يحمل إلينا قطار قليوب الرجل المثير العمل القليل الكلام الدكتور محمد عبد الحميد بك فيصل توا من المحطة إلى المطبعة بحصوله وكليشيهات لمؤلفاته.. العلاج بعد العمليات والحمل خارج الرحم والتشخيص والعلاج الجراحى وتعليل النوع والأمراض المعدية والتمريض المنزلى والإسعاف الأولى وطب البيت وكلها مصنفات تنطق بفصل واضعها.

وتقول لوزارة المعارف يوم تنوى تدريس الطب باللغة العربية هأنذا !!!

ثم يليه بقطار بنى سويف

توفيق بك البرادعى فى قبل على تصحيح كتب الجغرافيا وإلا رحمه دون أن يستريح من وعثاء السفر.

ثم يفد الدكتور سروبيان وهو يتلهب غيرة على ترويج علم الصحه فى البلاد ثم يعم العمل بالقواعد الصحية وتقل الوفيات بين الأطفال وقد لاقى من إقبال المدارس على مؤلفاته العديدة



فى هذا الموضوع وما كان جزاء لهمته واعتراف بعلمه وواسع خبرته وبين رحله إلى الهند أو سفره إلى الترنسفال، يحل بيننا الأديب التشيك وديع أفندى البستانى حاملا إلينا ترجمات أقبرى الإنكليزى وخيام الفرس وتاغور الهند.

أنا سركيس أفندى فيقبل وبيده أصول من مجلته أو برنامج لحفلته فيفكهنا بأدبه المعروف وهذا نحن مشتركون مجانا بمجلتين لسركيس بدل الواحدة الأولى كتابية نقرأها كما يقرأها الناس والثانية كلامية نتمتع بها وحدنا وأنا أنصح لصديقة سركيس أن يتحول إلى مجلة طوافة تزور المشتركين فى مواعيد معينة يركبون بها وقد أنسنا مدة من الزمن إبان طبع كتاب الأحكام وكيل دار الكتب السلطانية آل سيد محمد الببلاوى فكان دائما بيننا عنوان الكمال والكلف والأدب الوافر ولم يكن أستاذنا الأكبر إسماعيل باشا صبرى ليبخل.

علينا بزياراته بين حين وأخر فنفسح له بيننا مجلس الرئاسة.

فيتبوأه عن جدارة وأهلية و يجلس الجميع حوله يغترفون من بحر أدبه الزاخر... ويستمدون نصائح من ذوقه المشهور وتعقد أحيانا إلى جانب هذه الجلسات المتطريشة جلسات متبرنطة يحضرها فريق من الأساتذة المفتشين الإنحليز فى وزارة المعارف.

أذكر منهم المستر روب والمستر سيمذارد والمستر تويدى أما الطاولة المعهودة فقد اشتد التزاحم عليها فى عهد وزارة حشمت باشا حتى كانت تأن ألواحها الخشبية على صلابتها.

من كثرة الجالسين إليها لطبع الكتب فى المواضيع المختلفة ولقد تفضل معاليه يوما بأن أعرب عن رغبته فى زيارة المطبعة وعمالها النشيطين فلبست الدار حلة العيد والابتهاج.

ولما آن لوجهها الوزير الحكيم دارت آلاتها الطابعة فتنثرت أوراقا عليها رسمة الكريم وبيتان من الشعر.

شرفت قدر معارف وليتها.... فغدت تتيه على بأكرم ناظر

وحللت مطبعة المعارف زائرا... فتهللت طربا بأكرم زائر



ولم تقتصر هذه الحركة الأدبية في مطبعة المعارف على الجنس النشيط بل كان للجنس اللطيف منها نصيب يذكر بفضل سيداتنا الفاضلات وأوانسنا الأظيبات اللواتي نزلن إلى ميدان التأليف يبارين الرجال مجددات عصر أديبات العرب الشعيرات وكنت أود وصف كل واحدة من كاتباتنا وهي تصحح بروفاتها أو تراقب طبع كتابها ببراعة لا تقل عن اهتمامها ببيتها وشئونها المنزلية وهي اليوم تداعب في يدها الجميلة اليراع أو الريشة أو القيثارة كما كانت العربيات يداعبن المغول والحسام ولكنني أكتفي بذكرهن ولا أصف.

فأذكر من زائرات مطبعة المعارف الكاتبة المجيدة صاحبة فتاه الشرق.

والسيدة الفاضلة صاحبة الجنس اللطيف.

والأخوات الأديبات صاحبات مجلة الأعمال اليدوية.

والأديبة صاحبة العائلة المصرية.

والسيدة البارعة صاحبة الفتاة والبيت.

والمرحومة مؤلفة تاريخ مصر.

ومدبجة المقالات الشائقة.

ولقد قصفت بها المنية أندر زهرة في رياض العلم والأدب والفضيلة.

أيها السادة قد أكون مقتصرا في عينكم وفي عيني إذا اكتفيت بذكر الأحياء مهم لا ذكر الأموات فقد عرفت طاولة المطبعة طوائف من نخبة أدبائنا وكتابنا هم واضعوا أساس النهضة الفكرية الحديثة في البلاد العربية أذكر منهم المرحوم الشيخ إبراهيم اليازجي إمام اللغة في عصره وصاحب الفضل على المطابع فلقد طالما عرفته مطبعة المعارف إبان كان يصدر مجلة الضياء ويطلع كتاب نجعه الرائد



ويشتغل بوضع أمهات جديدة لإصلاح حروف الطباعة العربية وللمرحوم قاسم بك أمين المصلح المشهور فقد كان يجيء لطباعة كتابة المرأة الجديدة الذى كان له دوى عظيم فى البلاد ولا يزال صداه يتراجع حتى اليوم.

أذكر المرحوم فتحى باشا زغلول وهو يطبع مؤلفاته الجليلة فى المحاماة وسر تقدم الإنجليز السكسونيين وسر تطور الأمم إلخ.. واقفا على صندوق الحروف بجانب العامل مراقبا العمل بنفسه فإنه على ما وصفه الخليل:

عاش يرمى إلى مرام وحيد وصلاح البلاد ذاك المرام

وهو العامل المسهد فى التحصيل والقوم هادئون نيام

أحد الفرقدين من آل زغلول وحسب الفخار مجد توام

أذكر المرحوم على باشا أبو الفتوح وما كاد ينجز طبع كتابه خواطر فى القضاء والاقتصاد والاجتماع حتى روعنا بنبأ الرزء به فأنشدنا مع حافظ :

يا مصر قد أودى بفتاك ...... ولا فتى إلا على

أيها السادة أقف عند هذا الحد من عرض مناظر هذا السينما الأدبى واسمحوا لى قبل كلمة التهنئة والدعاء أن أبسط أمنيه مزدوجة تتعلق بأصحاب المطابع والمكاتب من جهة والأدباء من جهة أخرى أتمنى على هؤلاء وأولئك تأليف نقابتين :غرض الأولى السعى إلى ترقية الكتاب العربى وترويجه وذلك لنشر طباعات متقنة من كتبنا التى لا تزال مطوية فى محفوظات دور الكتب أو التى طبعت طبعا مشوها ينفر المطالع وغرض النقابة الثانية تضامن أرباب الأقلام وتعاونهم على خدمه الآداب العربية بالطرق المعروفة التى لا مجال لبسطها الآن.. فعسى هذا العيد الذى نحتفل به اليوم أن يتجلى عن وضع أساس لهاتين النقابتين.

ومصر حرية بتحقيق هذه الأمنية وهى من البلاد العربية بمثابة الرأس من الجسم بل خليق بها وقد كانت أسبق الأمصار



إلى وضع حروف الهجاء وصنع الورق أن تعمل على إتقان فن الطباعة وترقية الصناعة حتى تتمكن معالم الوطنية من تجهيز مطابعنا بما يلزمها من الآلات والأدوات والحروف والورق والأمل وطيد بأن مصر الحديثة ستدرك هذه الغاية من زعمائها الكرام أما كلمة التهنئة فازفها خالصة من كل تكلف إلى صاحب مطبعة المعارف ومديرها وأعمالها والأدباء الذين يؤمونها مشفوعة بالدعاء الحميم لهم وللأفاضل الذين شرفوا هذه الحفلة بأن يكون جميعهم سالمين بعد ربع قرن لنحتفل بالعيد الذهبى وبعده بالعيد الماسى إن شاء الله..



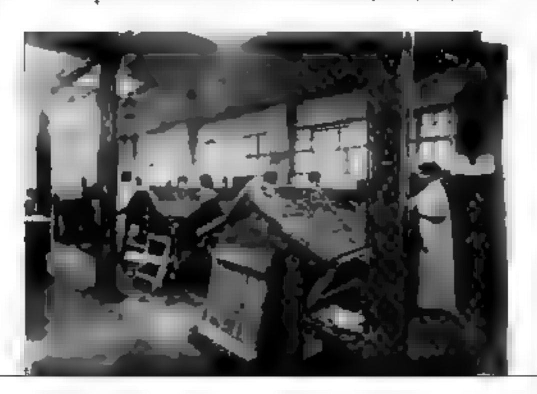
مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

اطلع على هذه المجموعة حضرة الأستاذ الكبير محمد أمين بك لطفى السكرتير العام لوزارة المعارف المصرية سابقًا فتفضل وبعث الينا بهذه الكلمة التى تشير الى عواطفه السامية وتقديره لخدمة العاملين فى سبيل نشر التعليم

قال حفظه الله :

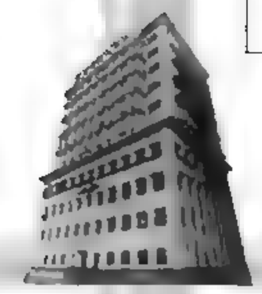
أنشئت مطبعة المعارف منذ نصف قرن وكانت منذ تنسمها نسيم الحياة فى مكان بشارع الفجالة (مقرها الآن) ظلت فيه دائبة على أداء المهمة التى أخذتها على عاتقها وهى العمل على طبع ونشر الكتب على اختلاف أنواعها وتباين مناحيها، فلم تلبث أن اتخذت المكان اللائق بهمة القائمين بها، وأمّها العلماء والنابهون وقادة الفكر من رجالات مصر بنتاج أفكارهم وثمار عقولهم لتعمل على إذاعته بين جمهرة الشرقيين، فاتسعت أعمالها وازدادت حركتها، وحينذاك لم ير أصحابها بدًّا من أن ينقلوها إلى مكان رحب يسع آلات الطباعة التى يتطلبها الفن الحديث، فاتخذوا مكانها الحالى لها دارًا، وهو لا يبعد عن سابقه إلاّ ببضعة أمتار إلى جهة الشرق .

فاذا واتتك المقادير وقصدت إليه، رأيت ثَمَّ مكانًا فسيح الجنبات، واسع الأرجاء تتخلله الشمس والهواء، به نوافذ واسعات تطل منها فيأخذ نظرك ويتملك فؤادك ما تشاهده من حركة دائمة وآلات مستحدثة مختلفة بعضها للطباعة وبعضها للتجليد، وآلات أخرى للتهيئة والترتيب .

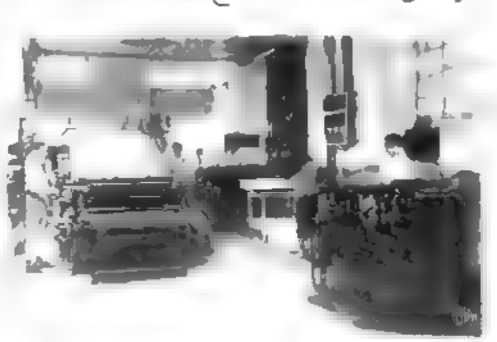


وهذه صورة قسم صغير من فرع تنضيد الحروف يرى الناظر إليها فريقًا من العمال يعملون وضياء الشمس يحيط بهم من كل جهة فيضاعف نشاطهم وإقدامهم على العمل .

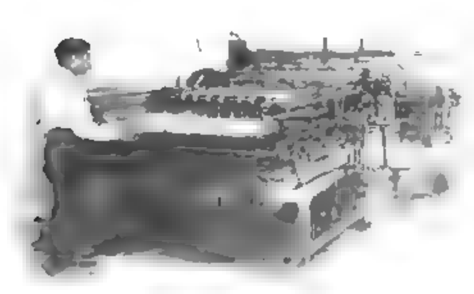
ولقد أتقنت مطبعة المعارف



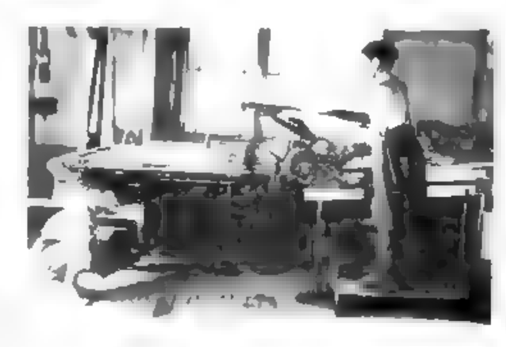
مصر . فهي الآن واسطة عقد المطابع على اختلافها وعزة في جبينها وفخر لمصر والمصريين



وإن تعجب فعجب من هذه الآلات التي تدار من غير حاجة إلى يد بسمة «أوتوماتيك» وترى الناظر ثنتين منها في هذه الصورة فالأولى التي على اليمين من نوع (البدال) السريعة الحركة والثانية من النوع الأسطواني المعروف (بالطنبور)



وهذه صورة آلة الطباعة الدقيقة التي تحلى فيها حروف الصف وتدار للعمل وهي من النوع «الأوتوماتيكي» التي تستعملها أشهر المطابع في البلاد الأجنبية لطبع الكتب المقدسة وغيرها من المطبوعات القيمـــــة



وهذا رسم آلة طي الورق على الطريقة «الأوتوماتيكية» وترى العامل واقفاً على اليمين يضع رزمة الورق المطبوع على لوحتها والعامل الصغير مسؤول الورق الذي يتدفق منها وقد تم طيه وأصبح معداً لفرع التجليد

ومما يسر النفس وتقر به العين أن جميع العمال الذين يقومون بالعمل فيها مصريون قد تعودوا



لذة الفن فشغفهم حبُّ الاتقان فى العمل حتى صار طبعاً لهم فلو حاولوا عدم الاتقان لما وجدوا اليه سبيلاً

وكل شىء فى هذه المطبعة يشير أبلغ إشارة الى الجهود العظيمة التى بذلها مؤسسها المرحوم نجيب مترى والى قوة العزيمة التى كان يتحلّى بها فى إدارة العمل فقد كان سبّاقاً فى حلبة الاتقان مفطوراً على الميل الصحيح الى هذا الفن العظيم معروفاً بسلامة الذوق ورقة الجانب وكرم الأخلاق وقد غادر هذه الحياة قرير العين بما تركه من الآثار التى خلّدت ذكره فى تاريخ فن الطباعة فى الشرق



المرحوم نجيب مترى

ولا تزال هذه المطبعة الشهيرة تسرع الخطى صاعدةً فى معارج الرقى والحياة المقرونة بالأثر الصالح والذكر الجميل بهمة صاحبيها الأديبين الناهضين شفيق افندى مترى وادوار افندى مترى اللذين يتباريان فى حلبة العمل بنزاهة واخلاص وأمانة ، ويعملان بما أُوتياه من المهارة فى سبيل التجديد والتحسين ،



شفيق مترى



دوار مترى

ويتسابقان الى توثيق عرى الصداقة والولاء مع كرام الكتاب والشعراء والمؤلفين الذين خدموا العلم بأقلامهم وأفكارهم ولا يزالون يجدّون فى نشر التعليم فى أرجاء البلاد

*
* *

صورة الكأس الذى قدّمه فريق من المؤلفين والأدباء
الى نجيب افندى مترى
تذكاراً للعيد الفضى الذى أقاموه لمطبعة المعارف
بفندق الكونتيننتال بالقاهرة
فى ٢٨ ابريل سنة ١٩١٦



٤ نص الخطاب الذى ألقاه حضرة صاحب العزة الدكتور طه حسين بك.. فى اليوبيل الذهبى لدار المعارف فى سنة ١٩٤١م

سيداتى وسادتى:

أما أنا فلم يتح لى الاشتراك فى العيد الفضى لمطبعة المعارف ومكتبتها. ولست أدرى أكنت فى ذلك الوقت أدنى إلى الشباب من السادة الذين أحيوا هذا العيد. ولكن المحقق أنى كنت فى أوربا أتم دراستى فى باريس. كما أنى لم أدع إلى الكلام فى إحياء هذا العيد الذهبى. ولكنى طلبت أن يؤذن لى بالكلام لأنى أحسست حاجة قوية إلى أن أشارك فى تكريم مطبعة المعارف ومكتبتها، وإلى أن أعترف بفضلها فى تشجيع الإنتاج الأدبى ودفع الأدباء إليه.

ولقد رجعت من أوربا وفى نفسى صورة ممتازة لما انتهت إليه الصلة بين الأدباء والناشرين فى هذا العصر الحديث. فهى صلة تقوم على التعاون ولا تقوم على الاستغلال، فالناشر ينظر إلى الأديب المنتج على أنه شريكه فى خدمة المعرفة والثقافة وتمكين العقل من أن يوصل ثمراته إلى أبعد مدى وإلى أكثر عدد ممكن من القراء. والأديب ينظر إلى الناشر على هذا النحو نفسه، وقد انتهى ذلك العصر الذى كان نشر الثقافة فيه تجارة يسعد بها الناشر والطابع ويشقى بها العالم والأديب.

رجعت من أوربا وفى نفسى هذه الصورة الرائعة، ولست أخفى عليكم أنى أنفقت وقتا غير قصير ألتمس هذه الصورة فى مصر. فلم يتح لى الاهتداء إليها إلا حين اتصلت بمطبعة المعارف ومكتبتها. هنالك لم أحس الارتياح إلى العلاقة بينى وبين الذين أخذوا ينشرون كتبى. وإنما أحسست شيئا أكثر من ذلك وأقوى، أحسست تعاونا يقوم على المودة والوفاء. وما لى لا أصارحكم ببعض الحق. وما طلبت الكلام إلا لأصارحكم ببعض الحق؟



فقد كان عهدى بالكتب التى ننشرها فى مصر أنها تكلفنا ما تكلفنا من العناء فى تأليفها وإذاعتها، ثم لا نجنى منها شيئا، أو لا نكاد نجنى منها شيئا، وربما كلفتنا إلى العناء العقلى أثقالا مالية لم نكن نقدر على احتمالها فى كثير من الأحيان. فلما اتصلت بمطبعة المعارف ومكتبتها تغير هذا كله تغيرا تاما. ومن المحقق أن المرتب الذى كنت أتقاضاه من الجامعة لم يكن من شأنه أن يمكننى من الرحلة إلى أوربا فى كل عام هناك حيث كنت أفرغ للراحة أولا، ثم للدرس والإنتاج بعد ذلك. فأنا مدين بالرحلة المنظمة إلى أوربا، وبما أتاحت لى هذه الرحلة من راحة وإنتاج لمطبعة المعارف ومكتبتها.

٥ - نص الإهداء الذى كتبه حضرة شفيق مترى أفندى صاحب (مطبعة المعارف ومكتبتها) إلى الملك فاروق بمناسبة صدور طبعة خاصة من كتاب «كليلة ودمنة» على شرف الاحتفال باليوبيل الذهبى لدار المعارف سنة ١٩٤١:

الإهداء

إلى الملك المصلح فاروق الأول

مولاى...

قد امتاز عهدكم السعيد بنهضة للعلم والفن والأدب والإصلاح أحيت الأمل فى مستقبل لمصر والشرق خليق بأرقى عصور الحضارة الإسلامية. وهذا كتاب «كليلة ودمنة» قد ظفر بحظ من الخلود لم يتح لغيره من روائع الآثار لانفراده بأسلوب من الحكمة نسيج وحده. وقد حرصت مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر تذكارا لعيدها الذهبى - على أن تخرج منه صورة جديدة دقيقة تلائم فى جمالها وروعتها هذا العهد الذهبى



السعيد. فهل يأذن مولاى فى أن أرفع إلى سدته العالية هذا الأثر الخالد ليكون فى هذا العطف السامى تشجيع على ما تحبون من المضى فى إحياء العلوم والآداب والفنون

الخادم الخاضع المطيع
شفيق نجيب مترى

القاهرة فى ١٥ إبريل سنة ١٩٤١م

أخرجت هذه الطبعة (مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر) لصاحبها شفيق نجيب مترى.

تذكارا لعيدها الذهبى فى شهر إبريل من سنة إحدى وأربعين وتسعماية وألف.

وكان الفراغ من طبعه فى اليوم الثامن عشر من شهر ربيع الأول سنة ستين وثلاثمائة وألف الموافق الخامس عشر من شهر أبريل سنة إحدى وأربعين وتسعمائة وألف بمطبعة المعارف ومكتبتها بمصر لصاحبها شفيق نجيب مترى، وعدد نسخ هذه الطبعة خمس وسبعون وألف منها تسعون ومائة على ورق من نوع velino ماركة Formosa Editio مرقومة من ١ إلى ١٩٠ والنسخ الباقية على ورق فاخر صنع السويد مرقومة من ١٩١ إلى ١٠٧٥

٦ - التصدير الذى كتبه حضرة الدكتور طه حسين بك للطبعة الخاصة من كتاب «كليلة ودمنة»

التصدير
للدكتور طه حسين بك

هذه طرفة قيمة تهديها مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر إلى قراء العربية فتمتع بها عقلهم وذوقهم وشعورهم وحسهم معا. وتقديمها إليهم، فى هذه الأيام المظلمة المؤلمة التى قلما يظفر الناس فيها بهذا المتاع الممتاز الخالص الذى ينعمون به فى أيام السلم، فضل يضاف إلى فضل وإحسان يضاف إلى إحسان.



فـى هذه الأيـام التى لا يلتقى الناس فيهـا إلا تحدث بعضهم إلى بعض عن آلام الحرب وآثامها، والتى لا يخلو الناس فيها إلى أنفسهم إلا فكروا فى سيئات الحرب وموبقاتها، والتى لا يصبح الناس فيها ولا يمسـون إلا على أنباء منها ما يسر ولكنه سرور فيه حمرة الدم وريـح المـوت، ومنها ما يحزن ويسـوء ولكنه حـزن لا كالأحزان: حزن عميق كثيف مطبق، يعرف أوله ولا يعرف آخره.

فى هذه الأيام التى يحاول الناس فيها أحيانا أن يفروا من أنفسهم وأن يفزعوا إلى القراءة وإلى غيرها من وسائل المتاع العقلى لعلهم يجدون فيها راحة من أنباء الحـرب وخطوبها الباهظة، فلا يقرأون إلا مـا يتصل بالحـرب، ولا يجدون من لذات الفـن إلا ما بينه وبين الحرب سبب قريب أو بعيد.

فـى هـذه الأيـام المؤذيـة المضنية يحمـد النـاس لمطبعـة المعارف ومكتبتهـا أن تقدم إليهم هذه المتعه القديمـة الجديدة التى مضت عليهـا القـرون والقرون، وسـتمضى عليهـا القرون والقـرون وهى محتفظـة دائما بشـباب نضر غض لا يعرض له الـذواء ولا يدركه الذبـول. وهـم ينظـرون فيهـا كما تقـدم إليهـم الآن فيجـدون لذة لأبصارهـم، ولا يكادون يقرأون فيها حتى يجدوا هذه اللذه الفنية الممتازة النقيـة التى تخرجهم من هذه البيئـة الثقيلة البغيضة التى يكـره الناس على الحيـاة فيها الآن، فهى منفـذ يخلصون منه بين حين وحين سـاعة من نهار أو سـاعة مـن ليل إلى جو نقـى طاهر فيه للقلب رضا، وفيه للعقل غذاء وفيه للحس راحة وفيه للنفس روح.

ويروقنى أن أرى فى هذه الطبعة الجديدة من كتاب «كليلة ودمنة» رموزا سامية صادقة لمعان سامية نحبها أشد الحب ونطمح إليها أشد الطموح.

ففى هذا الكتاب حكمة الهنـد، وجهد الفرس، ولغة العرب. وهـو من هذه الناحيـة رمز صادق دقيق لمعنى سـام جليل، هو هذه الوحدة العقلية الشرقية التى تنشأ عن التعاون والتضامن وتظاهر



الأجيال والقرون بين أمم الشرق على اختلافها، والتى حققتها الحضارة الإسلامية على أحسن وجه وأكمله أيام كانت هذه الحضارة حية قوية مؤثرة فى حياة الأمم والشعوب والتى نريد الآن أن نرد إليها قوتها الأولى وجمالها القديم.

هذه الحكمة الخالدة الساذجة التى أفاضها روح الهند. ونقلها عنهم جهد الفرس، وصاغها فى هذه الصورة العربية الرائعة ذوق العرب، وتوارثتها الأجيال بعد ذلك فنقلتها من بيئة إلى بيئة ومن شعب إلى شعب حتى جعلتها جزءا من التراث الإنسانى الخالد، هذه الحكمة فى صورتها العربية رمزلما نحب أن يكون من تعاون الأمم الشرقية على إشاعة البر والتقوى وإذاعة الخير والمعروف ومقاومة الإثم والعدوان.

وفى هذه الطبعة التى تقدمها مطبعة المعارف ومكتباتها إلى الناس رمز آخر صادق دقيق لمعنى آخر سام جليل، نحبه أشد الحب ونطمح إليه أشد الطموح، وهو هذا التعاون المنتج بين قديمنا العربى القيم ونشاطنا العصرى الخصب.

هذا الجهد الذى أنفقه ابن المقفع فى نقل «كليلة ودمنة» إلى العربية، وهذه الجهود التى أنفقها المسلمون بعده فى درس الكتاب وتصحيحه وتنقيحه والاستفادة منه والانتفاع به، لم تذهب سدى بل لم تنقطع ولم تقف عند حد محتوم، ولكنها اتصلت بين الأجيال يضيف إليها كل جيل ما قصرت عنه الأجيال الأخرى حتى وصلت إلينا فلم نعرض عنها ولم نزهد فيها ولم نأخذها كما هى فى قناعة وكسل وفتور، وإنما أقبلنا عليها مشغوفين بها راغبين فيها وأخذنا نضيف إليها ما عندنا كما أضاف إليها الذين سبقونا ما كان عندهم.

فالجهد القيم الذى بذله الأب شيخو حتى أخرج للناس أقدم نسخة ظفر بها لم يقف عند الحد الذى وصل إليه الأب شيخو، ولكن زميلى الدكتور عبد الوهاب عزام يضيف إليه جهدا جديدا قيما فينشر نسخة جديدة أقدم من نسخة الأب شيخو



بأكثر من قرن من الزمان، ويمكن التاريخ الأدبى والنقد الأدبى من أن يعيدا نظرهما فى هذا النص القديم، ويستخلصا منه نتائج جديدة لها قيمتها وخطرها، ومن المحقق أن هذا الجهد الذى بذله الدكتور عبد الوهاب عزام لن يقف عند هذا الحد ولن ينتهى إلى هذه الغاية.

فقد كان يريد، وكانت مطبعة المعارف ومكتبتها تريد معه، جمع أكثر عدد ممكن من النسخ المخطوطة لهذا الكتاب ومعارضتها والموازنة بينها واستخراج أصح نص ممكن من هذه المعارضة والموازنة. فحالة الحرب بينهما وبين ما كان يريدان ولكنها لم تمنعهما من يقدما إلى الناس أقدم نص لهذا الكتاب عرف إلى الآن. والحرب منقضية يوما ما والسلم مقبلة يوما ما وجهود الذين يحبون العلم ويعملون على إحيائه وتنميته وإذاعته إن وقفت الآن فهى مستأنفة غدا أو بعد غد.

وما أشك فى أن الدكتور عبد الوهاب عزام سيستأنف الجد والبحث وسيجمع النسخ المخطوطة التى لم يظفر بها بعد وسيمضى فى المعارضة والموازنة وسيتقدم بنص «كليلة ودمنة» إلى الصحة والدقة والقدم خطوات أبعد من هذه الخطوة البعيدة التى خطاها بطبع هذه النسخة.

وما ينبغى أن نسرف فى الطمع ولا أن نتعجل الزمن ولا أن نجارى طموحنا الجامح ولا أن نغض مما يتاح لنا من التوفيق والفوز فليس قليلا بل كثيرا جدا أن يخطو الدكتور عبد الوهاب عزام وتخطو معه (مطبعة المعارف ومكتبتها) فإذا خطوتهما تقدم كتاب «كليلة ودمنة» نحو الصحة والدقة والقدم أكثر من قرن من الزمان.

وفى هذه الطبعة رمز آخر صادق دقيق لمعنى سام جليل نحبه أشد الحب ونطمح إليه أشد الطموح، وهو التعاون المنتج بين علمائنا الشرقيين المحتفظين بشخصيتهم وبين علماء الغرب الذين برزوا فيما حاولوا من البحث العلمى، فقد أصبحت



العزلة العلمية سخفا لا يطمع فيه إلا الذين قصرت هممهم وفترت عزائمهم وضعفت عقولهم عن فهم الحياة كما ينبغى أن تفهم، وأصبح الجهد العلمى حظا شائعا بين الأمم المتحضرة جميعا، قوامه التعاون الصادق بين العلماء مهما تختلف أوطانهم وأجناسهم وبيئاتهم.

وقد بذل الدكتور عبد الوهاب عزام فى هذه الطريق جهدا قيما حقا فهو لم يقف وما كان له أن يقف عند الجهود الشرقية الشخصية التى بذلت لنشر هذا الكتاب؛ ولكنه ألم بالجهود التى بذلها الأوربيون والأمريكيون منذ عرفوا «كليلة ودمنة» فأصلح منها ما أصلح وقوم منها ما قوم وأضاف إليها ما أضاف، وعرض ذلك علينا فى مقدمته الممتعة مع هذه الأمانة الساذجة المتواضعة التى تليق بالعلماء والتى لا يليق غيرها بالعلماء.

ويكفى أن الذين يقرأون هذه المقدمة سيحيطون إحاطة دقيقة شاملة بكل الجهود التى أنفقت حول هذا الكتاب منذ أخذوا الفرس عن الهند إلى أن وصلت إلينا طبعته الأخيرة فى هذا العام. وفى هذه الطبعة رمز آخر صادق دقيق على سذاجته ويسره لمعنى سام جليل نحبه ونؤثره وتطمئن إليه نفوسنا اطمئنانا فيه كثير من الدعة والحنان.

فمطبعة المعارف ومكتبتها إنما عنيت بنشر هذه الطبعة وأنفقت فى ذلك ما أنفقت من جهد ومال واحتملت فيه ما احتملت من مشقة وحنان لم تصرفها عنه الحرب ولم تصدها عنه الظروف التى تصد أمثالها عن أمثاله، ووفقت فيه إلى ما وفقت إليه من الإجادة والإتقان.

فعلت هذا كله لسبب يسير ولكنه خطير فهى تريد أن تحتفل بمرور نصف قرن على إنشائها وهى لم تجد إلا هذا العمل العلمى الأدبى الفنى وسيلة إلى هذا الاحتفال، وهى بهذا تحيى ذكرى منشئ المطبعة ومكتبتها فتسجل وفاء الأبناء البررة للأب العطوف.



وهى بهذا تحيى هذا الجهد المتصل الذى أنفق فى غير ضعف ولا ملل أثناء نصف قرن فى نشر العلم وإذاعة الثقافة فى الشرق العربى كله وهى بهذا - آخر الأمر - تحيى هؤلاء القراء أو قل هذه الأجيال من القراء الذين اتصلوا بها منذ نشأت والذين عرفوا العلم والثقافة من طريقها.

تحييهم لأنهم وفوا لها كما وفت لهم وتحييهم لأنهم يثقون بها كما تثق بهم. وهى حين تهدى إليهم هذه التحية الرائعة تنبئهم فى ظرف وخفة بأنها ستمضى فى مستقبل الأيام كما مضت من قبل فى طريقها إلى نشر العلم والأدب والثقافة متوخية ما يجب أن يتوخاه الناشر الأمين من العناية بالدقة العلمية والجمال الفنى والحرص على إرضاء العقل والذوق والشعور جميعا.

وأظن أنى لا أتجاوز إرادة القراء إذا أهديت إلى (مطبعة المعارف ومكتبتها) وإلى الدكتور عبد الوهاب عزام تحية ملؤها التقدير والإعجاب والأمل.

طه حسين

القاهرة في ٥ أبريل سنة ١٩٤١م



المحتــوى



طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع)